


جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بالقاهرة
قسم البلاغة والنقد

علم المعاني

دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية	
رقم التصنيف	
18762	
General Organization of the Alexandria Library (GOAL)	
Bibliothèque d'Alexandrie	

بسمي محمد الفناج فيروز

المدرس بجامعة الأزهر

الجزء الثاني

مكتبة وهيب

١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - لميون ٣٩١٧٤٧٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن سلك سبيله ومضى على نهجه إلى يوم الدين . . .

أما بعد :

فهذا هو الجزء الثاني من كتاب : « علم المعاني دراسة بلاغية وتقديرية » ، وقد سبقه الجزء الأول الذي تناول دراسة أجزاء الجملة : « المسند والمسند إليه ومتعلقات الفعل » ، فكشف عن دقائقها ، وجلى أسرارها ، وأبرز ما يمكن وراء أحوال كل جزء منها من لطائف ومزايا بلاغية . .

أما هذا الجزء فيتناول دراسة الجملة وما يمكن وراء أبنيتها وصياغاتها من دقائق وأسرار ، كما يتعرض لعلاقة الجملة وارتباطها بغيرها من الجمل ، فيكشف عن الضوابط والملاحظات التي ينبغي مراعاتها عند التقاء الجملة بغيرها . . وقد تكون من أربعة فصول :

الفصل الأول : دراسة أساليب القصر .

الفصل الثاني : دراسة أساليب الإنشاء .

الفصل الثالث : دراسة مواضع الفصل ومواضع الوصل .

الفصل الرابع : دراسة الإيجاز والإطناب .

وحتى يؤتي الكتاب ثمرته المرجوة ، وتحقيق الغاية المنشودة ، والهدف المقصود ، فقد عرضنا في كل فصل من هذه الفصول لكثير من الشواهد

والأمثلة من التعبيرات الجيدة والأساليب الرفيعة ، وأوضحنا ما يمكن وراء
الآبنية والصياغات فيها من موايا وأسرار بلاغية ...

فأله عز وجل أسأل أن تتحقق الغاية المرجوة من هذا الكتاب ، وأن
ينتفع به طلبة العلم ومحبو المعرفة ، وأن يجزينا خير الجزاء ، ويهدينا سواء
السبيل ، إنه خير مسئول وهو نعم المولى ونعم النصير ...

المؤلف

د / بسيوني عبد الفتاح بسيوني

عنيزة - القصيم - المملكة العربية السعودية

في ١٧ رمضان سنة ١٤٠٧ هـ

الفصل الأول

أساليب القصر

أساليب القصر من الأساليب الغنية بالاعتبارات الدقيقة والملاحظات
العديدة ، فهو فن دقيق المجرى ، لطيف المغزى ، جليل المقدار ، كثير
الفوائد ، غزير الأسرار .

انظر إلى قول عبد الله بن قيس الرقيات :

إنما مصعب شهاب من الأ تجلت عن وجهه الظلماء

تجده يفيد المبالغة في وصف مصعب بالشجاعة والإقدام بعبارة مختصرة :
وأسلوب موجز ، وقد أثر الشاعر التعبير بإنما ليدل على أن انصاف مصعب
بصفة الشجاعة أمر ظاهر بين ، فتلك خصوصية من خصوصيات «إنما» ،
وبهذا يتضح لك أن أسلوب القصر في البيت ، قد حقق ثلاث مزايا : الإيجاز
والمبالغة والدلالة على شهرة مصعب وذووع شجاعته .

ويرجع ثراء أساليب القصر وكثرة فوائدها إلى تنوع طرقها وما بين
تلك الطرق من فروق دقيقة ، واعتبارات وملاحظات لطيفة .

هذا والقصر في اللغة معناه : الحبس ، يقال : قصرته أى حبسته ، وهو
مقصور أى : محبوس ، قال تعالى (حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ)^(١) أى :
محبوسات قد قصرن نظارهن على أزواجهن ، فالمرأة قاصرة الطرف هى التى
تحبس طرفها على بعلمها وتخصه به فلا تدمه إلى غيره .

وفي اصطلاح البلاغيين : « هو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص »
 فعندما نقول : زهير شاعر لا كاتب ، فإننا نخص زهيراً بصفة الشعر بحيث
 لا يتجاوزها إلى صفة الكتابة ، فزهير مقصور ، والشعر مقصور عليه ...
 وقد قيد البلاغيون التخصيص بالطريق الخصوص ، ، ليخرج كل ما أفاد
 القصر بغير تلك الطرق لخصوصية ، فقوانا : زيد مقصور على العلم .. وجاء
 محمد وحده .. وعلى يختص بالشعر .. وخالد يفرد بالشجاعة .. وقال
 أبو ذؤيب :

وإذا المنبئة أنشبت أظفارها ألفت كل تجمعة لا تنفع

هذه الأقوال وإن أفادت اختصاص شيء بشيء إلا أنها لا تدخل في نطاق
 دراسة البلاغيين وميدان بحثهم لأن التخصيص فيها لم يتم عن الطرق المعروفة
 التي حددوها .. وعند التأمل نجد أن إفادة القصر بغير الطرق التي حددها
 البلاغيون ، ليس وراها اعتبارات بلاغية تستدعي الدراسة والبحث ، ولذا
 حصر البلاغيون دراسة القصر في تلك الطرق الغنية بالاعتبارات والملاحظات
 الدقيقة .. وهي : « التقديم » كقوله تعالى : « يَا بَاكَ أَنْجِدْ »^(١) .. « والمطف »
 نحو : محمد كاتب لا شاعر .. و « إغما » كقوله تعالى : « إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ
 مَّنْ يَخْشَاهَا »^(٢) ... والنفى والاستثناء كقوله عز وجل : « إِنْ أَنْتَ
 إِلَّا نَذِيرٌ »^(٣) ... وأضاف بعضهم : « تعريف المسند أو المسند إليه بال
 الجنسية » ، « وتوسط ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر » نحو : محمد الجواد ..
 وعلى هو العالم ... وزاد بعضهم طرقاً أخرى حتى وصلت طرق القصر
 عندهم إلى أربعة عشر طريقاً^(٤) .

(٢) - سورة النازعات آية ٥٥ .

(٤) انظر الاتقان ج ٢ ص ٥٠

(١) سورة الفاتحة آية ٤ .

(٣) سورة فاطر آية ٢٣ .

ولكن ما عليه جمهور البلاغيين هو الطرق الأربعة الأولى لأنهم هم الغنية بالاعتبارات والملاحظات دون غيرها . .

والبلاغيون في دراستهم لأسلوب القصر ينظرون إلى فرض المتكلم من الاختصاص . . . وإلى حال المخاطب التي وقف عليها المتكلم فأحدث هذا التخصيص . . . وإلى طرفي القصر أي المقصور والمقصور عليه . . . ثم إلى طرق القصر المشهورة وما بينها من فروق واعتبارات . . . فالقصر كما عرفه : تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص ، الشيء الأول هو المقصور والثاني المقصور عليه ، ومعنى اختصاص المقصور بالمقصور عليه : ألا يتجاوزه ويتعداه إلى غيره . . . فني قولنا : ما شاعر إلا زهير ، قصر للشاعرية على زهير بحيث لا تتعداه إلى غيره . . . وهذا الغير الذي انتفت عنه صفة الشعر إن كان عاما فالقصر حقيقي ، وإن كان معينا فالقصر إضافي . . . والعالم إن كان مطابقا للواقع الخارجي فالقصر حقيقي تحقيق ، وإن كان مبنيا على الادعاء والمبالغة فهو حقيقي ادعائي . . . ثم القصر الإضافي ينظر فيه إلى حال المخاطب فهو إما أن يكون مترددا في إثبات المقصور للمقصور عليه ونفيه عن المنفي عنه . . . وإما أن يكون معنقدا الشبهة أي : اشتراك المنفي عنه والمقصور عليه في المقصور . . . وإما أن يعتقد العكس أي : إثبات المقصور للمنفي عنه ونفيه عن المقصور عليه . . . فالأول قصر التعيين والثاني قصر الإفراء والثالث قصر القلب . .

ثم ينظرون إلى طرفي القصر ، أي : المقصور والمقصور عليه ، لأنه لا بد أن يكون أحدهما موصوفاً والآخر صفة ، ولذا فالقصر إما أن يكون قصر صفة على موصوف أو قصر موصوف على صفة . .

هذا وليست طرق القصر سواء في الدلالة عليه ، بل بينها فروق دقيقة كما قلت . . تحتاج من الدارس لكي يقف عليها إلى تأمل واسع ونظر دقيق ثم إن تحديد المقصور والمقصور عليه ليس بالشيء الهين ، بل يحتاج من الدارس أيضا إلى نظر وتأمل في أسلوب القصر ، فمثلا قولك : إنما ضرب محمد ريدا

يقيد قصر الضرب الواقع من محمد على زيد ، وقولك إنما ضرب زيداً محمد ،
يقيد قصر الضرب الواقع على زيد ، على فاعله محمد ، وبينهما فرق كبير ...
هذا إجمال غل لما ذكره البلاغيون في حديثهم عن أساليب القصر ، ولدى
يتبدد هذا الإخلال فتقف على مزايا القصر وأسراره ودقائقه ، فإنما سنتبعه
بالتفصيل والإيضاح والبيان فيما يلي إن شاء الله ..

القصر الحقيقي والإضافي :

ينقسم القصر باعتبار غرض المتكلم وما يقصد إليه إلى قسمين :
قصر حقيقي ، وقصر إضافي ...

فالقصر الحقيقي : ما كان غرض المتكلم منه أن يختص المقصور بالمقصود
عليه بحيث لا يتعداه إلى غيره أصلاً ... وهذا يعني أن المنفى عنه يكون عاماً ،
فالمقصود يختص بالمقصود عليه منفي عن كل ما عداه ... كما في قوله تعالى :
« وَعِندَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَبْلُغُهَا إِلَّا جُودٌ »^(١) ، في الآية طريقان من
طرق القصر الأول التقديم ، وعنده مفاتيح الغيب ، ، والثاني : المنفى
والاستثناء ، لا يعلمها إلا جود ، ، فمفاتيح الغيب عنده وليست عند غيره ،
وعلمها مقصور عليه تعالى ، منفي عن كل ما عداه ، وتكرار القصر أفاد تأكيد
هذه الحقيقة وتقريرها ، وهي أن العلم بالغيب يختص به تعالى ، لا يتعداه إلى
أحد من خلقه ... ومنه قولنا : « ما خاتم الأنبياء إلا محمد ، ، فالمراد : أن
ختم النبوة مقصور على محمد - صلى الله عليه وسلم - لا يتعداه إلى غيره من
الرسل ... وقوله عز وجل : « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ
سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً »^(٢) ،
فالمراد بقصر العبادة على الله تعالى بحيث لا تتعدى إلى غيره مطلقاً .

(١) سورة الأنعام الآية ٥٩ (٢) سورة آل عمران الآية ٤٤

والقصر الإضافي : أن يختص المقصور بالمقصور عليه بالنسبة إلى شيء معين ، أى بالإضافة إليه ، بحيث لا يتجاوزهُ إلى ذلك المعين . . كما في قولنا : زهير شاعر لا كاتب ، فالمراد : قصر زهير على صفة الشعر ، بحيث لا يتجاوزها إلى صفة معينة محددة ، وهي صفة الكتابة . . . وهذا لا ينافي أن يكون لزهير صفات أخرى كالخطابة مثلا ، ففي القصر الإضافي يكون المنفى معيناً محدداً ، والمراد ألا يتجاوز المقصور المقصور عليه إلى هذا المنفى المعين ، وإن أمكن أن يتجاوزهُ إلى غيره . . . ومنه قولنا : الشاعر ذو الرمة لا زياد ، فصفة الشعر مقصورة على ذي الرمة ، لا تعداه إلى زياد ، وإن صحح أن تعداه إلى نصيب والكميت وجريز والفرزدق وغيرهم من الشعراء . . .

هذا وينقسم القصر الحقيقي إلى قسمين : حقيقي محقق وحقيقي ادعائي . . فالحقيقي : ما كان المنفى فيه عاماً يتناول كل ما عدا المقصور عليه من حيث واقع الحال وحقيقة الأمر ، فالمقصور يختص بالمقصور عليه لا يتعداه إلى غيره في واقع الأمر وحقيقة الحال ، كما في الشواهد التي مرت بنا وكما في قولك : ما أكرمت إلا زيدا ، إذا كان الإكرام لم يقع منك إلا على زيد في واقع الأمر وحقيقته . . . ومنه قولنا : لا يحج إلى مكة إلا المسلمون ، فالواقع مطابق لهذا ، لأن الحج إلى مكة مقصور على المسلمين . ومنه عن كل من عدلهم من أصحاب الملل الأخرى . . . ومنه قوله تعالى : « تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمَلِكُ وَيُحْيِي وَيُمِيتُ كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (١) ، فالملك يختص بالله في الحقيقة والواقع ، ومنه عن كل ما عداه وقوله تعالى : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » (٢) ، فالعبادة وطلب العون يختصان بالله ، ومنه عن كل ما عداه في واقع الأمر وحقيقته . . . وقوله عز وجل : « وَمَنْ يَفْضُرْ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ » (٣) ، فغفران الذنوب يختص بالله تعالى ، منفي عما عداه

(١) - سورة الملك الآية ١ (٢) - سورة الفاتحة الآية ٤

(٣) - سورة آل عمران الآية ١٣٥

في الواقع والحقيقة ... ونلاحظ أن المقصور في الشواهد المذكورة صفة،
والمقصور عليه موصوف ، فالقصر الحقيقي التحقيقي يقع كثيرا في الكلام
إذا كان المقصور صفة ، ويقال في قصر الموصوف على الصفة ، لأن الغالب
في الموصوف أن يتصف بعدة صفات ولا يوقف على صفة واحدة ...
أما الصفة فيجوز وقفها على موصوف واحد وحصرها فيه ... وقد غالى
بعض البلاغيين فقالوا إن قصر الموصوف على الصفة قصر ادقيقا بتحقيقها
لا يتأتى لأنه ما من موصوف إلا وله صفات كثيرة تتعذر الإحاطة بها
أو تعسر ، فإذا قلنا : ما زهير إلا شاعر .. وما زياد إلا كاتب .. لا يتأتى
أن يكون زهير مقصورا على صفة الشعر لا يتجاوزها إلى غيرها ... ولا لمن
يكون زياد موقوفا على الكتابة لا يتعداها إلى غيرها ... كيف وما
ياكلان ويكلمان ويمشان ، ويتصفان بالحياة ، وباليأس أو السواد وبالقصر
أو الطول وبالإدكاء أو الغيابة .. إلى آخر ما يمكن أن يتصف به الخي ؟ ...
بل إن البعض خرج بالمسألة عن نطاق الدراسة البلاغية . فقالوا : إن الصفة
المنفية لها تقيض البتة ، وهذا النقيض من الصفات ، فإذا نفيت جميع
الصفات لزيم ارتفاع النقيضين ... واحتدم النقاش واشتد الأخذ والرد ،
ودخلت المسألة في ما حكاه كلامية ينبغي أن ينزه عنها الدرس البلاغي ،
لأنهم الشرائب التي تذكر صفوه وتذكر عذبه (١) ... ولو تنبه هؤلاء إلى
قول عبد القاهر : ، واعلم أن قولنا في الخبر إذا أخر نحو ما زيد إلا قائم ،
أنك اختصت القيام من بين الأوصاف التي يتوهم كون زيد عليها ، ونفيت
ما عدا القيام عنه . فإنما نفي أنك نفيت عنه الأوصاف التي تنافي القيام نحو
أن يكون جالسا أو مضطجعا أو متكبئا أو ما شاكل ذلك ولم ترد أنك نفيت
ما ليس من القيام بسبيل ، إذ لسنا ننفي عنه بقراءنا ما هو إلا قائم أن يكون
أسود أو أبيض أو طويلا أو قصيرا أو عالما أو جاهلا ، كما أننا قلنا ما قائم

(١) انظر إن شئت شرح لناخيس والمطول .

إلا زيد لم ترد أنه ليس في الدنيا قائم سواء وإنما نعلم ما قائم حيث نحن وبحضرتنا وما أشبه ذلك، (١) لو تنزهوا إلى هذا القول ما خرجوا بالمسألة عن نطاق الدرس البلاغي وخاضوا بها الخوض الذي خاضوه ...

وخلاصة القول أن المبنى عنه في القصر الحقيقي التحقيق، ما هو بسبيل من المقصور عليه، وواقع في دائرته، ويتبادر إلى الذهن عند سماع أسلوب القصر، فإذا قلت ما شاعر إلا زيد فإنك لا تعنى نفي الشعارية عن كل من ولدته حواء في كل المصور وكل الأمم، وإنما تعنى نفي الشعارية في حدود ما يشير السياق والقرائن، (٢) وكذا إن قلت ما زهير إلا شاعر، لا يعنى أنك تنفى عن زهير كل صفة غير الشعر، وإنما يعنى أنك تنفى عنه كل ما هو بسبيل من صفة الشعر كالخطابة والكتابة. وكل ما هو في نطاق القول والإبداع مما يحدده السياق وتشير إياه القرائن ...

أما القصر الحقيقي الادعائي، فهو أن يختص المقصور بالمقصود عليه بحيث لا يتعداه إلى غيره، ادعاء ومبالغة، فالمقصود يختص بالمقصود عليه وينفى عن كل ما عداه مما هو بسبيل منه نفياً يقوم على المبالغة والتجاوز، ولا يقوم على المطابقة الحقيقية للواقع ... كما في قوله تعالى: «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُلُوكُ» (٣)، فقد قصرت خشية الله على الملوك ونفيت عن كل ما عداهم ... ولا ينفى هذا أن غير العالم لا يخشى الله تعالى، بل قد يكون غير العالم أشد خشية لله من العالم، ولكن سياق الآيات في التنويه بشأن الملوك وتعظيم منزلتهم، والحث على النظر والتأمل اقرأ: «أَلَمْ نَرَأِ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَمَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ

(٢) دلالات التراكييب ص ٤٢ .

(١) دلالات الإعجاز ص ٢٢٥ .

(٣) سورة فاطر آية ٢٨ .

وَحَرَّ مُخْتَلِفَ أَلْوَانِهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ . وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ
مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ . » ، ولذا
كانت خشية الله مقصورة على العلماء دون غيرهم ، لأن خشية غيرهم لا يعتد بها
في هذا المقام . ومن ذلك قوله تعالى : « قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي
وَأَخِي ... » (١) ، أثبت موسى عليه السلام ، ملكيته لنفسه ولأخيه ونفاهما
عن كل ما عداهما ، والمراد : لا أملك في سبيل الله والدفاع عن كلمة الحق
إلا نفسي وأخي ، والسياق يرشد إلى أنه كان هناك رجلان يخافان الله ، قد
أنعم الله عليهما بالإيمان ، واسكن موسى لم يعتد بإيمانهما ، نظرا لتقلب قومه
وتغير أحوالهم ولذا قال : « فَأَفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْفَاسِقِينَ ... » .

ومن ذلك قولنا : ما شاعر إلا زهير ... وما الرثاء إلا رثاء ابن الرومي .
وما خيليب إلا زياد ... فقد بنى القصص على الادعاء والمبالغة وعدم الاعتماد
بغير زهير في الشعر : وبغير ابن الرومي في الرثاء الحزن بن المؤمل ، وبغير زياد
في الخطابة وحسن البيان ... ومنه قول الشاعر :

لا سيف إلا ذو الفقار ر ولا فتى إلا علي

فالمراد لإثبات القوة والمضاء لنبي الفقار وهو سيوف الإمام علي - كرم الله
وجهه - ونفيها عما عداه ، وإثبات الفتوة له - رضي الله عنه - ونفيها عن
غيره ، ادعاء ومبالغة في قوته وشجاعته ، فهناك سبب في كثيرة ماضية نفاذ
وهناك ألوان من الفتوة والبطولة لا تقل عن بطولته - كرم الله وجهه - ،
ولذا كان القصر في البيت من قبيل الادعاء والمبالغة . ودنه قوله صلى الله
عليه وسلم : « لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فمطأه على ماله
في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها ... » ، فقد قصر الحسد

بمعنى تنبؤة على هاتين الصفتين ، وتبقى عما عداهما ادعاء ومبالغة ؛ لأن الغبطة تكبر ، في غير الاثنين المذكورتين ولا يمكنه نزل غيرهما منزلة العدم على سبيل الادعاء . . . هذا والقصر الادعائي كثير في كلام العرب ، ويرد في مقامات المبالغة والمدح والتعظيم نحو قولهم : ما مؤدب إلا فلان . . . ما عالم إلا فلان . . . ما شاعر إلا امرؤ القيس . . ما خطيب إلا صحر العبدى . . ما كاتب إلا فلان . . يبنون الكلام في ذلك على المبالغة وعدم الاعتداد بغير المذكور في تلك الصفات . .

قصر الأفراد والقلب والتعيين :

تقدم أن القصر الإضافي ، ما يكون المنفى فيه معيناً ومحدداً ، فالمقصود يختص بالمقصود عليه لا يتجاوزه إلى ذلك المعين كما في قوله تعالى : « وَمَا أَنْتَ بِمُشِيرٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ » (١) ، حيث قصر الرسول صلى الله عليه وسلم على صفة الإنذار ، دون أن يملك تحويل القلوب عما هي عليه من العناد والمكابرة . . وكما في قول الشاعر :

إلى الله أشكو لا إلى الناس أنى
أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب

فقد قصرت الشكوى على « الله » عز وجل بحيث لا تعداه إلى شيء معين وهو « الناس » . . . وهذا القصر الإضافي ينقسم باعتبار حال المخاطب ، واعتقاده الذي وقف عليه المتكلم ، إلى ثلاثة أقسام : قلب . . . وإفراد . . . وتعيين .

قصر القلب : هو تخصيص أمر بأمر مكان آخر . . ويخاطب به من يعتقد العكس ، كقولك : جاني زيد لا عمرو ، مخاطباً من يعتقد أن عمراً هو الذي

جاءك دون زيد ، فأنت تمكس وتقلب ما يعتقده ولذا سمى قصر قلب ،
 ثم منه قوله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا : أَنُؤْمِنُ
 كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ »^(١) ، لأن
 المنافقين يعتقدون أن المؤمنين هم السفهاء دونهم ، فقلب الله عن وجل اعتقادهم
 وبين أن المنافقين هم السفهاء ولكن لا يعلمون .. وقوله تعالى : « مَا لِلْيَسِيعِ
 بِنِ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا
 بِاُكُلَانِ الطَّعَامِ أَنْظَرَا كَيْفَ نُجِبُ لَّهُمْ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظَرَا أَنَّى
 يُؤْفَكُونَ .. »^(٢) فالنصارى يعتقدون أن الله ثالث ثلاثة « لَقَدْ كَفَرَ
 الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّا اللَّهُ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ .. » ، فقلب الله تعالى اعتقادهم :
 « ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل .. » فالمسيح مقصور
 على كونه رسولا يخلو كما خلت الرسل من قبله ، ولا يتجاوز ذلك إلى كونه
 إلها كما اعتقد الكفرة ، ولذا فالقصر في الآية الكريمة قصر قلب .. ونأمل
 قول أبي تمام :

والعلم في شهب الأرماع لامعة بين الخيسين لا في السبعة الشهب

تجده قد قصر العلم على كونه في قوة الجيش والعتاد ، ونفاه عن كونه
 في علم المنجمين الذين نصحوا المعتصم ألا يقبل على الجهاد في ذلك الوقت ،
 لأن النجوم تنبئ بأن يترث ولا يتعجل ، ولكن المعتصم لم يعبأ بما قالوا ، وأقبل
 إلى الجهاد ، فانتصر وفتح عمورية ، وأنشد أبو تمام هذه القصيدة مشيدا
 بنصره ، ومشيرا إلى قصور علم المنجمين .. . فالقصر في البيت المذكور
 قصر قلب ، لأنهم اعتقدوا أن العلم في السبعة الشهب لا في قوة الرماح والجيش ،
 فنفى أبو تمام هذا وأثبت عكسه كما نرى .

وقصر الأفراد : هو تخصيص أمر بأمر دون آخر ، ويخاطب به من يعتقد
الشركة ، كقوله : محمد الجواد لا على لمن اعتقد أنهما يشتركان في صفة الحود
ومنه قوله تعالى : « لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ
إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ » (١) ، فهم يعتقدون الشركة وأن الله ثالث ثلاثة ،
وأفاد أسلوب القصر أن الإله واحد ، وما من إله إلا إله واحد ، فهو قصر
لأفراد .. وتأمل قوله تعالى (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ
الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُبِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ) (٢) ، فالصحابه رضوان
الله عليهم لشدة تعلقهم وحبهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، نزلوا منزلة من يعتقد
أن محمداً عليه الصلاة والسلام يجمع بين صفتي الرسالة والخلد ، فجاء أسلوب
القصر مفيداً أنه عليه الصلاة والسلام مقصور على صفة الرسالة ، فهو رسول
يخلو كما خلت الرسل من قبله ، لا يتجاوز صفة الرسالة إلى التخليد في الدنيا .
وخذ قوله تعالى : (وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ مَنْ
يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْبِّحٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ • إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ) (٣) فلما كان
النبي صلى الله عليه وسلم يتمنى هداية قومه ، حريصاً بل شديد الحرص على
قبولهم الهداية ، نزل عليه الصلاة والسلام ، منزلة من يعتقد أنه يجمع بين
صفتي الإنذار والقدرة على خلق الهداية في النفوس التي أصرت على الضلال
والمكابرة ، فجاء أسلوب القصر : « إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ » محذراً مهمة النبي
صلى الله عليه وسلم وقاصراً له على صفة الإنذار ، لا يتمداها إلى القدرة على
إسماع من في القبور ..

ويشترط في قصر الموصوف على الصفة أفراداً ، عدم تنافي الوصفين حتى
يتصور اجتماعهما لموصوف واحد في ذهن المخاطب ، فلا يقال في قولك :
محمد أبيض لا أسود ، إنه قصر لأفراد ، إذ لا يتصور أن يعتقد معتقد أن

(٢) سورة آل عمران آية ١٤٤

(١) سورة المائدة آية ٧٣

(٣) سورة طه آيتا ٢٢ ، ٢٣

عمدا يتصف بالبياض والسواد معا . . كما اشترط الخطيب انقروني في قصر
الموصوف على الصفة قلباً ، تنافي الصفتين حتى يكون إثبات أحدهما مشعراً
بانتفاء الأخرى كقولك محدطوب لا قصير ، زيد ذكي لا غبي ، عمرو شجاع
لا جبان ، حاتم كريم لا بخيل . . . ورد عليه بأن قصر القاب يرد كثيراً
في الصفات غير المتنافية . كما مر بك . فلا وجه لهذا الاشتراط . .

قصر التعيين : وهو تخصيص أمر بأمر دون آخر ، ويخاطب به المتردد
بين شيئين : كقولك لمن يردد شاكا في الناجح عمرو أم بكر ، إنما الناجح
عمرو ، وقولك لمن يشك في أمر زيد أم مقيم أم مسافر ، زيد مقيم لا مسافر ،
وتأمل قول الشاعر :

فإن كان في لبس الفتى شرف له فما السيف إلا غمده والحمائل

تجده قصرًا إضافيًا صالحاً لأن يكون قصر قلب أو أفراد أو تعيين ،
وذلك حسب تصورك لحال المخاطب ، فإن كان يعتقد أن الشرف في اللبس
والزينة دون الفضائل النفسية ، فهو قصر قلب ، وإن اعتقد أن الشرف فيهما
معاً فهو قصر أفراد ، وإن تردد وشك في مرجع الشرف ، إلى اللبس والزينة
يرجع أم إلى الفضائل النفسية فهو قصر تعيين ، والأرجح أن يكون قصر
تعيين ، لأن الشاعر يريد أن يقرر أن مرد الشرف إلى ما يتصف به الإنسان
من الفضائل لا إلى الشكل والزينة ، فهذا من الأمور الواضحة البلية ،
ولا يرتاب فيها إلا من ارتاب في الأمور البديهية ، كن يرتاب مثلاً في مزية
السيف وجودته إلى حدته وشدة قوته ترجع أم إلى غمده والحمائل ، فن
ارتاب في هذا الأمر البين ، فقل له موبخاً ، ومشيراً إلى ضعف عقله ، وقلة
تفكيره ، وشدة غباه : ما السيف إلا غمده والحمائل . .

هذا ومراد البلاغيين بحال المخاطب : ما وقف القارئ للتجيرات الجيدة
عليه من قرائن الأحوال وسياقات الكلام ، فالسياق وما به من قرائن

هو الذى يبرز لك حال المخاطب . . تأمل قوله تعالى : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ..)^(١) ، وقوله عز وجل : (مَا الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ..)^(٢) ، فالمبارات واحدة والبناء هو البناء ، وعلى الرغم من ذلك نقول : إن التصريح فى الآية الأولى قصر لإفراد ، وفى الثانية قصر قلب ، والذى جعلنا نقول هذا القول الوقوف على أحوال المخاطبين من خلال تأمل سياق الآيتين . . اقرأ سياق الآية الأولى : (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَسْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ . وَاتَّقُوا كُفْرَكُمْ تَنْفُكُونَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُلَاقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ . وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَإِنَّ يَظُنُّهُ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ..) فهو ينبئك بمدى حب الصحابة رضى الله عنهم للرسول عليه السلام ، وتغلغل هذا الحب فى نفوسهم ، إلى درجة أنهم قد غفلوا عن أمر موته ، ولم يخطر ببالهم ، وهذا هو ذا عبد الله ابن عباس - رضى الله عنهما - يقول : ، فوالله لكان الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر ، فتلاها منه الناس كلهم ، فما أسمع بشرا من الناس إلا يتلوها ، . . . وهذا هو عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يقول : ، والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ، فعرفت حتى ما تقاى رجلاى ، وحتى هويت إلى الأرض . .

فالمشدة حب الصحابة لرسول الله وتعلقهم به نزولوا منزلة من يستقبل موته ، وكانهم يعتقدون أنه يجمع بين الرسالة والتبلى من الهلاك ، ولذا كان القصر قصر لإفراد . . ثم اقرأ سياق الآية الثانية (اتَّقُوا كُفْرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٤ (٢) - سورة المائدة الآية ٧٥

قَالَتْ ثَلَاثَةٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . مَا الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ حِدْبَةُ كَانَتْ بَنَاتِ كَلَانَ الطَّامَامِ انْقَارَ كَيْفَ يُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُرْفَعُونَ ، فستقف منه على حال هؤلاء ، فهم اعتقدوا أن عيسى - عليه السلام - إلهها ، وأن الله ثالث ثلاثة ، ولذا كان القصر هنا قصر قلب ، حيث قلب اعتقادهم وأفاد أن المسيح مقصور على كونه رسولا يخلو كما خابت لرسول من قبله ، لا يتجاوز ذلك إلى مرتبة الألوهية التي اعتقدوها .

وتتكون حال المخاطب لدى المتكلم وترسم في ذهنه من خلال خبرته ومعرفة بشؤون مخاطبه ، فعند التأمل نجد أن حال المخاطب تتول إلى المتكلم وما قد عليه ورعاء عن مخاطبه . . وفي كثير من الشواهد لا يستطيع أن نحدد مخاطباً أو نعين حالاً له ، بل نجد القصر منظوراً فيه إلى حال المتكلم وما يحكيه عن نفسه . . تأمل قول الشاعر :

وَكُنْتُ أَمْرًا أَلْقَى الزَّمَانَ مَسَالِمًا فَآلَيْتُ لَا أَلْقَاهُ إِلَّا مُحَارِبًا

نجد القصر فيه قصر قلب ، فالشاعر قد تدير وتبدل وانقلب من امرىء يلقى الزمان مسالماً إلى امرىء لا يلقاه إلا محارباً ، وأنت إن ذهبت تفأش عن حال هنا لا نجد إلا حال المتكلم وحديثه عن نفسه .

وقد انشغل كثير من البلاغيين ودارسين بمسألة المخاطب هذه ، وخاصوا فيها خوصنا ، وقالوا أقوالاً كثيرة ، ولا نرى داعياً لإثارة مثل هذه الأمور أو الانشغال بها ؛ لأنها لا تعود على الدارس بفائدة ، والآمر مآله . كما قلت لك - إلى المتكلم وما يرسم في ذهنه ويعلمه عن مخاطبه . . ونحن عندما

فندرس مسائل البلاغة في التعبيرات الجيدة ، والأساليب الرفيعة ، إنما نتأمل السياق لنقف على قرائن الأحوال فيه ، وعندئذ نعرف الغرض من الكلام وما تهدف إليه التراكيب ، وعلى ضوء هذا يتحدد المراد من القصر وغيره من فنون البلاغة .

قصر الصفة على الموصوف ، والموصوف على الصفة : وينقسم القصر باعتبار طرفيه : المقصور والمقصور عليه إلى قصر صفة على موصوف ، وقصر موصوف على صفة ، والمراد بالصفة هنا الصفة المعنوية التي هي معنى قائم بالغير سواء كان فعلا أو مصدرا أو مشتقا أو ظرفا أو جارا ومجرورا أو غير ذلك ، وليس المراد بها النعت النحوي ؛ لأنه لا يقع قصر بين نعت ومنعوتيه ، كقولك : جاء رجل فاضل ، ففاضل نعت نحوي للرجل ، لا يفصل بينهما ولا يتصور بينهما قصر . . . كما أن المراد بالموصوف هنا كل ما قام به غير ، وإن كان هو في نفسه صفة ، تقول في قصر الصفة على الموصوف : ماشاعر إلا زهير ، ما كتب فلان إلا الشعر ، ما أكرمت إلا زيدا . . . وفي قصر الموصوف على الصفة : ماشوق إلا شاعر إنما أنت والذي . . . محمد فارس لا عالم ، ما حاتم بخيلا بل جواد .

قصر الصفة على الموصوف معناه : ألا تتجاوز الصفة ذلك الموصوف إلى موصوف آخر أصلا . إذا كان القصر حقيقيا . أو إلى موصوف آخر إذا كان القصر إضافيا ، ولا يمنع هذا أن يتصف الموصوف المقصور عليه بصفات أخرى غير تلك الصفة المقصورة تقبولا : الخالق هو الله ، وقصر صفته الخالق على الله سبحانه وتعالى قصرا حقيقيا تحقيقيا ، ومنه قوله تعالى : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)^(١) حيث قصرت صفة العبادة وكذلك صفة الاستعانة على الله تعالى قصرا حقيقيا تحقيقيا ، ومنه قوله تعالى : (وَعِندَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ

لَا يَنْفَعُهَا إِلَّا هُوَ .. (١) حيث قصر العلم بمفاتيح الغيب على الله تعالى
قصر الحقيقية الحقيقية فهو قصر صفة على موصوف .

ومنه قول أبي تمام :

لا يطرد الهم إلا الهم من رجل مقلقل لبنات القفزة الغيب (٢)

فقد قصر الشاعر طرد الهم وهو صفة على الهم من رجل مقلقل لبنات
القفزة وهو موصوف قصر الحقيقية ادعائيا ؛ لأن الناس يطردون همومهم
بأمور كثيرة ، ولكن الشاعر لم يعتمد بشيء منها إلا بالرحلة التي غيرته وأضنته
والتي كانت سببا في حزن صاحبه وانسكاب عيونه ، فأراد أن يبين لها أن
تلك الرحلة هي الوسيلة الوحيدة لطرد الهموم والأحزان ... تأمل :

رأت تشننه فافتاح هائجها

وقال لأعجمها للهزة انكبي

لا تنكبي منه تنجيدا تجلله

فالسيف لا يزدرى إن كان ذا شطب

لا يطرد الهم إلا الهم من رجل

مقلقل لبنات القفزة الغيب

فهو لم يعتمد بغير الرحلة في طرد همومه وأحزانه ، على الرغم من وجود
وسائل كثيرة لطرد الهموم - كما قالت - ولذا كان القصر - حقيقة ادعائيا ..
ومنه قول الآخر :

(١) سورة الأنعام آية ٥١ .

(٢) المراد بالهم الأول : ما يجده الرجل في صدره من أحزان ، والمراد بالهم الثاني :
الهمة والعزيمة ، ومقلقل : من الثقلة وهي الحركة العنيفة ، ولبنات القفزة : الإبل التي
تقطع القفار ، ولانعب مردها نموب ، ولانعبان : تحريك الناقة رأسها في الجير وهذا
دليل المشاطة والقوة .

إلى الله استكنوا لا إلى الناس اننى

أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب

قصر صفة الشكوى على الله تعالى بحيث لا تتجاوز به إلى الناس فهو
قصر إضافي ... وقول المتنبي في رثاء جدته :

ولم يسلمها إلا المنايا وإنما أشد من السقم الذى أذهب السقم

فقد قصر سالوها على المنايا قصر صفة على موصوف قصر حقيقة
تحقيقيا ، لأن جدته كانت قد اشتاقت إليه في غيبته فلما وصلها كتابه قبالة
وفرحت ثم أخبرت كذبا أنه قد مات فحمت وماتت ، فرثاها بتلك القصيدة ..
أما قوله : وإنما أشد من السقم الذى أذهب السقم ، فذلك أن يجعل قصر صفة
على موصوف ، أى : قصر وأشد من السقم ، على الذى أذهب السقم ، والمزاد
بأشد من السقم : صفات الكآبة والآلم والفقدان والوجع التى تغلب السقم
وتقهره وتعلو به ؛ لأنه لا يقهر الشئ إلا ما هو أشد منه وأقوى ، فهو يتخيل
صفات كآبة أقوى من السقم ، ويقصرها على ما أذهب السقم ، وهذا لغراب
في الخيال ... (١) .

ولأنه أن يجعله من قصر الموصوف على الصفة ، أى : قصر الذى أذهب
السقم وهو المنايا على كونه أشد من السقم ، ويكون طريق القصر عندئذ
هو التقديم ، وإنما ملائمة كما في قوله :

أسميا لم تزد معرفته وإنما لذت ذكرناها . .

وسياتى تفصيل القول في هذا ، وهو ما أراه وأرجح ؛ لأن في الأول
تدقيقا لغرابا في الخيال ما أظن أن المتنبي قد قصد إليه .

وقصر الموصوف على الصفة معناه : ألا يتجاوز الموصوف تلك الصفة إلى صفة أخرى أصلاً ، إذا كان "قصر حقيقياً" . أو إلى صفة أخرى معينة إذا كان القصر إضافياً ، وهذا لا يمنع أن تكون تلك الصفة المقصور عليها وصفاً لموصوف آخر غير المقصور . نقولك ما عمرو إلا شجاع ، قصر عمرو على صفة الشجاعة بحيث لا يتعداها إلى صفة أخرى ، أما الشجاعة ، فليس هنالك ما يمنع من أن يتصف بها غير عمرو ، ونقول : زيد كاتب لا شاعر ، فتقصر زيداً على صفة الكتابة بحيث لا يتجاوزها إلى صفة الشعر ، فهو قصر إضافي ونقول : ماسرقي إلا شاعر ، فتقصر شوقياً على صفة الشعر بحيث لا يتجاوزها إلى صفة أخرى ، فهو قصر حقيقي ، ولا يقال : كيف يوصف الموصوف على صفة واحدة ؟ هذا محال ولا يتأتى ؟ . . . لأننا نقول : المراد بالصفات المنفية ، تلك الصفات التي تتصل بالمعنى المذكور ، فالصفة المنصورة عليها في المثال ، صفة الشعر ، ومعنى قصر شوق على صفة الشعر حقيقياً ، أنك نهيت عنه كل ما يتصل به ويدور في فلكها أو كما يقول عبد القاهر ، كل ما هو بسبيل منها ، كالكتابة والخطابة والفقه والحديث والنحو وما إلى ذلك ، فهو ليس بارعاً في فرع من فروع المعرفة إلا في الشعر الذي قصر عليه ، وليس المراد أنك نهيت عنه كل صفة يمكن أن يوصف بها ، ككونه مصرياً أو فقيراً أو أو صلياً معافاً أو أبيض أو كريماً أو شجاعاً . ليس هذا مراداً بل المراد - كما قلت - ما هو بسبيل من صفة الشعر المقصور عليها .

ومن شواهد قصر الموصوف على الصفة قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يُشِيعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُشِيعِ مَنْ فِي الْقُبُورِ إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ)^(١) . حيث قصر الرسول صلى الله عليه وسلم على صفة الإنذار ، لا يتجاوزها إلى أن يملك تحويل القلوب المشركة ، عما هي عليه من العناد والمكابرة . . . ونقول عليه

الصلاة والسلام : من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ، وإنما أنا قادم والله عز وجل يعطى . . .

فقد قالوا في معناه : كان بعض الصحابة يسمع الحديث ولا يفهم منه إلا الظاهر الجلي ، ويسمعه آخرون منهم فيستنبطون منه المعاني السكينة ، فالرسول صلى الله عليه وسلم حين يحدثهم يكون كلامه مقسوما بينهم ، شركة بين الجميع ، أما انهم والاستنباط فهو من عطاء الرحمن ، ففي الحديث قصر للرسول عليه الصلاة والسلام على كونه قاسما لا يتجاوز تلك الصفة إلى الإعطاء فالإعطاء وتحقق المهم من الله تعالى ، وكان الصحابة رضوان الله عليهم لفرط اعتقادهم في هدايته عليه الصلاة والسلام - رأوا أنه يقسم ويعطى ، ولذا بين لهم - صلى الله عليه وسلم - أنه لا يملك إلا القسم ، وأما الإعطاء فمن الله تعالى ، فالقصر قصر موصوف على صفة قصر إشرافا لإفراديا .

ومنه قول دريد بن الصمة :

دهل أنا إلا من غزية إن غوت .

غويت وإن ترشد غزية أرشد

حيث قصر الشاعر نفسه على كونه من تلك القبيلة لا يتعداها إلى غيرها من القبائل ، فهو قصر حقيقي تحققي . . . وقول شوقي :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت

إن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

أقد قصر الأمم على الأخلاق قصر موصوف على صفة قصر احتيقا ادعائيا ، فهناك أمور كثيرة تكون بها الأمم كالقوة والمال والرق والحضارة وغير ذلك ، وليكن الشاعر لم يعتمد بها وجعل الأمم مقصورة على صفة الأخلاق لا يتعداها إلى غيرها ، فإذا وجدت الأخلاق وسادت كانت الأمم وإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا .

ومثله قول الآخر :

هل الجود إلا أن تجود بأنفس

على كل ماضى الشفرتين صقيل

حيث قصر الجود على الجود بالأنفس قصر موصوف على صفة قصرها
حقيقية ادعائيا ، فالشاعر لم يعتد بما عدا الأنفس مما يمكن أن يبذل كالمال
والرأى والجهد وغير ذلك من ضروب البذل. وجعل الجود مقصورا على كونه
بالأنفس فقط ، إذ الجود بالنفس أسمى غاية الجود .

ولا يخفى عليك أن قصر الموصوف على الصفة يفيد بلوغ الموصوف
الغاية ، ووصوله حد النهاية في تلك الصفة ، فتقولك : ما زهير إلا شاعر ، يفيد
كمال المبالغة في شاعريته ، وأنه قد بلغ العاية في الشعر . ووصل إلى حد جعلنا
لا نعتد بالصفات الأخرى التي يمكن أن يتصف بها ، وذلك لقصور تلك الصفات
عن صفة الشعر التي تفوق فيها ووصل إلى حد النهاية . . . ولذا كان قولنا :
ما زهير إلا شاعر ، أبلغ في وصفه بالشاعرية من قولنا : ما شاعر إلا زهير ،
أو بمعنى آخر : يكون قصر الموصوف على الصفة أبلغ وأكمل وأقرب في اتصاف
الموصوف بتلك الصفة من قصر الصفة على الموصوف ، لاحتمال كون
هذه الصفة التي قصرت على الموصوف دون المستوى الأمثل إذ لم تصل إلى
حد السكال كل ما هنالك أنها وجدت في زهير دون غيره من الناس . . .

هذا والمراد بالصفة - كما قلت - الصفة المعنوية التي هي معنى قائم
بغيره كما أن المراد بالموصوف مقام به غيره وإن كان هو في نفسه صفة ،
وقد نظر البلاغيون في جملة القصر . ومنه واللك ضوابط معينة على تحديد كل
من الصفة والموصوف ، حيث ذكروا أن القصر إذا وقع بين ركبي الجملة
الاسمية ، فإن قصر المبتدأ على الخبر يكون من قصر الموصوف على الصفة
كقولك : ما زهير إلا أخرك وإنما محمد كاتب ، وقوله تعالى : (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا

إِلَّا مَقَامُ الْفُرُورِ^(١) وقولك : إنما زيد في الدار ، وما الجود إلا أن تجود بالنفس ، إلا إذا كان الخير اسماً جامداً والمبتدأ مشتقاً ، فإن القصر يكون من قصر الصفة على الموصوف كقولك : ما الكاتب إلا زيد ، وما القائم إلا عمرو ، لأنك أردت الحكم على الكاتب بأنه زيد ، وعلى القائم بأنه عمرو ، فالكاتب مبتدأ خبره زيد والقائم مبتدأ خبره عمرو ، والقصر قصر صفة على موصوف .

وقصر الخير على المبتدأ من قصر الصفة على الموصوف كقوله تعالى : (مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ)^(٢) ، وقوله عز وجل : (إِنَّا أَنَا عَلَى الْبَلَاغِ وَعَآئِنَا الْحِسَابُ)^(٣) فقد قصرت بهم ، الرسول على البلاغ قصر صفة على موصوف ، أما قوله : د علينا الحساب فهو قصر للمبتدأ الحساب ، على الخير د علينا ، قصر موصوف على صفة قصرنا حقيقياً نحقيقياً .

وإذا وقع التصريح بين أجزاء الجملة الفعلية ، فإن قصر الفعل على الفاعل يكون من قصر الصفة على الموصوف كقولك : ما كتب إلا محمد ، لا يزال العلاء إلا محمد ، ومنه قول القائل : لا يطارد الهم إلا الهم من رجل . ، وقوله جل وعلا : (لَا يَمْلِكُ إِلَّا هُوَ)^(٤) وقوله تعالى : (هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ)^(٥) وقوله : (وَمَنْ يَفْقِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ)^(٦) ، وقوله تعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُلْكُ)^(٧) .

وقصر الفعل على المنفعل كقولك : ما ضرب محمد إلا زيدا ، وإنما أكرم

-
- | | |
|-------------------------|---------------------------|
| (١) سورة الحديد آية ٢٠ | (٢) سورة المائدة آية ٩٩ |
| (٣) سورة الرعد آية ٤٠ | (٤) سورة الأنعام آية ٥٩ . |
| (٥) سورة الأنعام آية ٤٧ | (٦) سورة آل عمران آية ١٣٥ |
| (٧) سورة فاطر آية ٢٨ . | |

زيد عمراً وكما في الآيات الكريمة : « مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتُنِي بِهِ » ..
« إِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ » .. « إِنْ يَنْتَهِمُونَ إِلَّا الظَّنَّ » ، وكقولهم :
إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية ، يجوز أن يعد من قبيل قصر الصفة على
الموصوف أى : قصر الفعل الواقع من الفاعل على المفعول فيكون المعنى
عندئذ : ما مضروب محمد إلا زيد ، ما مكرم زيد إلا عمرو ، ما مقولى إلا
ما أمرتني به ، ما مهلكهم إلا أنفسهم ، ما تنتههم إلا الظن ، ما مأكول الذئب
إلا الغنم القاصية ، فتؤول الصفة المقصورة اسم مفعول . لأن الحدث لم يقع
من المفعول المقصور عليه وإنما وقع عليه ... ويجوز أن يعد من قبيل قصر
الموصوف على الصفة ، أى : قصر الفاعل على الفعل الواقع على المفعول ، ففى
الأمثلة المذكورة قصر محمد على ضرب زيد ، وزيد على إكرام عمرو ، وعيسى
عليه السلام على قول ما أمره الله به ... إلى آخر تلك الشواهد ... وتلاحظ
مدى التكلف فى الوجه الأول ، وأن الوجه الثانى غير ممكن إذا كان طريق
القصر إنما ، لأنه يؤدى إلى أن المقصور عليه قد ولى إنما ، ومعلوم أن
المقصور عليه إنما هو المؤخر ... والأولى من هذين الوجهين أن يجعل
الفعل مقصوراً على تعلقه بالمفعول ، تقول فى الشواهد المذكورة ، ضرب
ضرب محمد على تعلقه بزيد ، وإكرام زيد على تعلقه بعمرو ، وقول عيسى
على تعلقه بما أمره الله به ، وأكل الذئب على تعلقه بالغنم القاصية ، وهكذا
فى بقية الشواهد المذكورة .

وقصر الفاعل على الظرف نحو : مسافر خالد إلا يوم الخميس ، أو على
المفعول لأجله نحو : ما زرتك إلا محبة ، وقوله عز وجل : (مَا نَعْبُدُهُمْ
إِلَّا لِيُغْنِيَنَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)^(١) ، أو على المفعول المطلق نحو : ما قلت إلا قول
المخلصين ، ما حججت إلا حجتين ، وقوله تعالى : (إِنْ تَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا)^(٢)
أى : ظناً ضعيفاً ، أو على التمييز كقولك : ما طاب محمد إلا نقساء ، أو على الجار

والمجرور نحو : ما عملت إلا في بيتك ، وما دافعت إلا عنك ، أو على غير ذلك من المتعلقة التي يقع فيها القصر ، فإن القصر فيها يكون إما من قصر الموصوف على الصفة ، أو من قصر القصر على الموصوف بالاعتبارات الموضحة في قصر الفاعل على المفعول .

وقصر صاحب الحال على الحال من قصر الموصوف على الصفة نحو ما جاء على إلا راكبا ، وما لقيته إلا ضاحكا ... ما انتصر المسلمون إلا وهم متحدون .

وقصر الحال على صاحبها من قصر الصفة على الموصوف نحو ما جاء راكبا إلا خالد ، ما لقيني من حبا إلا عمرو ، ما انتصر فاضيا إلا زيد .

وأما المفعول المطابق المؤكد لهامله ، والمنعول معه فلا يتأني فيهما القصر إذ لا يقال . د ما ضربت إلا ضربا ، ولا د ما سرت إلا والنيل ، أم قوله تعالى : (إِنْ تَنْظُرْ إِلَّا ظَنًّا) ، فمعناه : إن نظن إلا ظنا ضعيفا . فهو مصدر مبين للنوع .

ما الفرق بين القصر الحقيقي الادعائي والقصر الإضافي : وكما مر بك في أنواع القصر ، فإن القصر الحقيقي الادعائي المنفي فيه عام . إذ يشمل كل ما عدا المقصور عليه ادعاء ومبالغة ، فنقول : ما شاعر إلا زهير ، قصر لصفة الشعر على زهير بحيث لا تتمدها إلى غيره من الشعراء على سبيل المبالغة ، وكذا قولك : ما زهير إلا شاعر ، قصر لزهير على صفة الشعر لا تتمدها إلى غيرها أصلا ، وهذا يعني أنه قد تفوق في هذه الصفة وبلغ فيها الغاية ، إلى درجة جعلتك لا تعتد بأي صفة أخرى غيرها . أما القصر الإضافي فالمنفي فيه محدد وليس عاما ، فنقول : زهير شاعر لا كاتب ، فتقصر زهيرا على الشعر وتنفي عنه الكتابة ، لإراداً أو قلباً أو تعيينا حسب اعتقاد المخاطب وتقول حاتم جواد لا على فتقصر صفة الجود على حاتم وتنفيها عن علي .

هذا وعند التحقيق والتأمل تجد أن القصر الإضافي بأنواعه الثلاثة إما أن يكون تحقيقيا وإما أن يكون ادعائيا ، لأن قولك : حاتم جواد لا على ، إذا كان مطابقا للواقع بمعنى إن يكون حاتم هو الكريم فعلا ، وعلى هو البخل ، كان القصر تحقيقيا ، وإن كان على كريا ، وليكن لم تعد بكرمه لأمر ما ، فقلت حاتم هو الجواد دونه كان القصر ادعائيا مبنيا على المبالغة . . . وكذا القول في قصر الموصوف على الصفة ، فقولك : زهير شاعر لا كاتب . إن كان فعلا لا يجيد الكتابة ولا يعرف طريقها وفنونها ، كان القصر تحقيقيا . وإن كان يعرفها وليكن لم تعد بذلك المعرفة لكونه في الشعر أفصح وأبلغ كان القصر مبنيا على الادعاء بالمبالغة .
طرق للقصر :

عرفت فيما سبق أن طرق القصر التي اعتلجها البلاغيون أربعة ، العطف والنقي والاستثناء وإعلاء والتقديم وإضافة بعضهم طريقتين أخريين وهما : توسط ضمير الفصل وتزييف أحد ركني الإسناد بال ، وقد اشتهرت هذه الطرق عند البلاغيين ، وليكن إفادة القصر ليست مقصورة عليها ، فهناك طرق كثيرة غيرها ، وقد ذكر السيبوطي أن طرق القصر بلغت أربعة عشر طريقا ، كما أن القصر يفاد بغير تلك الطرق المعهودة على نحو ما مر بك ، ويمكن ليس وراء إفادة القصر بغير طرق المعهودة اعتبارات تذكر ، ولذا لم يلتفت البلاغيون لغنى هذه الطرق المشهورة ، لغنى الاعتبارات والملاحظات البلاغية . . . وإليك بيان تلك الطرق وما يمكن وراء دلالتها على القصر من مزاي وأضرار بلاغية .

١ - العطف بالإلزام والترك : تقول : زيد كريم لا عمرو ، ولأن جواد لا بخيل ، وهو يدعوك إلى الخير لا إلى الشر ، وخالد ينصحك مخلصا لا مرآيا ، وجام خال لا عمرو ، وليس حاتم بخيلا بل جواد ، ولم ينصحني عمرو ولكن صديقه . . . فتجد أن القصر قد أفيد بأحد الحروف المذكورة

فواضح أن طريق العطف يصرح فيه بكل من المثبت والمنفى ، أى : المقصور عليه والمنفى عنه ، ولذا كان أقوى طرق القصر وآكدها ، لأن غيره من الطرق لا يصرح فيها بالنفى بل يفهم ضمنا كما سترى .

وعلى الرغم من أن فائدة التأكيد أقوى في هذا الطريق ، فإن مزية الإيجاز فيه تتضامل للتصريح فيه بالإثبات والنفى كما قلت .

و د لا ، صالحة لكل أنواع القصر ، والمقصود عليه بها هو المقابل لما بعدها ويشترط لدلالتهما على القصر أن يكون المعطوف بها مفردا ولا يتقدمها نفى أو نهى وألا يكون ما بعدها داخلا في عموم ما قبلها ، تقول : زيد شاعر لا غير فتفيد قصر زيد على صفة الشعر فتسرا حتميقيا . . . وتقول : زيد شاعر لا كاتب فتفيد قصره على الشعر قصرا إضافيا .

وتأمل قول أبى تمام :

بيض الصفائح لا سرد المصحاتف في

متونن جلاء الشك والريب (١)

تجده قد قصر السيوف التي حقت النصر وفتحت عمورية على كونها ببيض الصفائح ، مشرقة لامعة ، ونفاها عن كونها سرد المصحاتف : سوداء مظلمة ، فالمقصود عليه - كما ترى - هو المقابل لما بعدها لا ، ثم قصره جلاء الشك والريب ، على كونه في متون هذه السيوف أى : جوائبهن ، ونفاه عن كتب المنجمين ، وطريق هذا القصر هو التقديم الآتى بيانه . . . ولا يخفى عليك

(١) ببيض الصفائح : كناية عن السيوف وسود المصحاتف : كناية عن كتب المنجمين ، متونن : جوائبهن ، جلاء : حذف وإزالة ، الريب : الخنوع ، يقول : إن للسيوف البيضاء هي التي تزيل الشك وتظهر الحقيقة ، أما مصحاتف المنجمين للسوداء فإنها تضيق الخناق وتذهب الأبطال ، والبيت من تصبده له في فتح عمورية .

ما وراء أسوارى القصر فى البيت من تو بيخ رتحقىر لؤلؤ المنجمين وما تخبر به
صحنهم .. ومثله قوله فى هذه القصيدة أيضا ، محقرا كتب المنجمين :

والعلم فى شهب الأرماع لامة
بين الخبسين لا فى السبعة الشهب

حيث قصر العلم على كونه فى شهب الأرماع ونفاه عن الجموم التى
يستغنىها المنجمون ، السبعة الشهب ، .

وانظر إلى قول الآخر :

عمر النقى ذكره لا طول مدته
ومراته خزيه لا يومسه الدانى

فقد قصر عمر النقى وحياته على ما يخلفه من أثر طيب وذكر حسن ونفاد عن
طول مدته وامتداد أجله فى الدنيا كما قصر الموت على ما يرضى به بعض الأحياء من
خزى وهوان ونفاه عن اليوم الدانى ومفارقة الحياة ، وإهلك تشعر بما
وراء القصر من حث على الأعمال الصالحة التى تنفع الإنسان وتبقى بعد
حياته ، ومن تنفير من الذل والهوان والخزى ، فلا يقبل مثل هذا ويرضخ له
إلا فاقد الحياة ..

و ، لا ، صالحة لكل أنواع القصر - كما ذكرت - تقول فى قصر الصفة
على الموصوف زهير شاعر لا عمرو ، وفى قصر الموصوف على الصفة زهير
شاعر لا كاتب وفى القصر الحقيقى : زهير شاعر لا غيره . . . وفى القصر
الإمناى : خالد جواد لا عمرو ، فيكون قصر قلب أو أفراد أو تعيين حسب
اعتقاد المخاطب على نحو ما مر بك . . . فإذا سبقت ، لا ، بنفى نحو : ما جاء
زيد ولا عمرو أو نهى نحو : لا تفعل هذا ولا ذاك ، أو كان المعطوف بها

جملة نحو : زيد مقدم لا أبوه كريم ، والفقير يعطى من الصدقة لا أحد يشكر هذا ، أو كان ما بعدها داخل في عموم ما قبلها نحو : عاد الحجاج لا إبراهيم ، ونجح الطلاب لا خالد ، فعندئذ لا تدل على القصر ، لأنها لا تفيد إثبات أمر لآخر وتفيه عن غيره ، كما هو واضح في الأمثلة .

و د بل ، تفيد القصر إذا وابتها مفرد ، وتقدها نفي أو نهي ؛ لأنها في هذه الحال تقرر حكم ما قبلها وتثبت ضده لما بعدها فتتضمن النفي والإثبات وذلك عماد القصر ، فتقولك : ما جاء زيد بل عمرو ، يفيد نفي الجيء عن زيد وإثباته لعمرو ، فالقصور عليه بل هو ما بعدها . ويرى البلاغيون أنها صالحة للقصر الإضافي إنراداً وقلبا وتعيينا ، ولا تصلح للقصر الحقيقي ، لأن المتنبي معها يكون أمرا محذورا دائما . فإن جاء عما لا يكون منفيًا بل يكون مسكوتا عنه نحو : ما جاءني أحد بل زيد فلا تفيد هذه الجملة سوى إثبات الجيء لزيد ، أما ما قبل بل ، وهو أحد مسكوت عنه والمسكوت عنه لا يوصف بنفي ولا إثبات ، بل يرى الجمهور أن ما قبل بل ، مسكوت عنه حتى ولو كان محذورا نحو : ما جاءني زيد بل عمرو ، ما زيد قائما بل قاعد .

ولذا فهي لا تفيد قصرا ، ويرى البعض أن النفي لما قبل بل ، ولما بعدها ، فتقولك : ما جاء زيد بل عمرو ، يفيد نفي الجيء عنهما معا ولذا فهي لا تفيد القصر ، لأن النفي والإثبات غير محقق (١) .

والذي أراه أن د بل ، تفيد القصر بأنواعه ، الإضافي : قلبا وإفرادا وتعيينا ، والحقيقي : تحقيقا وإدعاءيا ، فهذا ما يفهم من الأساليب والتعبيرات ولا يمكن دفعه ولا إنكاره . تقول : ما جاء زيد بل عمرو ، فيه يكون قصر صفة على موصوف قصر إضافيا ، وتقول : ما زيد قائما بل قاعد (٢) ، فيكون

(١) ارجع إلى شروح التاميم ج ٢ ص ١٩٠ .

(٢) قاعد : لا تعرب نصبا عطفا على لفظ « قائما » ، لأن « ما » لا تعمل =

قصر موصوف على صفة قصر إضافيا ، وتقول : ما جاءني أحد بل عمرو ،
فيكون قصر حقيقيا ؟ ولا أرى معنى لكون ما قبلها مسكونا عنه ، ولا توجه
النفي لما بعدها . . . أما إذا وقعت د بل ، بعد الإثبات نحو جاء زيد بل عمرو ،
فلا تفيد القصر ؛ لأن المعنى على أنك نقلت المجيء إلى التابع د عمرو ،
وجعلت المثبوع د زيد ، في حكم المسكوب عنه ، فالجملية لا تفيد سوى
بجود إثبات المجيء لعمرو وعندئذ فلا قصر ، لأن القصر نفي وإثبات
كما علمت .

ومن شواهد القصر بل قول الشاعر :

ليس اليتم الذي قد مات والده

بل اليتم اليتيم العلم والأدب .

لقد قصر الشاعر اليتيم على صفة الحرمان من العلم والأدب ونفاذ عن
فقدان الوالد بل بلوغ مبلغ الرجال ، فهو قصر موصوف على صفة قصر
إضافيا ، وأراه قصر قلب ، لأنه قلب ما هو راسخ في الأذهان من أن اليتيم
هو الذي قد مات والده بل بلوغ من الرجال ، وفيه حث على التزود بالعلم
والتحلي بالأخلاق والآداب الرقيقة ، فمقتضاهما هو اليتيم . . .
ومنه قول عبد الله بن المعتز :

ليس التعجب من مواهب مساله

بل من سلامة أوقاتها

حيث قصر التعجب على سلامة الأموال إلى أوقات الاحتياج ونفاذ عن
المواهب والعطايا ، لأن هباته وعطاياه ثابتة وواقعة فهي لا تستحق التعجب ،

== المتيقن وإنما تعمل في النبي ، وتغرب رفا عطا على عمل و قاعا عند لابه ربي
وعليه أفاد الأسلوب القصر ، فإن أعربت خبرا لمبتدأ محذوف لا قصر ، لأن ما بعد بل
عندئذ يكون جملة .

ولنما التعجب من إصابة المحزن وبلوغ الهدف المنشود حيث تبذل الأموال إلى مستحقها وفي أوقاتها وتسلم لهذا .

و لكن ، تفيد القصر إذا سبقها نفي أو نهي ووليها مفرد ، د كبل ،
مثل : ما أكرمني زيد لكن عمرو ، فقد قصر الإكرام على عمرو ونفي عن
زيد ، فالقصور عليه بلسكن هو الواقع بعدها مثل د بل ، تماماً وهي صالحة
للقصر الإضافي قلباً وإفراداً وتعييناً حسب اعتقاد المخاطب وللقصر الحقيقي
بنوعيه ، ويرى بعض البلاغيين أنها لا تصلح للقصر الحقيقي ، لأن المنفي معها
دائماً يكون أمراً خاصاً ، ويشترط البعض للقصر بلسكن بالإضافة إلى ما ذكر
الامتازة قد اقترنت بالوار ، وهذا ليس بشيء لأننا نراها في الأساليب الجيدة والتراكيب
الامتازة قد اقترنت بالوار وأفادت القصر ، انظر إلى قوله تعالى : (مَا كَانَ
مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) (١) ،
فقد قصر النبي عليه الصلاة والسلام على الرسالة والختم لا يتجاوزهما إلى أبوة زيد ،
قصر موصوف على صفة قصر أضافياً ، ولكن مقرونة بالوار كما ترى .
ومنه قول الشاعر :

إن الجديدين في طول اختلافهما لا يفسدان ولكن يفسد الناس
فقد قصر الإفساد على الناس ونفاه عن الجديدين وهما الليل والنهار .
وقول عروة بن الورد :

وما شاب رأسي من سنين تتابع على ولكن شيبني الوقائع
حيث قصر الشيب على الوقائع ونفاه عن تتابع السنين (٢) . . . ومن
يجب . لكن مفيدة للقصر وهي غير مقرونة بالوار قول الشاعر :

(١) سورة الأحزاب الآية ٤٠ .

(٢) لا يخفى عليك أن ما بعد لكن في البيتين جملة دلالة لكن على الانصراف إليها ،
بناء على رأى بعض البلاغيين كما ستري .

ما زال في دنياه وان بغية لكن أخو حزم يحدد ويعدل
فقد قصر نيل البغية على د أخو حزم ، ونفاها عن المتراخي الكسول
وفيه حث على الجِد والاجتهاد ، فالدنيا كفاح وميدان تسابق والذي
يصل إلى هدفه ويحقق غايته هو الجاد الذي يكدر ويكدر ويسابق ويغالب .

وهذا الذي ذكرته لك هو أرجح الآراء وأولها بالقبول في دلالة
تلك الحروف على القصر ، وهناك خلافاً كثيرة حول هذه الدلالة ، فمن
البلاغيين من يرى أن د لكن ، لا تفيد القصر ، ومنهم من يرى أن د بل ،
مسكوت عما قبلها سواء سبقت بنفي أم لم تسبق ، كما ذكرت لك - ومنهم من
يرى أن د بل ، لا ترد في فصيح الكلام ، ومنهم من يرى أن لكن لقصر
القلب دون الأفراد ، ومن يرى أنها للإيراد دون القلب ، ومنهم من يرى
أن لكن وبل تدلان على القصر ولو كان معطوفهما جملة كما في قول
الشاعر :

ما افترينا في وصفه بل وصفنا بعض أخلاقه وذلك يكفي

وكما مر بك في قول عروة :

وما شاب رأسي من سنين تتابعت

على ولكن شيتني الوقائع

وقول الآخر :

إن الجديدين في طول اختلافهما لا يفسدان ولكن يفسد الناس

فمنهم من يرى أن د بل ولكن ، في الآيات تدلان على القصر ، ومنهم من
يرى أنهما يفيدان معنى القصر ، وليس ما في الآيات قصراً ، أي : ليس طريقاً
من طريقه ، لأنه مفاد من جملتين ومثله قولك : جاء عمرو ولكن زيدا لم يأت ،
وقلت لك هذا لكن ذلك لم أقله ... وحتى د لا ، التي هي رأس هذا الطريق

لم تسلم من تلك الخلافات ، فقد ذكر عبد القاهر أنها تفيد عكس ما يعتقد المخاطب ولا يؤتى بها إلا لذلك ، فهي عنده لقصر القلب دون غيره ، وقد رأيت أنها صالحة لكل أنواع القصر . . . إلى غير ذلك من الخلافات فهي كثيرة ، وقد أعرضنا عن مناقشتها لعدم الجدوى من تلك المناشئة .

٢ — النفي والاستثناء : تقول : ما القادم إلا زيد ، وما أنت إلا مصيب ، فتفيد قصر الصفة على الموصوف في الأول ، والموصوف على الصفة في الثاني ، ويستخدم هذا الطريق فيما ينسكه المخاطب ويدفعه أو فيها يشك فيه ويرتاب . . . يقول عبد القاهر : « وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو : ما هذا إلا كذا ، وإن هو إلا كذا فيكون للأمر ينسكه المخاطب ويشك فيه ، فإذا قلت : ما هو إلا مصيب أو ما هو إلا مخطيء قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلته ، وإذا رأيت شخصاً من بعيد فقلت : ما هو إلا زيد لم تقله إلا وصاحبك يتوهم أنه ليس بزيد وأنه إنسان آخر ، ويجد في الإنكار أن يكون كذلك . . . (١) » .

تأمل قوله تعالى : (قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّا تَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ)^(٢) ، تجده قد قصر الاتباع على الوحي لا يتجاوز به إلى غيره ، فهو قصر حقيقي ، وقد أثر التعبير بالنفي والاستثناء ، إذ المخاطبون ينسكرون ذلك ويدفعونه ، فهم يعتقدون أنه شاعر أو ساحر أو كاهن ، لا بقرون بالوحي ، بل يقولون : أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأسملا فلما كان المشركون منكربين أن يكون الرسول - عليه الصلاة والسلام - متبعاً لوحي يوحى إليه ويجحدون ذلك ويدفعونه ، جاء القصر . إن وإلا ، لبيد هذا الإنكار ويدفع ذلك الجحد . . . ومثله قوله تعالى :

(٢) - سورة الأنعام آية ٥٠ .

(١) دلائل الإعجاز ١٢٧ .

(إِنِّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ)^(١) ، وقوله عز وجل :
(حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُخَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنِّ هَذَا إِلَّا سَاطِرٌ
الْأَوَّابِ)^(٢) فقد جاء القصر بالنفي والاستثناء في الآيتين ، لأن المخاطب
يشكر الحكيم ويدفعه ، إذ الكفرة لا يقرون بالوحدانية ، والرسول - صلى
الله عليه وسلم - يدفع وينكر كون ما جاء به أساطير الأولين ، ويوقن إيقانا
راسخا أنه حق من عند الله .

فهذا الطريق - النفي والاستثناء - يستخدم عندما ينكر المخاطب ويحدد
الحكم أو عندما ينزل تلك المنزلة ، وسيتضح لك هذا عند الحديث عن أرجه
الاختلاف بين طرق القصر .

ومثل النفي في إفادة القصر ، النهي والاستفهام ، كما في قوله تعالى :
وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا
لِلذُّنُوبِ وَمَنْ يُنْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ
يَعْلَمُونَ)^(٣) ، فقد قصر غفران الذنوب على الله سبحانه ونعالي قصر صفة
على موصوف قصر حقيقة لتحقيقها ، وطريقه هو النفي والاستثناء ، لأن
الاستفهام في الآية الكريمة مراد به النفي ، إذ المعنى : لا يغفر الذنوب إلا
الله . مثله قوله تعالى : (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)^(٤) ، حيث
قصر جزاء الإحسان على الإحسان قصر موصوف على صفة ، وطريقه هو
النفي والاستثناء ، لأن الاستفهام بمعنى النفي وتقول : لا تفعل إلا الخير . .
لا تصاحب إلا الوفي لا تعتمد إلا على الله ، فتعصر الفعل على الخير
والمصاحبة على الوفي والاعتماد على الله ، وطريق القصر - كما ترى - هو
النهي والاستثناء .

(١) سورة آل عمران آية ٦٢ (٢) سورة النساء آية ٢٥

(٣) سورة آل عمران آية ١٣٥ (٤) سورة الرحمن آية ٦٠

والمقصود عليه في طريق النفي والاستثناء هو الممتثلي أى : الواقع بعد أداة الاستثناء ، سواء تقدم أو تأخر تقول : ما جاء إلا زيد فتقصر الجىء على زيد ، ويقول زهير بن أبى سلمى :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عندهما بالحديث المرحم

فقد قصر الحرب على الذى علموه وذاقوه من ويلاتها ، قصر موصوف على صفة ... ويقول الممتثلي :

لا يدرك المجد إلا سيد فطان لما يشق على السادات فعال

قصر إدراك المجد على السيد الفطن الذى يستطيع إدراك ما يشق على السادة الكرام ... وتقول : لا أختار الوفى إلا منكم ... ولا أختار منكم إلا الوفى ، فتفيد بالأول : قصر اختيارك الوفى على كونه منهم ، ففيه مدح لهم وتنويه بشأنهم ، وأن من أراد الوفى فعليه بالانجاء لإيهم فهم جميعا أوفياء ، وتفيد بالثانى : قصر اختيارك منهم على الوفى ، وهذا يعنى أن فيهم الوفى وذير الوفى ، فأنت تختار الوفى وتترك غيره ، ولا يخفى عليك بعد ما بين القولين ، وتأمل قول الشاعر يمدح بنى هاشم :

لو خير المنبر فرسانه ما أختار إلا منكم فارسا

تجده قد قصر اختيار الفارس على كونه منهم ، وهذا يعنى أنهم جميعا فرسان وأن المنبر لا يتجه إلا لإيهم حين يتاح له أن يختار فارسه ، ولو قال الشاعر : ما أختار منكم إلا فارسا ، لتخير المعنى ، إذ يصبح المراد : قصر اختيار المنبر منهم على الفارس دون غيره ، فهم ليسوا جميعا فرسانا ... وتلاحظ في البيت تقديم إلا وما وإيها على المفعول فارسه ، وهو جزء من المقصود - كما عرفت - إذ المراد قصر اختيار المنبر فارسه عليهم دون غيرهم ، وهذا التقديم قد منعه بعض البلاغيين وقالوا : إنه يؤدى إلى قصر الفعل قبل تمامه ، وذهب البعض إلى أنه كلامان وليس كلاما واحدا ، فالمفعول المؤخر ،

منعول لفعل محذوف دل عليه المذكور، والمعنى: ما اختار إلا منكم.. اختار فارساً، وتقول: ما أعطيت إلا زيدا درهما؛ والمعنى: ما أعطيت إلا زيدا.. أعطيت درهماً، وكأنك لما قصرت الإعطاء على زيد، شعرت بحاجة السامع إلى نوع العطاء، فأردت أن تبينه فقلت: درهما وحذفت الفعل والفاعل لدلالة ما تقدم عليهما... وبعضهم أجازوه إذ صرح بالمستثنى منه، كأن يقال: ما ضرب أحد أحد إلا زيد عمرأ، فزيد مستثنى من أحد الأول وعمرأ مستثنى من أحد الثاني (١) ... ومنهم من أجاز ذلك التقديم مطلقاً من غير تصريح بالمستثنى منه، وإن كان هذا التقديم قليلاً في التعبيرات الجيدة، وحببتهم أن أداة الاستثناء لا يخرج بها إلا شيئاً واحداً وهو ما يليها، فلا يقع لبس فيما بعدها، فإذا قلت: ما ضرب إلا محمد زيدا، لا يتوهم أن محمداً هو المستثنى وهو المقصور عليه وكذا قولك: ما شرب إلا اللبن محمد، لا يتوهم أن اللبن هو المقصور عليه المستثنى... وهذا هو الأولى بالقبول لوروده في التعبيرات الجيدة، وطالما قد عرف موضع المقصور عليه وحدد، إذ هو دائماً الواقع بعد أداة الاستثناء، فلا ضير بعدد أن تتقدم به الأداة أو تتأخر، وليس ثمرة مانع من أن يتأخر جزء من المقصور عن المقصور عليه، لأن الأخير قد حدد وعين موطنه، والمهم ألا تتخلى أداة الاستثناء عن المستثنى وألا تزحزح عنه، لأن زحزحته وتقدمها أو تأخيرها بدونه يغير المعنى... وعد إلى الأمثلة المذكورة: ما اختار إلا منكم فارساً ما أعطيت إلا زيدا درهما.. ما ضرب إلا محمد زيدا.. ما شرب إلا اللبن محمد.. ثم زحزح وإلا، وحدها فنل: ما اختار منكم إلا فارساً.. ما أعطيت زيدا إلا درهما.. ما ضرب محمد إلا زيدا... ما شرب اللبن إلا محمد... تجد أن المعنى قد تغير وتبدل بذلك الزحزحة.

وخلاصة الأمر أن المقصور عليه هو ما يلي أداة الاستثناء سواء تقدمت به الأداة أو تأخرت، فالراجح أنه لا مانع من هذا التقديم لوضوح

المراد وزوال اللبس بمعرفة موضع المقصور عليه . . . وتأمل قول المتنبي
يتحدث عن نفسه في قصيدته التي رثى فيها جدته :

تغرب لا مستعظما غير نفسه ولا قابلا إلا خالفه حكا
ولا سالكا إلا فؤاد عجاجة ولا واجدا إلا بكرمة طعما

فقد قصر الاستعظام على نفسه ، والسلوك على فؤاد العجاجة وقبول
الحكم على خالفه ، ووجود الطعم على البكرمة ، وواضح تقديم إلا بالمقصود
عليه - في القصدين الأخيرين - على المفعول (حكا وطعما) وهو جزء من
المقصود ، ولم يؤد هذا التقديم إلى خفاء ولا لبس لوضوح كل من المقصود
والمقصود عليه ومثله قول الآخر :

الناس إل علينا فليس لنا إلا السيوف وأطراف القنا ورد
والأصل : فليس لنا ورد إلا السيوف وأطراف القنا .

وجه دلالة النفي والاستثناء على القصر : النفي والاستثناء هو رأس باب
القصر ، وهو الطريق الأم بين طرقه ، إد نراه يقيسون عليه غيره فيقولون
مثلا . قولك : إنما زهير شاعر ، معناه : ما زهير إلا شاعر . وقولك : لك
هذا ، معناه : ما هذا إلا لك فلا منازعة في أن النفي والاستثناء يدل على القصر ،
ولم يذهب أحد من البلاغيين إلى خلاف ذلك ؛ لأن دلالة الطريق على القصر
دلالة واضحة وضوحا تاما وظاهرة ظهورا قويا ، وعلى الرغم من ذلك ترى
البلاغيين يتحدثون عن وجه هذه الدلالة ، فيقولون : إن وجه دلالة النفي
والاستثناء ، على القصر هو أن النفي في الاستثناء المقرغ وهو الذي ترك فيه
المستثنى منه فقرغ الفعل الذي قبل إلا وشغل عنه بالمستثنى المذكور بعدها
نحو : ما ضرب إلا زيد وما فعل زيد إلا هذا وما كسوته إلا جبة ، يقولون
النفي في هذا الاستثناء متوجه إلى مقدر عام وهو المستثنى منه ، لأن إلا
للإخراج ، والإخراج يقتضى مخرجا عنه ، ولا بد أن يكون عاما ليتناول
المستثنى وغيره ، فيحقق الإخراج ، وأن يكون مناسبا للمستثنى في جنسه

وصفته فيقال في الأمثلة المذكورة : ما ضرب أحد، إلا زيد .. ما فعل زيد شيئا من الأشياء إلا هذا .. ما كسوته من اللباس إلا جبة ، وإذا كان النفي متوجها إلى هذا المقدر العام المناسب للمنتفى في جنسه وصفته فعندما توجب من ذلك المقدر شيئا بإلا أو غيرها من أدوات الاستثناء يكون القصر ، لأن ما عدا هذا المثبت يظل باقيا على صفة الانتفاء ، وكل قصر يفقد إثباتا ونفيا ، أى : إثبات المقصور للمقصور عليه ونفيه عما سواه ، على الإخلاق في القصر الحقيقي ، أو عن معين في القصر الإضافي ...

ويذكر السيوطي أن قولك : ما قام إلا زيد ، صريح في نفي القيام عن غير زيد وبقتضى إثبات القيام لزيد ، قيل بالمنطوق ، وقيل بالمفهوم وهو الصحيح ، ولكنه أقوى المفاهيم^(١) .

أما جمهور البلاغيين فيرون أن « النفي والاستثناء » مثل التقديم ، إعا ، الدلالة في ثلاثتها نص على المثبت دون المنتفى ، والخطب في ذلك يسير ، لأن البلاغيين نظروا إلى الجملة بعد تمامها ، والسيوطي نظر إلى ما يتبادر إلى الذهن أولا ، فالذي يتبادر إلى ذهنك عند سماعك : ما قام إلا زيد ، هو نفي القيام عن غير زيد ، ثم يأتي بعد ذلك إثباته لزيد ، وكأنه تحقيق له وتحديد ، وذلك دقيقة جيدة في تحايل دلالة العبارة ...

هذا وعندما تقول : ما زيد إلا شاعر ، فتدخل النفي على الذات ، لا يكون القصد إلى نفي الذات ، لأن أنفس الذوات لا تنفى ، وإعما يتجه النفي إلى أوصافها وأحوالها التي يحددها السياق ، وفي المثال المذكور ، حيث لا نزاع في طول زيد وقصره ، ولا في كرمه وشجاعته وما شاكل ذلك ، وإعما النزاع في كونه شاعرا أو كاتباً أو خطيباً تناول النفي هذه « صفات » التي هي موضع النزاع فإذا قيل إلا شاعر ، جاء القصر^(٢) ...

هل يفيد الاستثناء التام القصر ؟ . لا خلاف بين البلاغيين في أن
الاستثناء التام المنفي نحو قوالك : ما جاءني أحد إلا زيد ، وما أكرمت أحداً
إلا عمرا ، وقول المتنبي :
كان لم يمت حتى سواك ولم يقم على أحيد إلا عليك الفوائح

لا خلاف بينهم في أنه يفيد القصر ، ولكن الخلاف في جملة من طرق
القصر الاصطلاحية ، فالبعض يرى أنه ليس قصرأ اصطلاحيا بل هو قيد
يصحح المحكم المنفي ، فإذا قلت : ما جاءني أحد إلا زيد ، كان استثناء زيد
قيدا مصححا للحكم ، لأن قوالك : ما جاءني أحد ، حصل به الحكم المنفي ،
لكن لما كان هذا الحكم شاملا لزيد وهو لم يأت قيد المجيء . بغير زيد
ليصحح الحكم المنفي ، وحجتهم أن ما قبل الأداة كلام تام بحسن السكوت
عليه ، فمناط الفائدة وهو الحكم قد حصل قبل الأداة ، وعندئذ يكون
ما بعدها كأنه قيد مصحح ... ويرى آخرون أنه قصر اصطلاحيا كالأستثناء
المفرغ ، ولكنه جاء على خلاف الأصل ، حيث صرح فيه بالمشتبك له والمنفي
عنه معا ، والجمهور على أن الأصل في طريق النفي والاستثناء النص على المشتبك
له فقط (١) ..

أما الاستثناء التام الموجب كقوالك : جاء القوم إلا زيد ، وأكرمت
الطلاب إلا المهمل ، فالصواب أنه ليس قصرأ ، بل هو قيد مصحح للحكم
لا غير ، وكأنك قلت : جاء القوم المغايرون زيد ، وأكرمت الطلاب
المغايرين للمهمل ، كما تقول : جاء القوم الصالحون ... وقيل : إنه قصر
لأن المعنى على قصر عدم المجيء . على زيد ، وعدم الإكرا على المهمل ، وهذا
ليس بقول ، والصواب هو الأول وهو أن الاستثناء التام الموجب يفيد القصر
أي : الإثبات والنفي ولكنه ليس شريفا من طريقه ...
وخلاصة القول أن الاستثناء المفرغ كقوالك : ما جاء إلا زيد ، قصر

اصطلاحى باتفاق البلاغيين ، والاستثناء التام المنفى كقولك : ما جاء أحد إلا زيد ، قصر اصطلاحى على الراجع ، والاستثناء التام الموجب كقولك : قام القوم إلا زيد يفيد القصر وليس قصراً على الراجع من أقوالهم . .

هل يجوز اجتماع المنفى والاستثناء ، والمعطف بلا . . ؟ طريق المنفى والاستثناء لا يجتمع واللفظ بلا ، فلا يجوز أن تقول : ما جاء إلا زيد لا عمرو ، وذلك لأن المنفى فى قولك : ما جاء إلا زيد ، عام وهو يشمل ما عدا زيدا : وعمرو داخل فى دائرة المنفى ، و ، لا ، العاطفة وضعها القوم لأن ينفى بها الشيء ابتداء ، لا لأن ينفى بها شيء قد نفي بغيرها ، يقول شيخ البلاغة : « ليس من كلام الناس أن يقولوا : ما زيد إلا قائم لا قاعد ، فإن ذلك إنما لم يجوز من حيث لك إذا قلت : ما زيد إلا قائم فقد نفيت عنه كل صفة تنافى القيام ، وصرت كأنك قلت : ليس هو بقاعد ولا مضطجع ولا متكى . » وهكذا حتى لا تدع صفة يخرج بها من القيام ، فإذا قلت من بعد ذلك : لا قاعد كنت قد نفيت بلا العاطفة شيئا قد بدأت فنفيه ، وهى موضوع لأن تنفى بها ما بدأت فأوجبته ، لا لأن تفيد بها المنفى فى شيء قد نفيت . . . (١) ولذا عيب قول القائل :

لعمرك ما الإنسان إلا ابن يرمه على ما تجلى يومه لا ابن أمسه
وينبغي أن تفرق بين « لا » العاطفة و ، لا ، الداخلة على الجملة ، فإن الأخيرة يجوز أن تجتمع ، والمنفى والاستثناء ، نحو : ما زهير إلا شاعر ، لا يقول أحد غير ذلك ، ما هذا إلا لك ، لا يشاركك فيه أحد ، ليس السكوت عن العيوب إلا جبنًا ، لا يرى أحد غير ذلك ، وإنما كان هذا جائزا ، لأنك لم تنف « بلا » شيئا قد نفي قبل ، بل نفيت بها جملة مستقلة وأدت بها جملة القصر السابقة . .

٣ - إنما : ودلالة إنما على النقص دلالة وضيمة وعلى الرغم من ذلك

لم يفت البلاغيون أن يتحدوا عن وجه دلالتها على القصر ، فقد ذكروا أنها تدل على القصر لتضمنها معنى « ما وإلا » ، واستدلوا على ذلك بوجوه ، منها : قوله تعالى : (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ)^(١) بالنصب ، حيث ذكر المنسرون الذين يحتاج بهم في اللغة كابن عباس ومجاهد ونحوهما من الصحابة والتابعين ، أن المعنى : ما حرم عليكم إلا الميتة وهو المطابق لقراءة الرفع حيث يفاد القصر في هذه القراءة بتعريف الطرفين ، فالآية فيها ثلاث قراءات وكلها تفيد القصر ، القراءة الأولى : « إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ » ، ببناء « حرم » للمعلوم ورفع الميتة ، وعلى هذه القراءة تكون « ما » اسم موصول وعائده محذوف والمعنى : إن الذي حرمه عليكم هو الميتة ، وهو قصر للتحريم على الميتة وما بعدها وطريق القصر تعريف الطرفين ، والقراءة الثانية : « إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ » ، ببناء « حرم » للمفعول ورفع الميتة ، وعلى هذه القراءة ، فما إما اسم موصول والمعنى : إن الذي حرم عليكم هو الميتة ، وإما كافة لأن والمعنى : ما حرم عليكم إلا الميتة ، وهذا قصر أيضا للتحريم على الميتة وما تلاها وطريقه تعريف الطرفين في الأول وإنما في الثاني ، والقراءة الثالثة : « إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ » ببناء « حرم » للفاعل ونصب الميتة ، فما كافة لأن ، والمعنى : ما حرم عليكم إلا الميتة ، فهو قصر طريقه إنما ، وبهذا يتضح لك تطابق القراءات الثلاث في إفادة القصر ، سواء كانت « ما » كافة لأن أو موصولة .

ومنها : قول من يحتاج بقولهم من النجاة وهم ، من أخذوا اللفظة من كلام العرب مشافهة : إن إنما لإثبات ما ينكر بعدها ونفي ما سواه ، أي : لإثبات الحكم المتضمن لما بعدها ونفي ما سوى ذلك الحكم ، وهذا القول من النجاة يقتضى تضمينها للإثبات والنفي كما وإلا ، إما في قصر الموصوف على الصفة كقولك :

إنما زيد قائم ، فهو لإثبات قيام زيد ونفي ماعداه من القعود ونحوه ، وإنما في قصر الصفة على الموصوف كقولك : إنما يقوم زيد ، فهو لإثبات قيام زيد ونفي ما سواه من قيام عمرو وخالد وبكر وغيرهم ، وهذا هو القصر الذي يدل عليه النفي والاستثناء ...

ومنها : صحة انفصال الضمير معها كقولك : إنما يقوم أنا ، وإنما يكرم أنت ، وإنما يعطى نحن ، وذلك لأنه متى أمكن اتصال الضمير فلا يعدل إلى انفصاله إلا لغرض ، فلا يجوز أن تقول : يكرم أنت ولا يقوم أنا ولا يعطى نحن ، لا مكانك أن تقول : تكرم وأقوم ونكرم ونعطى ، فلما صح انفصال الضمير مع «إنما» دل ذلك على أنها بمعنى «ما وإلا» ، لأن «إلا» لا يليها سوى الضمير المنفصل كقولك : ما يقوم إلا أنا ، وما يكرم إلا نحن ، وكقول عمرو بن معد يكرب :

قد علمت سلبى وجاراتها ماطر الفارس إلا أنا^(١)

ومن ورود الضمير منفصلاً بعد «إنما» قول الفرزدق وهو من الذين يستشهد بشعرهم على صحة التراكيب وبلاغتها :

أنا الذائد الحامى الذمار وإنما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى^(٢)

فقد قصر الدافع عن أحسابهم عليه هو أو مثله ، قصر صفة على موصوف قصرأ حقيقة ادعائها ، ولو قال ، إنما أدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى لسكان قصرأ لدفاعه على كونه عن أحسابهم لا عن أحساب غيرهم قصر موصوف على صفة ، ويكون قوله : «أنا أو مثلى» ، تأكيداً لا مقصوراً عليه ، وليس

(١) قطر بمعنى صرعه صرعة شديدة .

(٢) الذائد : من الذود وهو الدفاع ، والذمار : ما يلزم الشخص حمايته من أهل زمال ونحوها مأخوذ من الذمر وهو الحث .

هذا مراد الشاعر ، لأنه قصد إلى الفخر والاعتداد بنفسه وأنه هو المدافع عن أحسابهم دون غيره ، ولم يقصد أنه يدافع عن أحساب أومه دون أحساب غيرهم ، لأن هذا يتنافى ومقام المدح والفخر ، تقول : إنما يفهم البلاغة المتذوق ، فتجده أبلغ من قولك : إنما يفهم المتذوق البلاغة ، لأن الأول أفاد قصر فهم البلاغة على الذواقة دون غيره ، والثاني أفاد قصر فهم المتذوق على البلاغة دون غيرها من العلوم ، فالأول هو المناسب لمقام المدح والتعظيم كما ترى ، ولا يقال : إن القصر في البيت طريقته تعريف الطرفين وأن دما ، موصولة وإيست كافة لأن ، والمعنى إن الذى يدافع عن أحسابهم هو أنا أو مثلى ، فيسكون الداعى لفصل الضمير وقرعه خبراً وليس وقرعه بعد ، إنما ، التى بمعنى دما وإلا ، وذلك لأن المقام مقام فخر كما قلنا فهو يقتضى دمن ، الموصولة التى للعاقل ، وليس هنالك سر بلاغى ولا ضرورة شعرية تقتضى المدول عن دمن ، إلى دما ، ولذا فليست دما ، إلا مركبة من دإن ، وما البكافة ...

وأضاف السكاكى وجها لطيفا لإفادة دإنما ، القصر ، يستند إلى على بن عيسى الربيعى وهو أنه لما كانت كلمة دإن ، لتأكيد إسناد المسند إلى المسند إليه ثم اتصلت بها دما ، المؤكدة ، وليست ما النافية كما يظنه ، ن لا وفوف له على علم النحو ، فاسب أن يضمن معنى القصر ، لأن القصر ليس إلا تأكيداً على تأكيد ، وعلى الرغم من لطافة هذا الوجه فإنه لا يصاح دليل لإفادة إنما القصر ، لعدم اطراد فى كل الأساليب التى يجتمع فيها مؤكدان نحو : إن زيدا لقائم (١) . .

وأضاف بهاء الدين السبكي أن من الأدلة على إفادة دإنما ، القصر قوله تعالى : (إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ) ، وقوله عز وجل : (إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ . .) ، وقوله جل وعلا : (قُلْ إِنَّمَا عِزُّهُمَا بِبَدَّةِ رَبِّي . .) ، فإنه إنما يحصل مطابقة الجواب إذا كانت إنما للحصر ليكون معناه لا آتاكم

به إنما يأتي به الله ، ولا أعلمها إنما يعلمها الله (١) ..

وتلك إضافة جيدة ، فقد نظر ابن السبكي إلى استعمالات إنما في التراكيب ولم ينظر إلى ما قاله العلماء وأهل صناعة الكلام في شأنها ، وعندما تتأمل سياق الآيات الكريمة التي أشار إليها تجد أن إنما ، يتحتم أن تكون بالاحصر ، تأمل سياق الآية الأولى : (وَإِذْ كُنَّا أَهْلًا عَادٍ إِذْ أَنْذَرْنَا قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ الذُّرُومُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قَالُوا : أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ : إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَسْتُ بِيَدِي وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ) (٢) ، تجد أن القرى قد طلبوا العذاب الذي أُنذِرهم به هود - عليه السلام - واستعجلوا وقوعه ، فأجابهم بأن مهمته إنما هي تبليغ ما أُرسل به وأن العلم بوقوع العذاب عند الله وحده ، لا يتعداه إلى هود فها هود إلا مبلغ ، وبهذا يتضح لنا أن قوله تعالى : إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ ، يدل على القصر لا محالة ... وتأمل سياق الآية الثانية : (قَالُوا . يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ : إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ لَا أَنَا ، لَأَنْ مَهْمَتُهُ - عَلَيْهِ السَّلَام - تَقِفُ عِنْدَ حُدُودِ التَّبْلِيغِ . وانظر في سياق الآية الثالثة : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ : إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعِهَا إِلَّا هُوَ) (٣) ، أريد : علمها عند ربي وليس عندي ، فالسياق - كما رأيت - يقتضي أن تكون إنما ، للقصر لإفادتها النفي والإثبات معا ..

(١) انظر شرح التلخيص ١٠٣/٢

(٢) سورة الأحقاف آية ٢١ - ٢٣

(٣) سورة هود آية ٢٢ - ٣٣

(٤) سورة الأعراف آية ١٨٧

هذا والقصور عليه ، وإنما ، هو المؤخر دائماً ، تقول في قصر العلم على محمد ، إنما العالم محمد ، وفي قصره على العلم ، إنما محمد عالم ، وثاني ، إنما ، لإفادة كل أنواع القصر ، فهي تفيد القصر الحقيقي بقسميه المتحقيق والادعائي كما تفيد القصر الإضافي بأنواعه الثلاثة : القلب والإفراد والتمعين . اقر قوله تعالى :
 (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْمَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَيْرِ وَالْيُسْرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ قُلْ أَنْتُمْ مُخْتَلِفُونَ)^(١) ،
 نجد إرادة الشيطان قد قصرت ، وإنما ، على إيقاع المداوة والبغضاء بين المسلمين في الخير والميسر وصدكم عن الذكر والصلاة ، فهو قصر صفة على موصوف
 قصراً حقيقياً غير تحقيقي ، لأنه مبني على المبالغة ، إذ الشيطان يسلك كل طريق لكي يبعد العبد عن طاعة ربه ، ولكن لما كانت هذه الأمور وهي الخير والميسر والصلاة والذكر من الخطورة بمكان فقد قصرت إرادة الشيطان عليهما وكان ماعداها لا يعتد به إذا ما قدرن بها . ولما كانت ، إنما ، تستعمل في الأمور المعلومه التي لا تنسكرو ولا تدفع - كما سيأتي - فقد أوثرت بالتمهير هنا لتنبئ بأن هذا الأمر من الأمور المعلومه التي لا ينكرها أحد ولا يدانها مدافع . . ومثله قوله تعالى : (إِنَّمَا بَأْسُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَذَلُّونَ)^(٢) ، حيث قصر ما يأسر به الشيطان على السوء والفحشاء والقول على الله بلا علم قصراً حقيقياً وقوله تعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)^(٣) ، حيث قصر خشية الله على العلماء قصراً حقيقياً غير تحقيقي ، لأن غير العلماء يخشون الله تعالى ، بل قد يكون غير العالم أشد خشية لله من العالم ، ولكنه لم يعتد بذلك ، لأن المقام مقام حدث على العلم والنظر والتأمل في عجيب صنع الله ، وقد مرت بك هذه الآية الكريمة ، فارجع إلى ما قلناه فيها . . وقوله تعالى : (فَمَنْ بَدَّلَهُ بَدَلًا مِثْلَهُ نَاسِيًا لِإِمْنِهِ)

(٢) سورة البقرة آية ١٦٩

(١) سورة المائدة آية ٩١

(٣) سورة فاطر آية ٢٨

عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ تَمِيمٌ عَلِيمٌ^(١) إذ المراد أن من بدل الوصية وحرفها وغير حكمها ، فالإثم واقع عليه وحده ، والله سبحانه وتعالى مطلع عليه وكاشف أمره ، وواضح أن القصر في الآية قصر صفة الإثم أو العقاب على الذين يبدلون . قصر صفة على موصوف قصر حقيقة تحقيقيا . .
وانظر إلى قول شوقي :

ولما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

تجده قد قصر الأمم على الأخلاق قصر موصوف على صفة قصر حقيقة ادعائيا ، وهذا القصر ينفي بقيمة الأخلاق وأهميتها في بناء الأمم والشعوب حيث لم يعتد الشاعر بما سواها مما يمكن أن يساهم في بناء المجتمعات . . . وتقول : إنما زهير شاعر ، فتفيد قصر زهير على صفة الشعر لا يتعداها إلى صفة الكتابة ، فيكون قصر اإضافيا إما قصر قلب أو أفراد أو تعيين ، حسب اعتقاد المخاطب - كما مر بك - وتأمل قوله تعالى : (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَاکْثَرُ قَوْمٍ هَادُونَ^(٢) تجدد قصر الرسول - صلى الله عليه وسلم - على صفة الإنذار لا يتعداها إلى الإتيان بالآيات ، فهو قصر أفراد ، إذ يعتقد الكافرون أنه - عليه الصلاة والسلام - يجمع بين صفتي الإنذار والإتيان . . . وقد ذكر عبد القاهر^(٣) أن دإنما لا تستعمل إلا في قصر القلب ، والصواب ما ذكرناه وهو أنها تستعمل في كل أنواع القصر كما رأيت في الشواهد وهو ما عليه جمهور البلاغيين .

هل تفيد د أنما ، القصر ؟ : يرى بعض العلماء كالزحشرى والبيضاوى والتنوخي ، أن د أنما ، من طرق القصر ، فهي كما إنما بالكسر في الدلالة على

(١) - سورة البقرة آية ١٨١ (٢) سورة الرعد آية ٧ .

(٣) ارجع إلى دلائل الإيجاز ٢٢٠ .

القصر، لأنها فرع عنها، وما ثبت للأصل يثبت للفرع، ومن ذلك قوله تعالى (قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ) ^(١)، وقوله عز وجل: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ) ^(٢) والذي أراه - والله أعلم - أن دما، في د أنما، زائدة للتأكيد وأن المراد في الآية الأولى: قصر د يوحى إلى، على د أنما إلهكم إله واحد، والمعنى ما يوحى إلى في أمر الإله إلا وحدانيته، والمراد في الآية الثانية قصر الرسول - عليه الصلاة والسلام - د أنا، على بقية الجملة، أى على كونه بشراً مثلهم يوحى إليه أن إلههم إله واحد..

٢ - التقديم: ومن طرق القصر، التقديم، وهو باب واسع من أبواب البلاغة، تمكن وراءه العديد من المزايا والأسرار البلاغية، وعد إلى تقديم المسند إليه والمسند ومتعلقات الفعل في الجزء الأول. فقد تكفل بيان هذه المزايا وتلك الأسرار، ومرادنا هنا أن نبرز دلالة التقديم على القصر . . تأمل قولك: ما أنا قلت هذا الشعر، فقد دل تقديم المسند إليه وإيلاؤه أداة النفي على القصر، أى: نفي قول الشعر عن المسند إليه المقدم وإثباته لغيره. ومن ذلك قول المتنبي:

وما أنا أمة قت جسمى به ولا أنا أضرمت في القلب نارا
وقوله أيضا:

وما أنا وحدي قلت ذا الشعر كله

ولكن لشعري فيك من نفسه شعر

فتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي بعد أداة النفي، يفيد - غالبا - الاختصاص، ولذا كان من الخطأ أن نقول: ما أنا قلت هذا ولا قاله أحد

(٢) - سورة الشورى آية ١١٠

(١) - سورة الأنبياء آية ١٠٨

(٤ - علم المعاني ج ٢)

غيرى ، أو تقول : ما أنا قلت شعراً ، أو ما أنا أكرمت إلا زيدا (١) ..
وكذا تقديم المسند إليه فى الإثبات كقوله : أنا سميت فى حاجتك ،
ومحمد يقرئ الضيف ، فإنه يفيد القصر أو التقوية وتأكيده الحكم ، حسبما
يقتضيه السياق وقرائن الأحوال ، والنسبة فى هذا كالمعرفة تقول : مارجل
جاءنى ، يفيد تقديم النسبة : القصر أى : نقي المجيء عن جنس الرجال وقصره
على جنس النساء ، والمعنى : مارجل جاءنى بل امرأة ، أو نفيه عن الواحد وإثباته
لغيره ، والمعنى : مارجل جاءنى بل أكثر .. وتقول : رجل جاءنى ، يفيد
تقديمها تقوية الحكم وتأكيده أو القصر ، أى قصر المجيء على جنس الرجال
ونفيه عن جنس النساء ، والمعنى : رجل جاءنى لا امرأة ، أو قصره على العدد ،
والمعنى : رجل جاءنى لا رجلان ..

ومن تقديم المسند الذى أفاد تقديمه القصر قوله جل وعلا : (لَكُمْ
دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ) (٢) ، وقوله تعالى : (لَافِيهًا غَوْلٌ وَلَا تُمْ عَنْهُمْ
مُنْزَعُونَ) (٣) وقوله عز وجل : (لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ) (٤) ..
ومنه قول عمرو بن كلثوم :

لنا الدنيا ومن أضحى عليها ونبتش حين نبتش قادرينا
وقول الآخر :

رضينا قسمة الجبارينا لنا علم وللأعداء مال
وقوله :

لنا القلم الأعلى الذى بشباته يصاب من الأمر الكلى والمفاصل (٥)

(١) ارجع إلى الجزء الأول لتعرف وجه الصحة والصواب لتلك الأقوال ..

(٢) سورة الكافرون آية ٦ (٣) - سورة الصافات آية ٤٧

(٤) سورة آل عمران آية ١٨٩

(٥) شبة كل شيء حدة طرفه وجمعها شبات بفتح الشين فى المرد والجمع ،
وللإراد أنهم يصيبون الحر بما يسكتون ويقولون قالبت كناية عن الفصاحة وإجادة
القول ، والكلى : جمع كلية بضم الكاف .

ومن تقديم أحد المتعلقات على الفعل قوله تعالى : (إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
تَسْتَعِينُ)^(١) وقوله جل وعلا : (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ
مُوجِعُ الْأَمْرِ كُلِّهِ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)^(٢) ... ومنه قول شوقي في مدح
الرسول صلى الله عليه وسلم :

بك يا ابن عبد الله قامت سمحة بالحق من ملل الهدى غراء

وقول الآخر :

إلى الله أشكو لا إلى الناس أننى

ارى الأرض تبقى والأخلا تذهب

وتقول : ما بهذا أمرتك .. ما زيدا أكرمت ، فيكون كلاما مستقيما ،
لأنك قصرت الأمر والإكرام المنفيين على المقدم أى : نفيت الأمر عن الجار
والجورر المقدم وأثبتته لغيره ، ونفيت الإكرام عن زيد وأثبتته لغير زيد ،
فإن قلت : ما بهذا أمرتك ولا بغيره .. ما زيدا أكرمت ولا أحدا من الناس
قلت ما ليس بقول^(٣) .

هذا والمقصود عليه بهذا الطريق هو المقدم دائما ، وهو صالح لكل أنواع
القصر ، فقوله تعالى : (إِيَّاكَ تَعْبُدُ ، قصر للعبادة على الله قصر صفة على
موصوف قصر حقيقة بتحقيقها ، وقول عمرو : لنا الدنيا ومن أضحق عليها ،
قصر للدنيا ومن عليها على كونها لهم قصر موصوف على صفة قصر حقيقة
ادعائها ، وقول الآخر : إلى الله أشكو لا إلى الناس ، قصر لإضافي صالح
لأن يكون قلبا أو إفرادا أو تعيينا حسب اعتقاد المخاطب . .

(١) سورة الفاتحة الآية ٥

(٢) سورة هود الآية ١٢٣

(٣) ارجع إلى الجزء الأول من هذا الكتاب

٥ - ضمير الفصل : ومن طرق القصر التي أقرها بعض البلاغيين ضمير الفصل وهو أن يعقب المسند إليه بضمير الفصل لتخصيصه بالمسند بمعنى جعل المسند مقصوراً على المسند إليه ، كقولك : زهير هو الشاعر ، ففيه قصر لصفة الشعر على زهير ، لا تتمدها إلى غيره ، وطريق القصر هو الفصل بالضمير ، وهذا الضمير حرف باتفاق جمهور النحاة وليس اسماً ، والقائلون بأنه اسم أكثرهم على أنه لا محل له من الإعراب ، وهو يقع كآثرى بين المبتدأ والخبر كما في المثال المذكور أو بين ما أصلهما المبتدأ والخبر كقولك : صار امرؤ القيس هو الشاعر وعلمت أن حاتم هو الكريم ، والمقصود عليه بهذا الطريق هو المبتدأ والمقصود الخبر ، ونلاحظ في الأمثلة المذكورة أن ضمير الفصل قد أفاد بالإضافة إلى القصر : تأكيد نسبة الخبر إلى المبتدأ ، وتلك الإفادة تراها وراء كل أسلوب من أساليب القصر . كما أفاد أيضاً الدلالة على أن ما بعد المبتدأ خبر له وليس صفة . لأن قولك : زهير الشاعر ، فيه إيهام أن الشاعر صفة زهير ، فإذا قلت : زهير هو الشاعر ، يدفع هذا التوهم ، وأصبحت الجملة دالة دلالة بيّنة على أن الشاعر خبر زهير لا صفة . .

ومن شواهد القصر بضمير الفصل قوله تعالى : (فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ)^(١) . التوفية في الآية بمعنى الرفع ، فقد جاءت التوفية في كتاب الله على ثلاثة أوجه : بمعنى الموت كما في قوله عز وجل : (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَازِلِهَا فِيمُمْضِكُنَّ إِنِّي قَعْنَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى)^(٢) ، وبمعنى النوم كما في قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ)^(٣) ، وبمعنى الرفع كما في قوله جل وعلا : (فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي . .)^(٤)

(٢) - سورة الزمر آية ٤٢
(٤) انظر فتح القدير ٩٥/٢

(١) سورة المائدة آية ١١٧
(٣) سورة الأنعام آية ٦٠

وفي الآية الكريمة قصر لصفة المراقبة بمعنى : المراجعة أو الحفظ والعلم على موصوف وهو الله تعالى ، وطريق القصر هو ضمير الفصل : «أت ، ولو لم يكن ضمير الفصل في الآية الكريمة للدلالة على القصر لما خطن ، لأن الله لم يزل رقيباً عليهم في جميع الأحوال : وإنما الذي حصل بتوفيقه عيسى عليه السلام - وقد كان شهيداً عليهم يرأفهم ويأمرهم بعبادة الله ، أنه لم يبق لهم رقيب غير الله تعالى ، ولذا ينبغي أن يتعين إعرابه فصلاً دالاً على القصر (١) ...

ومن ذلك قوله تعالى : (لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ) (٢) ، فقد قصرت صفة الفوز على أصحاب الجنة قصرًا إضافيًا ، وهي لا تنعدم إلى أصحاب النار ، وطريق القصر هو ضمير الفصل . وذلك لأن الآية الكريمة تقرر عدم الاستواء بين أهل الجنة وأهل النار ، فأهل الجنة هم الفائزون بكل مطلوب ، الناجون من كل مكروه ، وهذا لا يحسن إلا بأن يكون ضمير الفصل هم ، للاختصاص ، ولا يتأتى إعرابه مبتدأ ثانياً ولا تأكيداً للجملة . . . ومثله قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ هُوَ الْقَوِيُّ الْمَتِينُ) (٣) ، حيث قصرت صفة الرزق على الله تعالى قصرًا حقيقياً . وقوله تعالى : (إِنَّ شَأْنِيكَ هُوَ الْأَبْتَرُ) (٤) قصرت صفة «الأبتر» على «شأنك» ، والمعنى : إن عدو رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هو المحروم من رحمة الله ، المقطوع من كل خير . . . ويمكن أن يكون طريق القصر في الآيات الكريمة تعريف المسند بالجنسية وعندئذ يكون ضمير للفصل لتأكيد القصر . . . وتأمل قوله عز وجل : (أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (٥) تجد أن

(١) انظر شروح التلخيص ٢ / ٣٨٧

(٣) سورة الداريات آية ٥٨

(٥) سورة الشورى آية ٩

(٢) سورة الحشر آية ٢٠

(٤) سورة الكوثر آية ٣

صفة الولاية قد قصرت على الله تعالى لا تتعداه إلى تلك المعبودات التي
اتخذوها من دونه ، فهو سبحانه وتعالى الخالق الرازق ، الضار النافع ، المحي
المميت ، القادر على كل شيء ، الحقيق أن يتخذ وليا . . . وضرب القصر : لك
أبنت تجعل لك هذا الفصل ، هو ، ، وذلك أن جملة تعريف المسند بالجنسية ،
ويكون الخبر تأكيداً للقصر . . .

١٢٦ تعريف المسند أو المسند إليه ، بال ، الجنسية : إذا كان المبتدأ
والخبر معرفتين فالراجع أن السابق منهما هو المبتدأ ، واللاحق هو الخبر ،
تقول : محمد الشجاع ، فتخير عن محمد بالشجاعة ، وتقول : الشجاع محمد
فتخير عن الشجاع بمحمد ، وتقول : زيد أخوك ، وأخوك زيد ، فالأول
إخبار عن زيد بأنه أخوه ، والثاني إخبار عن أخيه بأن اسمه زيد . . . وعندها
يكون أحد طرفي الإسناد معرفاً ، بال ، التي للجنس ، فإن هذا التعريف يدل
على القصر ، إذ هو طريق من طرقه عند بعض البلاغيين ، كما عرفت . . . تقول :
محمد الكريم ، والكريم محمد ، فتفيد بهذا قصر الكرم على محمد في الموضعين ،
فالمقصود هو المرف ، بال ، الجنسية سواء تقدم أو تأخر ، والمقصود عليه
هو الآخر . . . وتقول : خالد الأمير ، والأمير خالد ، فتفيد قصر الإمارة
على خالد قصرًا حقيقياً تحقيقاً إذا لم يكن ثمة أمير سواه . . . وتقول : محمد
الشجاع ، والشجاع محمد فتفيد قصر الشجاعة على محمد قصرًا حقيقياً ادعائياً ،
لأنك حين تجعله الكامل في الشجاعة ، ولا تمتد بشجاعة غيره لقصورها عن
رتبة الكامل . . . وتقول محمد القوي ، والقوي محمد ، فتفيد قصر القوة على محمد
قصرًا إضافيًا ، إذا أضيف أنه القوي ذرئ زيد أو عمرو مثلاً ، وتقول أنت المقدم ،
وهو المقطاع ، ونحن الإبطال ، فتفيد قصر الصفات المذكورة على موصوفها ،
قصرًا حقيقياً أو إضافياً حسب مرادك بذلك الأقوال . . . فإن كان طرفا
الإسناد معرفين ، بال ، الجنسية كقولك : العالم المنطلق ، فإن السياق هو الذي
يحدد المقصود والمقصود عليه . . . إذ هو صالح لقصر العلم على المنطلق ولقصر
الانطلاق على العالم ، والسياق هو الذي يحدد ويعين المراد منه . . . وبالمقصود

بهـذا الطريق وهو المعروف بأل ، أو الذى يحدده السياق إذا كان الطرفان
معرفة معاً بها ، قد يكون على إطلاقه كما فى الأمثلة السابقة ، وقد بقيت بقية ،
كقولك : محمد المطاع فى قومه ، وأنت القائد الجرىء ، حيث قصرت الطاعة
المقيدة بالجار والمجور على محدود قصرت القيادة المقيدة بالجرأة على المخاطبة .
ومن ذلك قولهم : هو الوفى حين لا تظن نفس بنفس خيراً . وهو الجواد
حين يبخل الناس ... ومنه قول الأعشى :

هو الواهب المائة المصطفاهة إما مخاضاً وإما عشاراً

فالمخاض : الحوامل من النوق ، والعشار جمع عشاء ، وهى التى
مضى لحلمها عشرة أشهر . . والشاعر قد عبر ألبية على المدوح ، ليس مطلقاً ،
ولما مقيدة بكونها من "نوق" وبكونها مائة وبكونها مصطفاهة ، وبكونها إما
مخاضاً وإما عشاراً ، وهذا أبلغ فى مقام المدح من قصر ألبية المطلقة ،
كما لا يخفى . . .

هذا وقد يأتى التعريف بلام الجنس لإفادة التأكيد وتقرير الحكم ، دون
الدلالة عن القصر ، كما فى قول الخنساء :

إذا قبج البكاء على قليل رأيت بكاءك الحسن الجميلاً

وليس المعنى على إرادة القصر ، وإنما مرادها أن تقرر الحسن والجمال
لبكائها صخراً ، وأن تدل على أن حسنه حسن ظاهر وجماله جمال باهر ، ولا
أحد يستطيع أن ينكره أو يشك فيه ، وإذا استقبح البكاء على قتل ، ظل
بكائك الحسن الجميل الذى لا يستقبحه أحد ، فالتناس لا يترددون فى حسن
بكاء وقبح آخر ، حتى يكون المعنى على القصر ، وإنما هم يستقبحون البكاء
على القتل ، ويستحسنون بكاء صخراً . وبهذا يتضح لك أن المازد
بتعريف المعنى فى البيت دأب ، الجنسية د الحسن الجميل ، هو تقرير الحسن
والجمال وتأكيدهما ، وإبراز بكائها صخراً حسناً دائماً وجميلاً أبداً ، وليس
المراد به الدلالة القصر

أوجه الاختلاف بين طرق القصر : ومن أهم ما ينبغي أن نتجه إليه
عناية الدارس لأسلوب القصر ، أن يقف على ما بين طرقيه من فروق وأوجه
اختلاف : فإن هذه الطرق على الرغم من اشتراكها في الدلالة على معنى القصر
فإنها ، تختلف من عدة أوجه ، ويوجد بينهما فروق دقيقة ينبغي على الدارس
أن يلم بها ... وأهم هذه الأوجه :

١ - أن دلالة التقديم ، وضمير الفصل ، وتعريف الطرفين أو أحدهما
بـ "بـ" ، الجنسية ، على القصر ليست دلالة وضعية ، وإنما هي دلالة تذوقية
تفهم من فحوى الكلام وسياقاته وقرائن أحواله ، فصاحب الذوق السليم ،
والطبع العربي الأصيل يستطيع إذا تأمل التقديم بين أجزاء الكلام أن يدرك
ما يمكن وراءه من أسرار ودقائق ، وأن يميز بين تقديم قصد به الدلالة على
القصر وتقديم الغاية منه مزبة أخرى ، فليس كل تقديم يدل على القصر ،
وإنما يقع التقديم بين أجزاء الكلام لإفادة أغراض شتى وهزايا
عديدة (١) ...

وكذا توسط الضمير بين ما في الإسناد ، قد يكون لتأكيد مضمون
الكلام وبعبارة مبتدأ ثانياً ؛ فليس دائماً لإفادة الاختصاص .. وتعريف الطرفين
أو أحدهما ، بـ "بـ" الجنسية قد يكون للتقرير وتأكيد نسبة المسند إلى المسند
إليه ، كما مر بك في بيت الخنساء :

إذا قبيح البكاء على قتيل رأيت بكاءك الحسن الجميلا

وبهذا يتضح لك أن دلالة هذه الطرق الثلاثة على القصر ترجعها إلى السياق
ومعرفة قرائن الأحوال ، والتأمل الواعي ، ذو الذوق السليم ، الخبير
بدلالات الكلام وخصائص التراكيب ، هو الذي يميز بين ما يدل على القصر
منها وبين ما يقصد به إلى غاية أخرى ... أما "بـ" والتنفى والاستثناء ، وإنما

(١) ارجع إلى أغراض التقديم في الجزء الأول من هذا الكتاب ..

وهو العطف بلا وبـلـ ولـسـكن ، فدلالتهما على القصر دلالة وضعية ، وعلى الرغم من ذلك خاض البلاغيون في بيان وجه تلك الدلالة ، وقد مر بك وجه دلالة كل منها على القصر ، ولا تنافي الدلالة الوضعية لهذه الطرق الثلاثة مع دراستها ، والبحث عنها في علم المعاني ، لأنه لا يبحث فيه عن دلالتها على القصر وإنما يبحث فيه أصلاً عن مزايها بالقصر وأحوالها وعن المقامات التي تدعو إلى التعبير بأساليب القصر وما من شك في أن هذا من صميم علم المعاني ..

٢ - أن الأصل في طريق ، العطف بلا وبـلـ ولـسـكن ، النص على المثبت والمنفي معا ، تقول : زهير شاعر لا كاتب ، ماشوق كاتبا بل شاعر ما عمرو جوادا لـسـكن حاتم ، ولا يترك النص على المثبت والمنفي في هذا الطريق إلا كراهة الإطناب في مقام الإيجاز ، كما إذا قال كـقـائل : زيد يعلم البلاغة والنحو والصرف والعروض والآداب . أو زيد يعلم الدلاءة وخالد وعمرو وبكر وحاتم ، فتقول له : زيد يعلم البلاغة لا غير ، والمعنى في الأول : قصر زيد على علم البلاغة ، أي : زيد يعلم البلاغة لا غيرها ، وفي الثاني : قصر عام البلاغة على زيد أي : زيد يعلم البلاغة لا غيره .. ومثله قول الشاعر :

جوابا به تنجو اعتمد فوربنا لمن عمل أسلفت لا غير تسأل

فقد نص في القصيرين : زيد يعلم البلاغة لا غير ، .. عن عمل أسلفت لا غير تسأل ، على المثبت فقط دون المنفي خشية الإطناب ؛ إذ المقام مقام إيجاز واختصار ..

أما بقيه الطرق فالأصل فيها أن ينص على المثبت فقط دون المنفي ، نقول : ما شاعر إلا زهير في قصر صفة الشعر على زهير ، فقد صرح بالمثبت وهو زهير دون المنفي وهو من عداد وكذا القول في : ما زهير إلا شاعر ، إنما أنت أب ، إياك أكرمت ، محمد الشجاع ، خالد هو الولي ، ففي هذه الطرق قد نص على المثبت فقط ، أما المنفي فممنوع من القصر بمعرفة سياقات الكلام

وقرائن أحواله . . وقد يصرح في بعض هذه الطرق بالمنفى دون المثبت كقولك في التقديم : ما أنا قلت هذا ، ففيه نفى للقول عن المسند إليه المقدم وإثباته لغيره ، فالمقصود عليه الذي صرح به هو المنفى عنه دون المثبت له كما ترى ، وقد ينص على المثبت والمنفى ما كلف لك في الاستثناء التام : ما قام القوم إلا زيد ، وقد مر بك أن الاستثناء المفرغ هو الأصل في الدلالة على القصر ..

٣- اجتماع طريقين من طرق القصر : لا يجوز أن يجتمع طريق النفي « بلا » العاطفة وطريق النفي والاستثناء - كما مر بك - لأن دلا ، موضوعه لأن ينفي بها ما أوجب التسبوع كقولك : زيد كريم لا شجاع فهو موضوعه للنفي ابتداء ، لا لأن تعيد بها النفي في شيء قد نفيت . وهذا الشرط مفقود في النفي والاستثناء ، لأن قولك : ما زيد إلا قاتم ، يفيد نفي كل صفة وقع فيها التنازع عن زيد وإثبات صفة القيام له ، فلو قلت : دلا قاعد ، فقد نفيت د بلا ، العاطفة شيئا هو منفي قبلها بما النافية ، ولذا عيب قول الحريري :

لعمرك ما الإنسان إلا ابن يومه على ما نبجلى يومه لا ابن أمسه

هذا إذا كانت دلا ، العاطفة داخلة على المفرد ، فإن دخلت على الجملة كقولك : ما هذا إلا لك لا يشاركك فيه أحد ، فهو جائز ، لأنك عندئذ لا تنفي د بلا ، شيئا قد نفي أولا ، وإنما تنفي بها جملة مؤكدة بجملة القصر المتقدمة عليها ..

أما بقية الطرق فتجتمع والنفي د بلا ، ، تقول في اجتنابه وإنما : وإنما زيد كريم لا شجاع ، وفي اجتنابه والتقديم : دلى الله أشكر لا إلى الناس ، وفي اجتنابه والتعريف بال : زيد الكريم لا عمرو ، وذلك لأن النفي في هذه الطرق ليس نفيا صريحا ، فأنت لم تنف د بلا ، ما قد نفي من قبل نفيا صريحا بأداة من أدوات النفي الموضوعة له ، بل نفيت بها ما قد فهم نفية في الجملة

المتقدمة بغير أداة ، والقصر عندئذ طريقه دلتما ، و التقديم ، و التعريف بأن ، ، أما العطف ، بلا ، فتأ كيد للقصر ، وينبغي مراعاة ذلك عند بناء الجمل وصياغتها ، فلا تبني بناء تناقض فيه أجزاءها .. لا تقول : دلتما هذا لك لا ذاك ، ، لأن المقصور عليه يأما هو المؤخر ، والمقصود عليه بلا هو المقابل لما بعدها .. و يأما تقتضي أن يكون المقصور عليه هو ذلك ، و لا ، تقتضي أن يكون المقصور عليه ، هذا ، و ذا تدافع وتناقض في القول ، فالصواب أن يقال : : دلتما هذا لك لا لغيرك ، : : دلتما أخذ زيد لعمرو ، : : دلتما زيد يأخذ لا يعطي ، : : دلتما أكرمت عمرا لا زيدا ، : : و تقول : زيد الكريم لا عمرو ، ، وحاتم هو الثري لا خالد ، و هذا تشغل لا بذلك ، و بهذا تأمر لا بغيره ، فتراه كلاما مستقيما ، إذ لا تدافع بين التعريف «بال» ، أو التقديم ، وبين العطف ، بلا ، ، فإن قلت زيد الكريم لا البخیل ، وعمرو هو الشجاع لا الجواد و بهذا تأمر لا تنهى ، تناقض قولك و تدافع ، فإن سألت : ألا يجوز أن يكون التقديم في المثال الأخير لئلا كيد و تقوية الحكم ، وعندئذ يكون طريق القصر بلا ، والمقصود عليه : : تلزم ، : : قلت : لا غبار على ذلك حيث لا تدافع في الدلالة عندئذ ، و لا تناقض في القول ، فالتنهي ينبغي مراعاته هو التشبه لما بين طريق القصر من فروق دقيقة حتى لا تبني الجمل بناء تناقض فيه أجزاءها ، فقد تجتمع - مثلا - : : دلتما ، و ضمير الفصل أو التعريف بال ، فيقال : : دلتما الجواد أنت ، دلتما العالم هو محمد ، و تجده كلاما مستقيما ، إذ المقصود عليه بالتعريف ، أو بضمير الفصل هو الخالي من ، ال ، ، والمقصود عليه يأما هو المؤخر ، فلا تناقض في بناء العبارة ، كما ترى بل إن طريق القصير يؤكّد كل منهما الآخر ، فإن قلت : : دلتما أنت الجواد ، دلتما محمد هو العالم ، تدافع الطريقتان ، ولو جعلت ضمير الفصل أو التعريف للتأكيد و تقوية الحكم و تقريره فلا تدافع ، إذ يكون القصر مدلولاً عليه يأما ، والتعريف و ضمير الفصل مؤكّدان له . . .

وقد يجتمع طريق دلتما ، و طريق التقديم ، كقوائك : : دلتما زيداً أكرمت و دلتما بهذا أمرتك . . . و دلتما عليك الماحول . . . فعندئذ يتحتم إلغاء دلالة أحد

غيره وطريقه : التقديم ، ومعنى الآية الكريمة : فإما ترينك بعض الذى نخدم
من الإهلاك والعذاب أو تتوفينك قبل تعذيبهم ، فإن الذى عليك هو الإذار
وتبليغهم الرسالة ، وعلمينا نحن الحساب والجزاء لا عليك . . وهذا المعنى قد
اقتضى أن يكون طريق القصر فى الجملة الأولى - كما وضعنا - هو ، وإنما ،
وفى الجملة الثانية هو التقديم . . وقرأ قول المتنبي فى مدح عضد الدولة :

وقد رأيت الملوك قاطبه وسرت حتى رأيت مولاها
ومن منايهم براحتهم يأمرها فيهم وينهاها
أبا شجاع بنارس عضد الدور لة فناخسرو شهنشاها
أساميا لم تزده معرفة وإنما لذة ذكرناها

فقد عدد أسماء آباء الممدوح ، ولما كانت العادة قد جرت على أنه لا تعدد
أسماء الآباء إلا عند إرادة التعريف بشخص قاصر الذكر ، قليل الشهرة ،
تدارك الشاعر ذلك فقال :

أساميا لم تزده معرفة وإنما لذة ذكرناها

أى : ما ذكرناها إلا من أجل اللذة ، ، فلذة ، مقصور عليه مقسوم ،
وإنما ، ملغاة . . وقد يحتمل المعنى أن يكون القصر بأى من الطريقتين ، على
نحو ما ترى فى قول العباس بن الأحنف :

كان لى قلب أعيش به فاصطلى بالنار فاحترقا
أنا لم أرزق مودتك إنما للعبد ما رزقا

فجائز أن يكون ما للعبد مقصورا على رزقه ، لا يتعداه إلى رزق غيره ،
وجائز أن يكون : ، ما رزقا ، مقصورا على ركونه للعبد ، لا يتعداه إلى ركونه
لغيره . فعلى الأول يكون طريق القصر ، وإنما ، ودلالة التقديم ملغاة ، وعلى
الثانى يكون طريق القصر ، التقديم ، ودلالة ، وإنما ، ملغاة ، فالبيت - كما ترى -
يحتمل المعنيين . .

هذا ويرى البعض أنه إذا أدى اجتماع أى طريقين من طرق القصر إلى تدافع أجزاء الكلام ألغى أحدهما حسبما يقتضيه السياق وتحدد القرائن ، ولا يحكم على الكلام بالتناقض والتدافع ، فلو قلت : إنما هذا لك لا ذلك ووجدت : إنما ، لا تستقيم مع : لا ، فعليك أن تلغى أحد للطريقين حسبما يحل عليك السياق ، ولو قلت : إنما لك هذا لا لغيرك ، فوجدت : إنما ، متدافعة مع : التقديم ، و : لا ، ، فلما أن تلغىها وإما أن تلغى التقديم و : لا ، (١) .

والحل هذا البعض قد نظر إلى اجتماع : إنما والتقديم ، ، وإلى إلغاء أحدهما حسبما يقتضى السياق ، فرأى أن ما يحل على : إنما والتقديم ، عند اجتماعهما يمكن أن يحل على أى طريقين ، فليس هنالك ما يدعو إلى التفرقة بين اجتماع : إنما والتقديم ، واجتماع غيرهما . .

والذى أراه أنه لا يمكن التعويل على مثل هذه الأمثلة المصطنعة في إصدار هذه الأحكام ، بل ينبغي أن يعتمد فيها على التعبيرات الجيدة والأساليب الرفيعة من أقوال البلغاء ، وأن ينظر إلى اجتماع طرق القصر في تلك التعبيرات الجيدة ، ويقر عندئذ ما يقتضى به سياقها ، على نحو ما رأيت في اجتماع : إنما ، والتقديم في النظم الكريم وفيما مر بك من شواهد . .

٤ - أن الأصل في طريق : النفي والاستثناء ، أن يستعمل فيما شأنه أن يحمله المخاطب ، ينكره ، والأصل في : إنما ، أن يستعمل فيما شأنه أن يحمله المخاطب ولا ينكره . . يقول عبد القاهر : « وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو ما هذا إلا كذا وإن هو إلا كذا ، فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه ، فإذا قلت : ما هو إلا مصيب أو ما هو إلا مخطئ ، قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلته ، وإذا رأيت شخصاً من بعيد فقلت : ما هو إلا زيد لم تقله إلا وصاحبك يتوهم أنه ليس بزيد ، وأنه إنسان آخر ، ويجد في الإنكار أن يكون كذا ، (٢) » .

(١) انظر بنية الإيضاح : ٢ ص ٢٨ . (٢) دلائل الإعجاز ص ١٢٧ .

ومن ذلك قوله تعالى: «إِنْ هَذَا لَمْ يَكُنْ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنْ اللَّهُ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»^(١)، فالخطاب في الآية لمن يحتاجون في عيسى ويرفعونه إلى مرتبة الإله، ويجدون في ذلك، ولذا دعوا إلى الابتغال: «فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ»^(٢)، ثم أكد الخبر بأن واللام: «لَنْ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ» ثم جاء القصر بالنفي والاستثناء: وما من إله إلا الله، ثم أكد الخبر مرة ثانية: «وإن الله هو العزيز الحكيم».. وفي هذا ما يدفع لإنكار المنكرين ويبدد جهودهم إلى ترك الحاجة في عيسى بعد وضوح الأمر وبجيء العلم.. واقرا قوله تعالى: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُخَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ وَهُمْ يَبْهَتُونَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ»^(٣).. فالرسول — عليه الصلاة والسلام — يذكر أشد الإنكار أن يكون ما يدعوم إليه أساطير الأولين، وهم يعتقدون أنهم يهلكون بعنادهم وجداهم الرسالة وصاحبها، ويذكرون أنهم يهلكون أنفسهم ولذا جاء القصر في الموضعين بالنفي والاستثناء... وخذ قوله تبارك وتعالى: «قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ»^(٤) فالخطابون وهم الكفرة ينكرون أشد الإنكار أن يكون الرسول متبعاً لروحى يروحى ويرون أن ما يقوله أساطير، ولذا جاء

(١) سورة آل عمران آية ٦٣.

(٢) سورة آل عمران آية ٦١.

(٣) سورة الأنعام آية ٢٥ - ٢٦.

(٤) سورة الأنعام آية ٥٠.

القصر بالنفي والاستثناء : « إن أتبع إلا ما يوحى إلى . . . » ومن أشعارهم قول المتنبي في ذكر سيف الدولة ووصف جيوشه وما يتبعها من طير :

له عسكرا خيل وطير إذا رمى بها عسكرا لم يبق إلا جاجه

فـ يكون الجيش على هذه الصورة من القوة وشدة الفتك وأنه لا يبق من الأعداء حياً ولا جسداً ميتاً ، وإنما يبقى جاجهم ليس إلا ، أمر غريب تتوقف النفوس في قبوله ، ويكون منها إنكار له ودفع ، وإذا كان القصر بالنفي والاستثناء : « لم يبق إلا جاجه . . »

ومنه قول الآخر :

فا زادني الشيب إلا ندى إذا استروح المرضعات القتارا^(١)
لأن ما ذكره من شأنه أن يذكر ويدفع وأن تتوقف النفوس في قبوله والتألم به ، فقد ذكر أن الشيب زاده ندى ، ومن شأن من بلغ الشيب أن يكون حريصاً ، ثم ذكر أن الوقت وقت شدة وحاجة فهو وقت استروح فيه المرضعة القتار ، فإذا كانت المرضعة وهي التي يعتال لها ويعتنى بها قد وصل بها الحال إلى أن تشم رائحة الشواء ولا تطعمه ، فما بالك بغيرها . .
إن ازدياد من بلغ الشيب ندى في هذه الحال أمر يدفع وينكر ، وإذا كان القصر بالنفي والاستثناء : « ما زادني الشيب إلا ندى » ، دفعاً لهذا الإنكار ..

قلت : إن الأصل في النفي والاستثناء أن يستعمل فيما شأنه أن يدفعه المخاطب وينكره ويجهله ، وقد يخرج النفي والاستثناء عن هذا الأصل فيستعمل في الأمر المعلوم الذي لا ينكر . تنزيلاً له منزلة المجهول المنكر لاعتبارات بلاغية مناسبة . . . من ذلك قوله تعالى : « وَمَا يُحَدِّثُ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ »^(٢) . . . في الآية قصر الرسول - صلى الله عليه وسلم -

(١) استروح : اشم . والقنار بضم اللام : ربيع للشواء . .

(٢) سورة آل عمران آية ١٤٤ .

على صفة الرسالة لا يتعداها إلى التبرى من الهلاك ، فهو رسول يموت ويخلو كما خلت الرسل من قبله ، والمخاطبون وهم الصحابة رضى الله عنهم ، يعلمون يقينا أنه صلى الله عليه وسلم مقصور على الرسالة لا يتجاوزها إلى الحلد ، فهو غير جامع بين الرسالة والتخليد في الدنيا ، ولكنهم لما كانوا متعلقين به - عليه الصلاة والسلام - ويستعظمون موته ، وبعدونه أمرا خطيرا وحدثا جليلا ، نزلوا منزلة من ينكر موته ، ويعتقد أنه يجمع بين الرسالة والحلد أو التبرى من الهلاك ، فخرطوا خطاب المنكر ، والسر البلاغى ذو تصوير - حال الصحابة والإشعار بعظم ذلك الأمر في نفوسهم وشدة حرصهم على بقائه صلى الله عليه وسلم بينهم ، كما لا يخلو الأمر من عتاب عنيف لهم لعدم مضيقهم على وفق ما يعلمون ، وما هو راسخ في نفوسهم ، ولا يخفى عليك هذا المعنى عندما تقرأ سياق الآية الكريمة : « وَبَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَبْصُرَ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ » فأتت تشعير بنعمة العتاب والتحذير من الانقلاب على الأعقاب وعدم المضي على ما ثبت في النفوس ورسخ من إيمان واعتقاد ، ولو استعملت دائما ، هنا ، لتكونها للأمر المعلوم غير المنكر فقل : إنما محمد رسول يخلو كما خلت الرسل من قبله لما كان هذا المعنى ولما تحققت تلك المزية وهى إبراز حال الصحابة ، وتصوير شدة الموقف وما أصابهم من هول ...

واقرا قوله تعالى : « قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِيعُوا أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَطِيعُوا أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ إِنَّكُمْ عَلَىٰ عِندِ رَبِّكُمْ تُنَوَّلُونَ » (١) وقالوا : « إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَتَّخِذُوا بَنِيكُمْ أَطْفَالًا وَتُتَّخِذُوا بَنِيكُمْ أَطْفَالًا وَتُتَّخِذُوا بَنِيكُمْ أَطْفَالًا وَتُتَّخِذُوا بَنِيكُمْ أَطْفَالًا » (٢) وقالوا : « إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَتَّخِذُوا بَنِيكُمْ أَطْفَالًا وَتُتَّخِذُوا بَنِيكُمْ أَطْفَالًا وَتُتَّخِذُوا بَنِيكُمْ أَطْفَالًا وَتُتَّخِذُوا بَنِيكُمْ أَطْفَالًا » (٣)

(١) سورة إبراهيم آية ١٠، ١١

قال رسل عليهم السلام لا ينكرون أنهم بشر ولا يجادلون ذلك ، ولستكنهم نزولاً منزلة من ينكر ذلك ويدفعه ، فجاء القصر بالنفي والاستثناء : « إن أنتم إلا بشر مثلنا . . . » ، لا اعتقاد الكفرة أن الرسول لا يكون بشراً ، وإصرار الرسل - عليهم السلام - على دعوى الرسالة ، فهم بهذا الإصرار قد أنكروا بشريتهم - في اعتقاد المتكلمين وهم الكفرة - واعتقدوا أنهم ليسوا بشراً ، فكان القصر : « إن أنتم إلا بشر » ، قصر قلب أى : أنتم بشر لا رسل ، بناء على اعتقاد الكفرة الفاسد ، التناقض بين الرسالة والبشرية وعدم اجتماعهما . وإيثار التعبير بالنفي والاستثناء في هذا الأمر المعلوم الذى لا ينكره الرسل بتزويلهم منزلة المنكر ، يصور حال الكفرة وماخيم عليهم من جهل واعتقادات قاسدة أعنتهم عن الحق وحالت بينهم وبين قبول الهداية . . أما قول الرسل لهم : « إن نحن إلا بشر مثلكم » ، فن مجازاة الخصم ، للتبكيك والإلزام والإلحاح ، لأن من عادة من ادعى عليه خصمه الخلاف فى أمر لا يخالف فيه ولا ينكر ، أن يعيد كلامه على وجهه ، كما إذا قال لك من يناظرك : أنت من شأنك كذا ، فتقول : نعم أنا من شأنى كذا ولكن لا يلزمى من أجله ما ظننت أنه يلزم ، فكان الرسل - عليهم السلام - قالوا : إن ما قلتم من أننا بشر مثلكم هو ما قلتم لا ننكره ، ولكن ذلك لا يمنع أن يكون الله قد من علينا بالرسالة فاقه بمن على من يشاء من عباده . فقد سلم الرسل بملك المقدمة : « إن نحن إلا بشر مثلكم » ، بالفاظها ومعناها وفى هذا ما يؤنس نفوس الكفرة ويستميلهم نحو الحق والهدى ، وإنكته لا يستلزم مقصودهم . وهو أن الإنسان لا يرقى إلى أهلية الرسالة ، إذ لا منافاة عند الرسل والمؤمنين بين الرسالة والبشرية ، فليس هنالك ما يمنع من أن يرقى الإنسان ويسموا ، ويصير أهلاً للرسالة وتلقى الوحي . . . وخذ قوله تعالى (وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظَّلُّ وَلَا الخُرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ إِنَّ

أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ^(١) فقد قصر - صلى الله عليه وسلم - على صفة الإنذار قصر
 لإفرادهم ولا يتجاوز تلك الصفة إلى الجمع بينها وبين صفة الهداية ، والرسول
 عليه الصلاة والسلام يعلم ذلك لا يتكبره ولا يحمله ، ولكن لما كان عليه
 الصلاة والسلام شديد الحرص على هداية قومه ، ملحا في توجيه الدعوة إليهم
 حتى شق على نفسه ، نزل منزلة من يعتقد أنه يجمع بين الإنذار والهداية فجاء
 القصر بالنفي والاستثناء : **إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ** ، وسر بلاغته نسبية الرسول
 - صلى الله عليه وسلم - وتصوير حاله وإبراز حرصه على هداية قومه ، وإلحاحه
 في دعوتهم وتبليغهم الرسالة ، فقد بلغ في ذلك مبلغا نزل فيه منزلة من اعتقد
 أنه يستطيع حمل الناس على الهداية قمرا ، وسياق الآيات الكريمة يرشد
 إلى هذا المغزى ، فقد بين أنه لا يمكن أن تستوى تلك الأضداد : الظل والحرور
 - الأعمى والبصير - الظلمات والنور - الأحياء والأموات - ثم صرح بأن الله
 - سبحانه وتعالى - يسمع من يشاء ، وأنه عليه الصلاة والسلام - لا يستطيع
 إسماع من في القبور ، فهو لاء الكفرة قد صاروا في عداد الموتي ، والرسول
 في إجهاد نفسه وبذل كل ما في وسعه وإلحاحه في إسماعهم وهدايتهم كمن يسوي
 بين الأضداد - الأحياء والأموات - وهي ليست سواء ، ولكن يحاول إسماع
 من في القبور ، ولا جدوى في إسماعهم ، فما عليك ، يا محمد ، إذا لم يقبلوا
 الهدى ، فقد بلغت ونصحت ، وأرشدت ووضحت ، وما عليك بعد ذلك إذا
 لم يهتدوا : **إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ . . .**

هذا وقد يرد النقي والاستثناء فيما لا يتصور فيه إنكار مخاطب أو تنزيله
 منزلة منكر . . . تأمل قوله تعالى : **(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ
 لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ
 مِنَ الظَّالِمِينَ)**^(٢) نجد أن صفة الألوهية قد قصرت على الله سبحانه وتعالى

قصرًا حقيقياً نحقيقياً ، وطريق القصر هو النفي والاستثناء ، ولا نستطيع القول بأن المخاطب هنا منكر أو منزل ، منزلة المنكر ، كيف ويونس - عليه السلام - يضرع إلى الله عز وجل بهذا الدعاء ، فلا يتأبى ولا يعقل فيه مراعاة حال المخاطب - جل وعلا - وإنما التأكيد هنا مرده إلى حال المتكلم وهو يونس - عليه السلام - ومدى انفعاله بالخبر . فقد ألقى الخبر مؤكداً كما أحس ، وكما امتلأت به نفسه ، وقاض به ضميره ، دون نظر إلى حال مخاطب ، وتأمل قوله : « إني كنت من الظالمين » ، وماذا لو قيل : لا إله إلا أنت سبحانك فأنا من الظالمين ، إنه يكون كلاماً ساقطاً ، فأتت تشعراً عندئذٍ بخلة في السياق ، وعدم تناسق ، مرده إلى التخلي عن التأكيد الذي يبرز قوة الخبر واستقراره في نفس المتكلم .

وانظر إلى قول دريد بن الصمة :

وما أنا إلا من غزبة إن غوت غويت وإن ترشد غزبة أرشد

إنه يفخر بالانتماء إلى قبيلته وقومه ، وقد ألقى الخبر مؤكداً ليعبر عن استقراره في نفسه وعن عمق شعوره بهذا الانتماء ، ولو حاولت أن تتصور هنا مخاطباً منكراً أو منزلاً منزلة المنكر لكنت كن تحاول المحال ويتمسف في القول تعسفاً الكلام في غنى عنه . .

وبهذا يتضح لك أن حال المخاطب لا يمكن أن يعول عليها دائماً في استخدام النفي والاستثناء ، أو في تأكيد الخبر ، بل قد ينظر إلى غير المخاطب (١) .

أما ، إنما ، فالأصل فيها - كما قلت - أن تستعمل فيما شأنه أن يعلمه المخاطب ولا ينكره ، فهي أداة هادئة تستعمل في المعاني الواضحة التي لا ينكرها

(١) ارجع إلى آخر باب الخبر في الجزء الأول من هذا الكتاب .

المخاطب ولا يجملها ، وهذا عكس النقي والاستثناء ، الذي يستعمل في المعاني القوية والنبرات الحادة والأمور الغريبة ... وكان ، إنما ، أداة همس ، وتنبيه ، يهمس بها المتكلم وينبئه مخاطبه إلى تلك الأمور المألوفة ، والمعاني الواضحة ، تقول : إنما هو أخيك ... إنما هو صاحبك ... إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية ... إنما يعجل من يخشى الفوت ، فتلك أمور مألوفة لا يجملها أحد . ولا يدفعها مدافع . والقصر فيها تنبيه للمخاطب وتذكير له بما ينبغي أن يفعله تجاه الأخ والصديق ، وما ينبغي أن يفعله تجاه الاتحاد والتضامن ، ومبادرة الفرصة ... إنها معان واضحة والقصر فيها - كما قلت - تنبيه للمخاطب وتذكير ... ولو وضعت : وما وإلا ، مكان إنما في تلك الأمثلة لما استقام المعنى ؛ لأن النقي والاستثناء تلائمه المعاني القوية الشارة . تأمل قولك لصاحبك : أشفق على خالد ، وعامله معاملة طيبة ، فإنما هو ابن صديقك عمرو ، تجد أن القصر بإنما كأنه همس وتنبيه للمخاطب ، وتذكير له بتلك الصداقة وما ينبغي عليه أن يفعله تجاهها ، ثم انظر إلى قولك : كيف تؤذى خالدًا وتقسو عليه ، وما همداك إلا صديقاً حميماً لأبيه ، تجد أن المعنى هنا أقوى حدة وأشد إثارة ، ولا تشعر فيه بالحدود التي لمسته في القول الأول ، ولذا لاءمه النقي والاستثناء .

ومن شواهد ، إنما ، قول المتنبي في مدح كافور الإخشيدي :
 إنما أنت والد والاب القبا طع أحنى من واصل الأولاد
 فالشاعر لم يرد أن يعلم كافورا أنه بمنزلة الوالد ، ولا ذاك مما يحتاج كافور فيه إلى الإعلام ، ولكنه أراد أن يذكره بالامر المعلوم ، لينبئ عليه استدعاء ما يوجبه وليافته باطف إلى حق الولد على أبيه من العطف والحنان ... ومثله قوله :

إنما تنجح المقالة في المر - إذا صادفت هوى في الفؤاد
 وقول أبي تمام :
 ولا تمكن الإخلاق منها فإنما يلد لباس البرد وهو جديد

وقول علي بن الجهم :

وقلن لنسا نحن الإهـلة إنـما تضيء لمن يسرى بليل ولا تضيء

وقول الخطفي جد جرير :

وفي الصمت ستر للفبي وإنـما صحيفة اب المرء أن يتكلمها

وقول الآخر :

وما الزين في ثوب تراه وإنـما يزين الفتي مخبوره حين يخبر

فإن طرة راتك فانظر فرجـما أمر مذاق العود والعود أخضر

وغير خاف عليك دخول إنـما في تلك المواضع على معان واضحة معلومة ، لا يجعلها المخاطب ولا يدفعها . . وتأمل قوله تعالى : (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْمَعَامِلِينَ عَلَيْهِمْ وَالْمُؤَلَّفَاتُ قُلُوبُهُمْ)^(١) نجد أن الصدقات قد قصرت على كونها للفقراء وما عطف عليهم ، لا تعدى تلك الاصناف إلى غيرها ، وهذا أمر معلوم لا يتردد فيه عاقل ولا يدفعه منكر . . وكذا القول في الآيات الكريمة : (إِنَّمَا يَنْتَفِرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)^(٢) . . (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاكُمُ)^(٣) (مَنْ أَخَذْتَنِي فَإِنَّمَا يَنْتَفِيذِي لِنَفْسِي وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَقِيلُ عَلَيْهِمْ)^(٤) . . (إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَإِكْلٌ قَوْمٍ هَادٍ)^(٥) فقد جاء القصر ، وإنـما ، في الآيات الكريمة ، لأن المعاني التي استعملت فيها معان واضحة بيّنة ، لا يجعلها المخاطب ولا يشكرها السامع . .

وقد تستعمل ، إنـما ، في الأمور التي يشكرها المخاطب ويدفعها تنزيلاً لتلك الأمور منزلة ما لا يحرمه المخاطب ولا يشكره ، وذلك لغاية بلاغية يقصد إليها .

(٢) - سورة التوبة آية ١٨

(٤) - سورة الإسراء آية ١٥

(١) - سورة التوبة آية ٦٠

(٣) - سورة التوبة آية ٩٣

(٥) - سورة الرعد آية ٧

ويعمد . . تأمل قوله تعالى : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ)^(١) تجد أن كون هؤلاء المنافقين مصلحين خير منكركه المخاطب ويدفعه . فـ كان حق "قصر أن يكون بالنفي والاستثناء" : "إن نحن إلا مصلحون" ، ولكن النظام "الكريم" أثر التعبير ، وإنما ، تزيلا لهذا الخبر المنكر منزلة الأمر المعلوم "ظاهر" ، فهم يدعون أن كونهم مصلحين أمر ظاهر من شأنه ألا يجعله المخاطب ولا ينكره ، لأنه من الواضح ، كان ولذا جاء الرد عليهم غنيما وقاسما : "ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون" ، فقد بدأ ، بالألا ، الاستفتاحية التي تفيد التنبيه وتبيته الأذهان لما يلقي بعدها ، ثم جاء قصر الإفساد عليهم بحيث لا يتعداهم إلى غيرهم ، وكأنه ليس على وجه الأرض مفسدون سواهم ، وأكد ذلك ، بأن : "ألا إنهم هم المفسدون" ، ثم جاء هذا الاستدراك ، ولكن لا يشعرون ، الذي بين أن خفاء تلك الحقيقة عليهم سرده إلى فقدانهم الشعور ، فهم قوم لا يشعرون ، ولو كان عندهم قدر من شعور لأدركوا حقيقة انحصار الفساد فيما بينهم ، وقصره عليهم . .

وانظر إلى قول عبد الله بن قيس الرقيات في مدح مصعب بن الزبير :

إنما مصعب شهاب من الأنوار تجلت عن وجهه الظلمات

فقد وصف مصعب بأنه شهاب من الله ، وأثر التعبير ، وإنما ، ليفيد أن كونه موصوفا بتلك الصفة أمر ظاهر معلوم لا يرتاب فيه مرتاب ولا ينكره أحد ، وذلك على عادة الشعراء إذا مدحوا ، أن يدعوا في كل ما يصفون به مدوحهم الجلاء ، وأنهم قد شهبوا به حتى إنه لا يدفعه أحد . . . ولذا أنكر عبد الملك بن مروان مدح ابن قيس له بقوله :

يا ألق التاج فوق مفرقه على جبين كانه الذهب

وقال له : ألسنت أنت القائل في مصعب : إنما مصعب شهاب من الله ، وكان عبد الملك قد أحس بما في مدح مصعب من شدة ظهور وصدق إحساس وقوة شعور ، وأن ما قاله ابن عيسى فيه لا يقارن بما قاله في مصعب ، خاصة وأنه قد مدحه بأمر ظاهر محسوس ، لا يخفى فيه ومدح مصعباً بفضيلة من الفضائل النفسية وهي القوة والشجاعة ، والمدح إنما يفضّل ويحسن بمثل تلك الفضائل النفسية .

هـ — تحديد موقع المقصور والمقصور عليه : وبخلاف موقع المقصور والمقصور عليه باختلاف طريق القصر - كما رأيت - فالمقصور عليه إما هو المؤخر دائماً تقول : إنما أنت جواد ، فتقصر مخاطبك على صفة الجود . وإما الشاعر زهير ، فتقصر صفة الشعر على زهير .

والمقصور عليه في التقديم هو المقدم كقوالك في قصر الكرم على زيد : زيدا أكرمت . . والمقصور عليه في العطف ببل ولكن هو الواقع بهما تقول : ما جاء زيد بل عمرو . . ما الشاعر زهير بل عنقرة . . ما الشجاع حاتم لكن عمرو . . فتמיד بذلك قصر المجيء على عمرو ، والشعر على عنقرة ، والشجاعة على عمرو . والمقصور عليه بضمير الفصل أو بتعريف أحد الطرفين بالجنسية هو الخالي من ، آل ، تقول : عمرو هو الجواد ، فتقصر صفة الجود على عمرو ، وتقول : الشجاع خالد فتقصر صفة الشجاعة على خالد . أما المقصور عليه في النفي والاستثناء فهو الواقع بعد أداة الاستثناء ، ويجوز تقديم المقصور عليه مع أداة الاستثناء . . . تقول : ما أكرمت إلا زيدا في قصر إكرامك على زيد ، وتقول : ما جئت إلا راكبا في قصر بجيتك على تلك الحال ، وتقول : ما كسوت زيدا إلا جبة . في قصر الكساء الذي كسوته زيدا على كونه جبة ، وتقول : ما اخترت صدقاً إلا منكم ، في قصر اختيارك الصديق على كونه منهم ، والى أن تقول : ما اخترت إلا منكم صديقاً فتقدم المقصور عليه مع أداة الاستثناء . . ومنه قول السيد الحميري في مدح بني هاشم :

لوخير المنبر فرسانه ما اختار إلا منكم فارسا

ولا يجوز أن تقدم المقصور عليه بدون أداة الاستثناء ، لأن أداة الاستثناء لو حذرت عن مكافئها بتأخيرها عن المقصور عليه أو بتقديمها عنه لاختل المعنى . . . تأمل قولك : ما اخترت منكم إلا صديقا : ما اخترت صديقا إلا منكم . . . وقولك : ما اختار منكم إلا فارسا . . . وما اختار إلا منكم فارسا نجد المعنى قد تغير وتبدل^(١)

فعلبك أن تنتبه إلى أن المقصور عليه في طريق النفي والاستثناء هو ما يلي أداة الاستثناء . وأنه لا يقدم إلا حيث تقدمت معه أدواته وإلا تغير المعنى واختل المراد من الكلام .

جمال التعريض ، وإنما : صرح الشيخ عبد القاهر ، أن أفضل مواقع ، إنما ، هو التعريض ، لأنها فيه أقوى ما تكون وأعلاق ما ترى بالقاب ، فقد علمت أن الحكم الذي تستعمل فيه ، إنما ، من شأنه أن يكون معلوما ، لا يحمله أحد ولا ينكره منكر ، لذلك امتازت عن بقية طرق القصر بأنها تستعمل في كلام لا يكون الغرض منه إفادة الحكم للعالم به ، وإنما يكون الغرض التلويح به إلى معنى آخر على سبيل التعريض ، نقول لمن يهمل في مدارسة العلم ولا يهتم في تحصيله : إنما ينال العلا من اجتهاد ، فانت لم ترد أن تعلمه هذا الحكم لوضوحه وظهوره . وإنما قصدت أن تلوح له بإعماله وأنه لم يحقق رغبته في نيل العلا إلا بالجد . وتأمل قوله تعالى : (أَفَمَنْ يَمُنُّ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَدَّبَتْهُ كُفْرًا أَمْ يَدَّعُونَ كُفْرًا أَمْ يَدَّعُونَ كُفْرًا)^(٢) ، فإعني : إنما يدَّعون الحق ويعقله أرباب العقول السامية والفكر السديدة ،

(١) ارجع إلى طريق النفي والاستثناء ص ٣٥ وما بعدها

(٢) - سورة الرعد الآية ١٩

وليس الغرض من الآية أن يعلم السامعون هذا المعنى الظاهر ، بل ترمى من وراء ذلك إلى التعريض بدم الكفار ، وأنهم من فرط العناد وغلبة الأهواء عليهم ، قد صاروا في حكم من ليس بذي عقل ، فالذي يطمع منهم في أن ينظروا كمن يطمع في ذلك من غير أولى الأبواب . . . وتلاحظ أن التعريض بإعما قد جاء بعد مقارنة بين العالم بآيات الله وأمور دينه وبين الأعمى الذي أعرض عن الحق على الرغم من وضوحه وبيانه فاستحق ذلك التوبيخ الذي أفاده أسلوب التعريض .

وكذا القول في قوله تعالى : (إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ)^(١) ، وقوله عز وجل : (إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ يَخْشَاهَا)^(٢) ، فالمعنى على أن من لم تكن له هذه الخشية فكأنه ليس له أذن تسمع ولا قلب يعقل فالإنذار معه كذا إنذار .. ومنه قول العباس بن الأحنف :

كان لي قلب أعيش به فاصطلي بالنار فاحترقا
أنا لم أرزق مودتك إنما للعبد مارزقا

فإنه تعريض بأنه قد علم أنه لا طمع له في رساها ، لأنه لم يرزق محبتها ولذا يفس من أن يكون منها إسماع له . . وقوله أيضا :

يلوم في الحب من لم يدر طعم هوى
وإنما يعذر العشاق من عشقا

يريد أن يقول : ينبغي للعاشق ألا يشكر لوم من يلومه ، فإنه لا يعلم كنه بلوى العاشق إلا من عشق ، ولو كان هذا اللائم قد ابتلى بالعشق مثله لعرف ما هو فيه فعذره وما لومه . .

(١) سورة فاطر الآية ١٨

(٢) سورة البقرة الآية ١٧٥

وقول الآخر :

ما أنت بالسبب الضعيف وإنما نجح الأمور بقوة الأسباب
فاليوم حاجتنا إليك وإنما بدعى الطبيب لساعة الأوصاف

يقول في البيت الأول : ينبغي أن أنجح في أمرى حين جعلتك السبب
إليه ، وفي الثانى : إنما قد طلبنا الأمر من جهته حين استعنا بك فيما عرض لنا
من الحاجة ، وعولنا على فضلك كما أن من يعول على الطبيب فيما يعرض له
من السقم يكون قد أصاب في فعله وطلب الأمر من موضعه (١)

هذا والتعريض معنى يفهم من عرض الكلام وجانبه ، ويستشف من
أطراف المعانى المباشرة بمعرفة السياق وقرائن أحواله ، وليس هنالك
وسيلة تحدد بها أى الأساليب يكون للتعريض وأياها لغيره ، فالمعول عليه
في ذلك هو سياق الكلام وقرائن الأحوال ، وما يفيض به التركيب من
معان جانبية وإشارات وإيحاءات . . وقد حاول عبد القاهر تفسير جريان
المعنى فى أسلوب التعريض ، وارتباطه بإنما لدلالاتها على القصر ، حتى إنك
لو حذفته إنما ، يسقط المعنى التعريضى ، فلو قيل : د تذكر أولو
الألباب ، لم يدل هذا القول على التعريض كما دلت الآية الكريمة : د إنما
يتذكر أولو الألباب ، ، والسبب فى ذلك : أن التعريض إنما وقع لأن
من شأن إنما ، أن الكلام معها يتضمن معنى التنى بعد الإثبات والتصریح
بامتناع التذكر عن لا يفعل ، وإذا أسقطت من الكلام فقیل : د يتذكر
أولو الألباب ، كان مجرد وصف لأولى الألباب بأنهم يتذكرون ولم يكن
فيه معنى فنى التذكر عن ليس من أولى الألباب ، ومحال أن يقع تعريض
بشيء ليس له فى الكلام ذكر ولا فيه دليل عليه . . . ويجوز أن يقع

التعريض بقولك : د يتذكر أرو الالباب ، بإسقاط د زعما ، إذا دل دليل على
نفي التذكر عن غيرهم ؛ بأن أردت به مدح إنسان بالتيقظ وبأنه فعل ما فعل وتنبه
لما تنبه له لاعتله وحسن تمييزه ، كما يقال : د كنا يفعل العاقل ، ، د وهكذا
يفعل الكريم ، . عند التعريض بغير العاقل وبغير الكريم (١) .

والله تعالى أعلم

(١) ارجع إلى دلائل الإعجاز ٢٣١ .

الفصل الثاني

أساليب الإنشاء

وقفت في الجزء الأول من هذا الكتاب على الأسلوب الخبرى وأحوال الإسناد الخبرى وأحوال أجزاء الجملة من مسند ومسند إليه ومتعلقات الفعل ، وعرفت ما يمتاز به هذا الأسلوب ؛ إنه مبني على الحكاية ويقصد به الإخبار والإعلام بمضمون الجملة الخبرية ، وبجانب هذا الأسلوب الخبرى ، توجد الأساليب الإنشائية التي يقصد بها إنشاء الكلام وإيجاده ابتداء ، فليس الهدف منها الإعلام وحكاية الخبر ، وإنما هي عبارات تصاغ ابتداء وتنشأ لإنشاء ليطلب بها مطلوباً ، وتمتاز الأساليب الإنشائية بالحث وإنارة الذهن وتنشيط العقل وتحريك المخاطب . . . ولمزيد من الإيضاح والتفرقة بين الأسلوب الخبرى والأسلوب الإنشائي تعالوا ننظر في تلك الشواهد . . . يقول الغنوي في رثاء أخيه :

أخ كان يكفيني وكان يعينني على قاتبات الدهر حين تنوب
عظيم رماد القدر رحب فناؤه إلى سند لم محتجبه غيوب
حليف الندى يدعو الندى فيجيبه سريعاً ويدعوه الندى فيجيبه^(١)

عندما تتأمل هذه الأبيات تجد أن الشاعر يحكي عن أخيه ويخبر بأنه كان يأخذ بيده في أوقات الشدة ، وكان كريماً تقصده الضيوف فلا يحتجب

(١) السند : ما ارتفع عن الوادي وسهل عن الجبل . . والنيب : البطن المنخفض من الأرض . . وحليف الندى أى : بينه وبين الندى وهو الكرم حاف وعهد . .

هنهم ؛ لأن السكرم خلقه وشيمته ، فهما حليفان لا يفترق أحدهما عن الآخر ، ولا يتخلف عن إجابة دعواه .. وهذا الذي يخبر به الغنوى قد يطابق الواقع فيكون صادقاً ، وقد يخالفه فيكون كاذباً ... وقارن بين رثاء الغنوى في الآيات المذكورة وبين قول الخنساء في رثاء أخيها صخر :

أعيفى جسودا ولا نحمددا ألا تبكيان لصخر الندى
ألا تبكيان الجواد الجميلا ألا تبكيان الفقه السيدا

تجد الأسلوب هنا يختلف ، فالخنساء لا تخبر وإنما تنادى وتأس وتنهى ، ونسأل ، هي تحض عينيها وتحثهما على بكاء صخر ، فهذه أساليب لإنشائية ، وهي وإن كان لها واقع في نفس الخنساء إلا أنه لا يقصد بتلك الأساليب مطابقة هذا الواقع أو مخالفته وإنما يقصد بها إنشاء تلك المعاني .. وكذا القول في قول سعد بن ناشب منادياً قومه آل رزام .

فيا لرزام رشحوا بي مقدما إلى الموت خواضاً إليه الكتائب .

وقول البحتري :

فياليت طالعة الشمسين غائبة وياليت غائبة الشمسين لم تغب

وقول الآخر :

ليت السكواكب تدنولى فأنظما عقود مدح فإرضى لكم كلنى

فهؤلاء الشعراء لم يريدوا الإخبار ، وإنما قصدوا إلى إنشاء تلك المعاني ...

ولذا ساع للبلاغيين أن يقسموا الكلام إلى قسمين :

القسم الأول : الخبر ، وقالوا عنه : إنه قول يحتمل الصدق والكذب لذاته ، كقولك : جاء زيد .. ذهب خالد .. نجح عمرو .. فتلك أخبار تحتمل الصدق والكذب ، وقدره بقولهم ، لذاته ، أى : لذات القول ليعلموا

إلى تلك الأقوال التي لا نحتمل إلا صدق كإخبار القرآن الكريم والحديث الشريف ، وكالأقوال الثابتة نحو أسماء فرقتنا والأرض تحتنا والواحد نصف الاثنين ، فمثلك الأخبار لا نحتمل سوى الصدق ولكن هذا الاحتمال ليس لذات القول وإنما بالنظر إلى قائله وهو الله تعالى ، والرسول عليه الصلاة والسلام ، وباعتبار ثبات الأقوال في الأخبار التي تتضمن أقوالاً ثابتة . . . وليذهبوا أيضاً إلى الأخبار التي لا نحتمل إلا الكذب كأقوال مسيلة الكذاب فمثل هذه الأقوال لا نحتمل إلا الكذب ، ليس لذات القول ، بل باعتبار من قالها ، ولذا قيدوا احتمال الخبر للصدق والكذب بقولهم : لذاته ، أى : بغض النظر عن قائله . . . ومرجع احتمال الخبر للصدق والكذب إلى تطابق النسبتين الكلامية والواقعية أو عدم تطابقهما . فقولك : نيجح عمرو ، له نسبتان كلامية يفيدها النطق بالخبر والإعلام به ، وخارجية وهى ما عليه الواقع ، فإن تطابقت النسبتان كان الخبر صادقاً وإن تخالفتا كان كاذباً .

القسم الثانى : الإنشاء ، وقد عرفوه بقولهم : قول لا يَحتمل الصدق والكذب ، ، وذلك لأن أساليب الإنشاء يقصد بها - كما قلت - إلى إنشاء المعانى ، وصوغها ابتداء ليطلب بها مطلوباً معيناً ، وهذا لا يعنى أن أساليب الإنشاء ليس لها نسبة خارجية حتى ينظر فى مطابقتها للنسبة الكلامية فيكون المعنى على الصدق أو عدم مطابقتها فيكون المعنى على الكذب ، بل لها نسبة خارجية وهى قيام المعنى الإنشائى من تمن أو أسر أو نهي أو استفهام أو نداء فى نفس المتكلم ، ولكن ليس المقصود من الجملة الإنشائية الإخبار بمطابقة هذه النسبة للنسبة الكلامية ، وإنما المقصود هو إنشاء المعنى وإبتدائه (١) . .

وأنت تستطيع أن تدرك ذلك عندما تتأمل الأسلوب الإنشائى وتقارن بينه وبين الأسلوب الخبرى . انظر إلى قول الشاعر :

ولى كبد مكلومة من فراقكم أطامتها صبراً على ما أجنث

(١) ارجع إلى شروح التلخيص ١ / ١٦٦ وما بعدها . .

وقارنه بقول الآخر :

فيا ليت ما بيني وبين أحبتي من البعد ما بيني وبين المصائب
تجد أن المعنى في البيت الأول معنى على الحكاية والإعلام بالخبر الذي
يحدث به عن نفسه ونستطيع أن نقول : إنه صادق فيما يخبر أو كاذب ، أما
المعنى في البيت الثاني فالمراد منه : إنشاء التمني وإيجاد النسبة وإيقاعها دون
قصد إلى المطابقة لما في نفس الشاعر أو عدم المطابقة ، ولذا تجدد المعاني
الإنشائية قد ترد في أسلوب الخبر كقولك : غفر الله لك وفرج كربك
وأثابك . وكقوله صلى الله عليه وسلم : لا يجتمع دينان في جزيرة العرب ، كما
أن المعاني الخبرية قد ترد في أسلوب الإنشاء نحو قوله تعالى : (قُلْ أَمَرَ رَبِّي
بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ)^(١) وكقوله عليه الصلاة
والسلام : من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار . . . ، وسنفصل
القول في هذا - إن شاء الله تعالى - فيما بعد .

ولك أن نخبر عن أساليب الإنشاء فتقول : تمنيت لك الخير وأمرت
خالدا بالمعروف ونهيته عن المنكر واستفهمت عن موعد الاختبار وناديت
عمرأ فأقبل إلى ، ورجوت لك الخير والصلاح وأقسمت بالله أن أبر والدي
وعندئذ يأخذ الأسلوب طابع الحكاية والخبر فيكون كلا ما يحتمل الصدق
والكذب .

الإنشاء الطلبي وغير الطلبي : وينقسم الإنشاء إلى قسمين :

١ - إنشاء طلبي وهو ما يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطلب ويشمل
أساليب الأمر والنهي والتمني والاستفهام والنداء . . تأمل قوله تعالى : (فاصْدَعْ
بِمَا تَوَمَّرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)^(٢) ، وقوله تعالى : (وَلَا تَحْسَبَنَّ
الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَا عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)^(٣) ،

(١) سورة الأعراف آية ٢٩ . (٢) سورة الحجر آية ٩٤ .

(٣) سورة آل عمران آية ١٦٩ .

وانظر في قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «يا بني اتق الله فإن من اتقى الله وقاه ومن توكل عليه كفاه ومن شكره زاده...»، ثم تأمل قوله تعالى: «يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي»^(١)، وقوله جل وعلا: «سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الْبَيْتِ كَانُوا عَمَّيًّا...»^(٢)، وقول شوقي في رثاء حافظ إبراهيم:

ماذا حشدت من الدموع لحافظ وذخرت من حزن له وبكاء

نجد أن هذه الشواهد قد اشتملت على أساليب إنشائية يطلب بها أمر غير حاصل وقت الطلب، فاقه عز وجل يأمر نبيه «فاصدع»، وأعرض، والأمر طلب للفعل، وينهاه: «لا تحسبن»، والنهي طلب الكف عن الفعل، وعمر يفادى عبد الله: «يا بني»، وفي النداء طلب الإقبال، والكافر يتعنى: «يا ليتني قدمت»، والنهي: طلب المحبوب الذي لا طمع فيه، والسفهاء يسألون: «ما ولّاهم»، وشوقي يستفهم: «ماذا حشدت»، والاستفهام طلب الفهم، فهذه الأساليب قد طلب بها - كما ترى - أمور غير حاصلة فغنا. الطلب، وإذا كان الإنشاء فيها إنشاء طلبياً، فإذا استعملت تلك الأساليب - الأمر والنهي والتمنى والاستفهام والنداء - في أمور حاصلة وقت الطلب وجب تأويلها بالطلب بحسب القرائن وما يناسب المقام... تأمل قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ...»^(٣)، وقوله عز وجل: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...»^(٤)، وقول عمر السابق: «يا بني اتق الله...»، توجب أن التقوى والإيمان المأمور بهما حاصلان وقت الطلب، فالمعنى فيهما على طلب دوام الإيمان واستمرار التقوى.

(٢) سورة البقرة آية ١٤٢ .

(١) سورة الحجر آية ٢٤ .

(٤) سورة النساء آية ١٣٦ .

(٣) سورة الأحزاب آية ١ .

(٦ - علم المنهج ج ٢)

٢ - إنشاء غير طلبي: وهو ما لا يستدعي مطلوباً، وله صيغ كثيرة منها: القسم
كقوله تعالى: «وَتَاللَّهِ لَا رَكْبَدَنَ أَصْنَاءَكُم بَعْدَ أَنْ تُوَافُوا مُذِيرِينَ»^(١)،
وأفعال المدح والذم كقوله تعالى: «وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ»^(٢)،
وقوله عز وجل: «بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ...»^(٣)،
والترجي كما في قوله تعالى: «فَقَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَّ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ
عِنْدِهِ...»^(٤)، وقوله تعالى: «فَلَمَّا كَبَبَا خِيعَ فَقَسَتْ تَلَى آثَارِهِمْ إِنْ
لَمْ يُؤْمِئُوا بِهَذَا الْخَلِيبِ أَشَقَّ...»^(٥)، والتمجيد كما في قول الصمة
ابن عبد الله القشيري:

بنفسي تلك الأرض ما أعطي الربا
وما أحسن المصطاف والمتربعا

الربا: ما ارتفع من الأرض، والمصطاف: مكان تصيف، والمتربعا:
مكان الربيع، والمعنى أفضى بنفسى تلك الأرض لطيبها العجيب وجمال
فصلها... ومنها ألفاظ العقود كهولك: بعث واشتريت ومنها رب وكم
الخبرة لدلالتهما على إنشاء التقليل أو التكميل كما في قول القائل: «رب أخ
لك لم تله أملك»، وكما في قوله عز من قائل: «كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ
فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ...»^(٦).

هذا وقد اهتم البلاغيون بدراسة أساليب الإنشاء الطلبي، وأهموا دراسة
أساليب الإنشاء غير الطلبي، وحببتهم في ذلك أن الإنشاء الطلبي غنى بالاعتبارات
والملاحظات البلاغية، وأن أساليبه وهى الأمر النهى والتمنى والاستفهام والنداء
قد ترد ويراد بها غير معانيها، فالأمر اطالب حصول الفعل وقد يرد للتهديد

(٢) - سورة الداريات آية ٤٨

(٤) - سورة المائدة آية ٥٢

(٦) - سورة البقرة آية ٢٤٩

(١) - سورة الأنبياء آية ٥٧

(٣) - سورة الجمعة آية ٥

(٥) - سورة الكهف آية ٦

ونحوه والاستفهام لطلب الفهم وقد يرد للإنكار وغيره . . . وهكذا فتلك الأساليب الطلبية يتولد منها بحسب القرائن والسياق معان بلاغية متعددة . . أما أساليب الإنشاء غير الطي فقد أهملوها لأمرين وهما :

١ - أن أكثر هذه الأساليب في الأصل أخبار نقلت إلى معنى الإنشاء .

٢ - أنها لا تستعمل إلا في معانيها التي وضعت لها ، فالقسم لا يفيد إلا القسم والتعجب لا يرد لغير التعجب . . . وهذا لا يعنى أن تلك الأساليب خالية من الاعتبارات البلاغية والمزايا الجمالية ، بل تسكن وراءها ملاحظات بلاغية واعتبارات دقيقة ، انظر إلى أسلوب التعجب في التعبيرات الجيدة تجد وراءه كثيرا من الدقائق التي يتوهج فيها الإحساس بالأشياء والمعاني . . . وتأمل أسلوب القسم في القرآن وتعدد مواقفه واختلاف المقسم به وأجوبة القسم تجد وراء ذلك اعتبارات جديرة بالبحث والدراسة . . . وهكذا تجد وراء كثير من أساليب الإنشاء غير الطلبية مزايا واعتبارات تستحق الدراسة والتأمل . . . وسنقوم - إن شاء الله تعالى - بالنظر في تلك الأساليب وتجليات ما وراءها من أسرار واعتبارات في بحث آخر مستقل . . . أما الآن فإليك أساليب الإنشاء الطلبية .

أسلوب الأمر : للأمر أربع وهي :

١ - فعل الأمر كقوله تعالى : « وَأَعِذُوا لَهُمْ مَا اسْتَظَمْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ »^(١) ، وقوله عز وجل : « وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا »^(٢) .

٢ - الفعل المضارع المقرون بلام الأمر ، كما في قوله تعالى : « لِيُتَفَقَّحْ دُورُ سَعْيَةٍ مِنْ سَعْيَةٍ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُتَفَقَّحْ يَمَّا آتَاهُ اللَّهُ »^(٣) ،

(٢) سورة هود آية ٣٧ .

(١) سورة الأنفال آية ٦٠ .

(٣) سورة الطلاق آية ٧ .

وقوله عز وجل : « فَلْيَسْكُتُبُ وَلْيُمْلِلِ لِلَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ .. »^(١).

٣ — اسم فعل الأمر ، نحو : صه بمعنى اسكت ، ومنه بمعنى اكف وعليك بمعنى الزم ، ومنه قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ .. »^(٢).

٤ — المصدر الغائب عن فعل الامر كقوله تعالى : « وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. »^(٣) ، أى : وأحسنوا بهما ، وقوله عز وجل : « فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَخَرِّبُوا الرِّقَابَ حَتَّى إِذَا أَمْخَنَتُمُوهُمْ فَضْدُوا الْوَتَاقَ .. »^(٤) ، أى : فامرؤوا الرقاب .. ومنه قول فطرى بن الفجاءة :

فصبرا في مجال الموت صبيرا فما نيل الخلود بمستطاع
وكقوله عليه الصلاة والسلام : « رفقاً بالقوارير ، » وتقول : سعيان
الخير وأسرا بالمرورف ونهيا عن المنكر ررميا بالرمح وضربا بالسيف وحده
فهو وشكرا .

وقد قالوا في تحديد مفهوم الأمر : هو طلب حصول الفعل على جهة الاستعلاء حيث يكون من الأعلى إلى الأدنى ، فالأعلى يطلب من هو دونه حصول الفعل وتحقيقه وبعثه عليه ويبحث ، وقد اختلف البلاغيون فيما يستعمل فيه أسلوب الأمر ، فيرى البعض أنه يستعمل في الوجوب وأن المراد به الإلزام والتسكيف ، وبعضهم يرى أنه للنذب ، وآخرون يرون أنه يستعمل في معنى يشمل الوجوب والنذب وهو الطلب على جهة الاستعلاء ، ويرى آخرون أنه من الألفاظ المشتركة بين الوجوب

(٢) سورة المائدة آية ١٠٥ .

(٤) سورة محمد آية ٤ .

(١) سورة البقرة آية ٢٧٢ .

(٣) سورة النساء آية ٣٦ .

والندب فقط ، أو بين الوجوب والندب والإباحة ، وذلك كاشتراك لفظ الغزالة في الشمس والظبي ، والخال في الشامة بخد الحسناء وأخ الام ، فأسلوب الامر موضوع للمعنيين : الوجوب والندب أو للمعاني الثلاثة : الوجوب والندب والإباحة ، أو لمعنى يشملها مثل الإذن^(١) .

ولهذا وجدنا الخطيب القزويني يحتاط عند تعريفه الأمر حيث قال : « والأظهر أن صيغته من المقترنة باللام نحو : ليحضر زيد ، وغيره نحو : أكرم عمراً ورويد بكراً ، موضوعة لطلب الفعل استملاء لتبادر الذهن عند سماعها إلى ذلك وتوقف ما سواه على القرينة »^(٢) .

فلم يحزم بتعريفه - كما ترى - بل جعله دالاً ظاهر ، ، ولعل سبب اختلاف البلاغيين في تحديد استعمال أسلوب الأمر، مرده إلى أن صيغ الأمر قد شغلت الدارسين في كثير من المجالات وبخاصة الفقهاء والأصوليين لاتصالها بالوجوب والندب وما إلى ذلك من أحكام فقهية ، توجب الحذر في الدراسة والاستنتاج^(٣) .

والذي أراه أن الأصل في صيغ الأمر أن تستعمل في طلب حصول الفعل على سبيل التكليف والإلزام من الأعلى الأدنى ؛ لأن هذا هو المتبادر إلى الذهن عند سماعها - كما ذكر الخطيب - وقد تستعمل في غير هذا الأصل الذي وضعت له فتعيد الإباحة أو الدعاء أو التهديد أو التمني أو الحث والإنارة أو الاستمرار والدوام على تحقيق الفعل .. إلى غير ذلك من المعاني التي تفيد هذا صيغ الأمر بمعونة السياق وقرائن الأحوال ، وقد اهتم البلاغيون بالحديث عن هذه المعاني وتجلياتها والكشف عن دقائقها ومزاياها في التعبير .

(١) انظر شروح التلخيص ص ٣١٠/٢ .

(٢) ارجع إلى الإيضاح ٥٣/٢ .

(٣) انظر دلالات التراكيب ص ٢٦١ .

المعاني البلاغية التي يفيدها أسلوب الأمر ووجه الدلالة عليها : -
الأصل في أسلوب الأمر - كما بينت - طالب حدوث شيء لم يكن حاصلًا وقت
الطلب على سبيل التكليف والإلزام من جهة عليا آمرة إلى جهة دنيا مأمورة ،
وقد يخرج الأمر عن هذا الأصل فيفيد معاني كثيرة يرشد لإيها السياق وقرائن
الأحوال ، وأم هذه المعاني :

١ - الإباحة : وذلك عندما تستعمل صيغة الأمر في مقام يتوهم فيه
السامع حظر شيء عليه ، كقولك : جاس الحسن أو ابن سيرين ، فليس المراد
هنا طلب الفعل استعلاء ، ولكن لما كان السامع يتوهم عدم جواز الجمع بين
بجالتهم لما كان بينهما من سوء المزاج ، أباح المتكلم له بجالسة أيهما شاء
قال أمر - كما ترى - يفيد الإباحة ، حيث يبيح للسامع أن يجالس أحد العالمين
أو كليهما أو لا يجالس ، وليس ملزما له بفعل شيء . . ومن جميل ذلك قول
كثير غزوة :

أسيء بنا أو أحسنى لا ملومة

لديننا ولا مقلية إن تقلت (١)

أي : لا أنت ملومة ولا مقلية ، فكثير يبيح لحد أن تسييء إليه أو
تحسن ، فهو راض في الحالين غاية الرضا ، وصرف جمال هذا التعبير أي : التعبير
بصيغة الأمر في مقام الإباحة في هذا البيت أنه يكشف لنا عما أصاب الشاعر
من عشق وهيام ، فقد وصل به إلى منتهاه ، حتى صار يطلب منها الإساءة كما
يطلب الإحسان ، ويلج في ذلك إلحاسا ، وكان الإساءة أمر مطلوب مرغوب ،
فالإنسان عندما يصل به الحب إلى حد الإفراط يصير كل فعل يصدر عن

(١) القلي : البغض والكراهية وفي أوله : تقلت ، التفت ، وحذف للمفعول والأصل .

إن تقلبتنا فالتفت إلى الغائب وحذف للمفعول .

حبيبه لا يراه إلا جمالا ، وبهذا يتضح لك أن استعمال الشاعر لصيغة الأمر في مكان الإباحة يكشف عن مكنون نفسه ويبرز ما بداخله ، بأخصر طريق وأجمله ..

واستعمال الأمر في معنى الإباحة كثير في آي الذكر الحكيم ، من ذلك قوله تعالى : « وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَسْبَغَ أَكْكُمْ اَتَلْبِطُ الْاَيْضُ مِنْ اَتَلْبِطُ الْاَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ . . »^(١) فالمراد من الأمر في الآية الكريمة إباحة الأكل والشرب في ليالي رمضان حتى طلع الفجر ، وفي التعبير بصيغة الأمر مكان الإباحة حث على تناول السحور وكأنه أمر مطلوب مرغوب فيه . . . ومثله قوله تعالى : « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ . . . »^(٢) . . . ففيه حث على العمل وابتغاء الرزق .

٣ - التخيير : ويكون في مقام التخيير بين شيئين أو أشياء بحيث يختار منها السامع ، كما في قول بشار :

فعيش واحداً أوصل أخاك فإنه مقارف ذنب مرة ومجانبه

فهو يخير مخاطبه بين أمرين : العيش واحداً منعزلاً أو صلة الإخوان ومخاطبتهم مع التجاوز عما يكون منهم من إساءات ، فتلك لابد منها ، على حد قول الآخر :

ولست بمستبق أخا لاندله على شعث أي الرجال المهذب

هذا والفرق بين الإباحة والتخيير ، أن الإباحة إذن في الفعل وإذن في الترك فهي إذنان مما ، أما التخيير فهو إذن في أحدهما من غير تعيين ، ولذا فالتخيير لا يجوز الجمع بين الشيئين والإباحة تجوز

٣ - التهديد : ويكرن في مقام عدم الرضا بالمأمر به ، كما تسمع من الرئيس بقول لموسى : افعل ما بدا لك ، أو من السيد بقول لعبده : دم على عصيانك فالعصا أمامك ، فليس المراد من الأمر في الموضعين الامتثال ، أى : فعل ما أمر به ، وليكن المراد هو التهديد والوعيد ، وكان الرئيس والسيد يطلبان من المردوس والعبد أن ينالفاهما وذلك لرغبتهما القوية في إنزال العقوبة بالمردوس والعبد ، فإذا ما كانت المخالفة كان العقاب مرا والإيذاء شديداً . . وتأمل قوله تعالى : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَّصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ »^(١) ، فقد أخبر الله عز وجل عنهم أنهم أشركوا به وجعلوا له أنداداً ليضلوا عن سبيله ثم جاء الوعيد والتهديد : « تَمَتَّعُوا فَإِن مَّصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ » ، فليس المراد بالأمر في الآية : « الامتثال » ، وكان الله تبارك وتعالى لما ارتكب هؤلاء ما لا يغفر وهو الشرك ، أراد لهم أن يقوى طغيانهم ويشتد إعراضهم ويزدادوا تمعنا بشهواتهم ، فإذا ما هم لهم ذلك كان عقابهم أشد وأقوى ، فليس الأمر مراداً - كما ترى - بل المراد هو الزجر والوعيد حتى يقاع هؤلاء عمائم فيه من فتاد ومكابرة ، وتدبر الالتفات من الغيبة في قوله : « جعلوا . . . ليضلوا . . » ، إلى الخطاب في قوله « تَمَتَّعُوا فَإِن مَّصِيرَكُمْ . . » فهو الالتفات للغاض المتوعد . . . وخذ قوله تعالى : « يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُوا مِنِّي إِنَّ اللَّهَ يَخْرِجُ مَا يُخْذَرُونَ »^(٢) فقد أمر المنافقون بالاستهزاء لا ليمثلوا بل ليزدادوا تفاقاً على نفاقهم فيكون عقابهم أشد وأقوى ، وفي هذا من الزجر والتوعد والتهديد ما فيه ، وتجد الالتفات هنا من الغيبة إلى الخطاب ، كما في الآية السابقة يفيد شدة الوعيد وقوة الزجر . . . ومثله قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يُخَفُونَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُبَاتِي فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ

يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» (١) . .
 فليس المراد بالأمر : « اعملوا ، أن يمتثلوا فيعملوا ما يشاءون بل المراد
 الزجر والتهديد حتى يقلعوا عن الإلحاد ويكفوا عن العناد وكان الله سبحانه
 وتعالى - لشدة غضبه عليهم - يأمرهم بما يوجب عقابهم لئلا يكل بهم أشد
 تنكيل ، وهذا هو سر بلاغة التعمير بالأمر في مقام الوعيد والتهديد . .
 وخذ قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا لم تستحى فاصنع ما شئت » ثم قارن بينه
 وبين قوله عليه الصلاة والسلام : « لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اصدعوا
 ما شئتم فإنني قد غفرت لكم » . . تجد أن الأمر في الحديث الأول يفيد التهديد
 والتوعد بدليل قوله : « إذا لم تستحى » ، وفي الثاني يفيد التبشير وكالرضا
 عنهم ، فالحق سبحانه وتعالى قد أقبل لإيهم « اطلع » ، وفي هذا من التشريف
 والتكريم لهم مالا يخفى ، وقد أنعم عليهم بالرحمة والغفران ، إني قد غفرت
 لكم ، وبهذا يتضح لك ما للسياق وقرائن أحواله فهو الذي يحدد المعنى الذي
 يفيد أسلوب الأمر ، وعادة إلى الآيات السابقة فتأمل سياقها وأمن فيه النظر ،
 وعندئذ فسيتضح لك أن أسلوب الأمر لم يفد ما أفاده إلا بمعونة السياق
 ومعرفة قرائن الأحوال في الآيات السكرية . .

٤ - التعمير : ويكون في مقام إظهار عجز من يدعى قدرته على فعل
 أمر ما وليس في وسعه ذلك ، كما في قوله تعالى : « وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا
 نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ » (٢) فليس المراد الأمر في الآية
 السكرية التكليف والإلزام بالإتيان بسورة من مثله ، وإنما المراد إظهار عجزهم
 عن الإتيان ، لأنهم إن حاولوا ذلك الإتيان بعد سماع صيغة الأمر ولم يمكنهم
 بدا عجزهم وظهر . .

وسر بلاغة التعبير بالأمر في مقام التمجيز إبراز قوة التحدى والتسجيل عليهم ليعتظروا ويقنعوا عما هم فيه من عناد ومكابرة . .

ومثله قوله تعالى : « وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »^(١) وقوله عز وجل : « الَّذِينَ قَالُوا لِلْأَخْوَانِ هُمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُوا مَا قَتَلُوا قُلْ فَأَدْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »^(٢) ، وقوله تعالى « هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ »^(٣) ، ولا يخفى عليك ما في الآيات الكريمة من قوة التحدى والتسجيل على المخاطب ولإبراز عجزه ، وفي ذلك لفتهم إلى النظر في حالهم والتفكير فيما هم فيه من عناد ومكابرة وسوء تقدير . . . وتأمل قول المهمل مخاطبا آل بكر ، ومعلنا شدة غضبه لقتلهم أخاه كلبا .

يا لبكر أنشروا لي كلبا يا لبكر أين أين الفـرار

فهو يهددهم بالويل والشور ويطلب منهم إعادة كليب إلى الحياة ، وإعادة كليب إلى الحياة من المحال ، فالأمر في قوله : « أنشروا لي » ، للتمجيز وسر بلاغة التعبير بأسلوب الأمر في البيت : إشعارهم بأنه لا منجى لهم ولا مهرب ، وأنه آخذ بثأره منهم لا محالة . . . وخذ قول الآخر :

أروني بخيلا طال عمرا يبخله وهاتوا كريما مات من كثرة البذل
فالشاعر يتحدى المخاطبين أن يقفوه على بخيل قد امتد عمره وطال أسجل بسبب بخله ، وأن يبرزوا له كريما قد مات من كثرة البذل والعطاء ، ويشعر بما وراء ذلك من التنفير من البخل ، والحث على الكرم والعطاء ، فأسلوب الأمر في البيت ، أسلوب موح ومقنع ، يكشف أمر البخيل حتى يقطع البخل

(٢) - سورة آل عمران آية ١٦٨

(١) سورة البقرة الآية ١١١

(٣) - سورة لقمان الآية ١٦

عن بخلهم ويبرز فضل الكريم المعطاء فيزداد كرمًا وتطيب نفسه ربة تتعج
بسلامة منهجه وصحة مسلكه ..

ومثله قول الآخر :

أروني أمة بلغت منهاها بغير العلم أو حد الحسام

فغير خاف عليك ما وراء الأمر والتحدى من حث على طلب العلم ومكافحة
الاعداء حتى ترقى الأمة وتبلغ منهاها ..

• الإهانة والتحقير : وتكون في مقام عدم الاعتداد بالمخاطب وقلة
المبالاة به كما في قوله تعالى : « ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْكَرِيمُ »^(١) فالمكافر
لا يمكنه الذوق ؛ لأنه يعاني غصص العذاب وآلامه وعذابه وتلك حال لا يستطيع
فيها أن يذوق إلا الحميم والغسلين ، ولا يخفى عليك ما وراء أسلوب الأمر من
الإهانة والتحقير والتهكم والاستهزاء بهؤلاء الذين انحرفوا عن الحق وحادوا
عن المنهج القويم وتذبح تلك السخرية من قوله : « إِنَّكَ أَنْتَ الْكَرِيمُ »
الكرِيم ، ولا عزة ولا كرامة ، وإنما ذلة ومهانة .. ومثله قوله تعالى :
« بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ أَمَّهُمْ غُذَابًا أَلِيمًا »^(٢) فالأمر بالتبشير في الآية يحمل
معنى الإهانة والتحقير لهؤلاء المنافقين .. وتأمل قول الشاعر :

فدع الوعيد فما وعيدك ضايرى أطنين أجنحة الذباب يضير

فأمره بترك الوعيد يشعر بمدى الحقارة والاستهزاء بهذا الذي يتوعد
ويهدد وليس في إمكانه أن يحقق هذا الوعيد ، فوعيده طنين كطنين
أجنحة الذباب ، وأنى مثل هذا الوعيد أن يضير ، بل كيف يتوعد من
هذا شأنه .

٦ - التسوية : وتكون في مقام توهم رجحان أحد الأمرين على الآخر ، كما في قوله تعالى : « قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهًا إِنَّ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ » ^(١) أى : يستوى عدم القبول منكم ، سواء أكانت النفقة صادرة عن طوعية أو عن كراهية ، وذلك أنه سبحانه وتعالى قد علم من حالهم عدم الاهداء ، وربما يتوهم المخاطب أن الإنفاق طوعاً مقبول فدفع ذلك بالتسوية بينهما . . . ومثله قوله تعالى : « اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » ^(٢) . . . وقوله عز وجل « قُلْ آمِنُوا بِدِي أَوْ لَا تُؤْمِنُوا . . . » ^(٣) أى : يستوى الصبر وعدمه في عدم النفع وذلك دفعاً لما قد يتوهم من أن الصبر نافع للكفار في عذاب يوم القيامة .. وتشعر في الآية الثانية فضلاً عن التسوية بين الإيمان وعدمه بمعنى الاحتقار والازدراء وقلة المبالاة ، أى : آمنوا أو لا تؤمنوا فقد آمن به من هم أفضل منكم وأعظم ، ولذا استوى لإيمانكم وعدم إيمانكم ..

٧ - التنى : ويكون في مقام طلب الشيء المحبوب الذي لا قدرة للطالب عليه ولا طمع له في حصوله . . كما في قوله تعالى : « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ » ^(١) . فقد طالبوا الخروج من النار ولات حين خروج ، إنه محال ولا طمع لهم في حصوله ولكنه التنى . . وانظر إلى قول امرئ القيس :
ألا أيها الليل الطويل ألا اتحلى بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فالشاعر قد كثرت همومه وتكالبت عليه الشدائد حتى أصابه الأرق وهجره النوم ، فهو يتمنى أن يتجلى ذلك الليل ، وينأى بظلامه عنه حتى يستقبل الصباح وينعم بضياته ، ثم عاد على ذلك بالنقض فقال : وما الإصباح منك بأمثل ، فانت وهو سواء ، وإنما طالب انجلاء الليل مع هذا ، لأن في تغدير

(١) سورة التوبة آية ٥٣ . (٢) سورة الطور آية ١٦ .
(٣) سورة الإسراء آية ١٠٧ . (٤) سورة المؤمنون آية ١٠٧ .

الزمن راحة على كل حال . . وليس الغرض من صيغة الأمر ، انجلي ، طلب
الانجلاء من الليل ، لأن الليل ليس مما يخاطب ويؤمر ، وإنما يتمنى الشاعر
ذلك تخلصاً مما يعانيه . .

وتأمل قول أبي العلاء المعري :

فياموت زر إن الحياة ذميمة

ويا نفس جدى إن دهرك مازل

فالشاعر قد استعمل صيغة الأمر ، زر ، وأراد بذلك التمني ، لأن الموت
لا يقبل أن تطلب منه الزيارة ، ولكن أبا العلاء يرى أن الموت قد تأخر
تأخراً مملاً ، ولذا تمنى زيارته حتى يلبي تلك الزيارة فقد أصبحت الحياة جحماً
لا يطاق ، والشاعر يتمنى الموت تخلصاً مما يعانيه من قسوتها . . وهذا المعنى
تراه شائعاً على ألسنة الناس فهم يعلمون الموت عند حلول الشدائد والأزمات
وتكالب الأحزان ، وعدم قدرتهم على تحمل نوائب الدهر ومصائبه ،
فيتمنون الموت تخلصاً من تلك النوائب . .

٨ - الدعاء : وهو الطلب على سبيل التضرع والخضوع ، ويكون في
أسلوب الأمر إذا صدر من الأدنى إلى الأعلى منزلة . كما في قوله تعالى :
« رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا
قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي زَاجِراً مِنْ أَهْلِ مَكْرُونٍ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ
فِي أَمْرِي »^(١) . وقوله عز وجل : « رَبَّنَا إِنَّا تَمَنَّاهُ مُنَادِيًا بُنَادِي لِلْإِيمَانِ
أَنْ آمَنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا
مَعَ الْأَبْرَارِ »^(٢) . وقوله جل وملا : « رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ
أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . . »^(٣) فالأمر في

(٢) سورة آل عمران آية ١٩٣ .

(١) سورة طه آية ٢٥-٢٢

(٣) سورة البقرة آية ١٢٦ .

هذه الآيات الكريمة ونحوها، المراد منه التضرع إلى الله والتوجه إليه والدعاء له ، لأن الله جل وعلا لا يأمره أحد من خلقه ومن التعبير بأسلوب الأمر في مقام الدعاء في الآيات الكريمة هو إظهار كمال الخضوع لله عز وجل ، وبيان شدة الرغبة في تحقيق تلك الأفعال ، حتى كأنها أمور مطلوبة من الله جل وعلا . . . ونأمل قول المتنبي يخاطب سيف الدولة :

أزل حسد الحساد عنى بكبتهم فأت الذى صيرتهم لى حسدا

وقوله أيضاً :

أنا الخود أعط الناس ما أنت مالك

ولا تعطين الناس ما أنا قائل

تجد المتنبي يخاطب سيف الدولة بأسلوب الأمر : « أزل . . أعط . . » ، ولا يريد بالأمر حقيقة من الإلزام والتكليف ، لأن الأمير لا يأمره أحد من رعاياه ، وإنما أراد المتنبي التوسل والدعاء ، وإثارة أسلوب الأمر يدل على رغبته القوية في تحقيق ما يريد ، وكأنه أمر مطلوب من سيف الدولة . .

٩ - الالتئاس : ويكون عند خطاب من يسأرك في الرتبة والمنزلة ، والطلب منه على سبيل التلطف وبدون تضرع ولا استعلاء ، على نحو ما نرى في قول امرئ القيس :

قفا نيلك من ذكرى حبيب ومنزل

يسقط اللوى بين الدخول لمؤمل

فهو يخاطب صاحبيه ويطلب منهما الوقوف في هذا المكان العزيز على نفسه ، ليزرقا معه الدمع قضاء لحق هذه الذكرى الغالية ، وهو طلب صاحب من صاحبيه بأسلوب الأمر ، وإذا كان الأمر كذلك فإنه يراد بصيغة الأمر « الالتئاس » ، لا الإلزام والتكليف ، لأن خطاب النداء لا يراد به معنى الإلزام . . . ومثله قول كثير :

خليل هذا ربع عزة فاعقلا تلوصيكما ثم ابكيا حيث جلت (١)
فهم يطلب من خليليه أن يقفا معه ساعة في منزل فتاته د عزة ، وفاء لها
وقياما بحقه من البسكاه فيه ، خلوه من سا كنبه ..

والتعبير بصيغة الأمر في مقام الالتماس ، يوحى بمدى انفعال الشاعر
وسيطرة ذكرياته عليه حتى أنسته كل شيء ما عدا رغبته في تحقيق ذلك الأمر
من جميع الرفاق ، وكان البسكاه ليس مطلوباً منه وحده بل مطلوب منهم
جميعاً ، وأسلوب الأمر لا يكون حسناً ومقبولاً بين الرفاق إلا إذا كان بينهم
تواضع جم وحب شديد ولذا تلاحظ كثيراً يقول : خليل ، ، فهم اخليلاه
الاذان اصطفاهما وارتضى صحبتهما وألفهما .

١٠ - النصح والإرشاد : وقد يكون أسلوب الأمر للنصح والإرشاد
وذلك إذا تضمن نصيحة لم تكن على وجه الإلزام ، كما في قوله تعالى :
« يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفُوفِ وَأَنْتَ عَنْ الْمُعْصِرِ وَاصِرٌ عَلَى
مَا أَسَآبَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » (٢) ، وقوله عليه الصلاة والسلام -
لعلى كرم الله وجهه : « إن أردت أن تسبق الصديقين فصل من طعامك وأعط
من حرمك وأعف عن ظلمك ، ففي الآية الكريمة يوصى لقمان ابنه بتلك
القضائل وفي الحديث ينصح صلى الله عليه وسلم علياً رضي الله عنه أن يتحل بتلك
الخصال الحميدة ، ولا يقال إن الأمر هنا لاوجوب إذ المأمور به واجب ،
لأن المأمور به إنما يكون واجباً إذا وردت تلك الأوامر في مقام الأمر
والإلزام من الله عز وجل ، أما ورددها هنا على لسان لقمان في الآية وعلى
لسان المصطفى في الحديث ، فإن المقام يقتضى أن تكون للنصح والإرشاد ..
ومن هذا القبيل تلك الأوامر التي ترد على ألسنة الوعاظ والمرشدين
والموجهين ، فهم يريدون منها النصح والإرشاد ، وأن يعبروا عما يضررونه

(١) الربع : الحى أو الدار . والقوس : النافذة الشابة . وعقل البغير : فيده .

(٢) - سورة لقمان آية ١٧ .

من حب وإخلاص لاتباعهم ، وهذا هو سر التعبير بأسلوب الأمر في مقام الإرشاد والنصح .

١١ - الإكرام : كما في قوله تعالى : « أَدْخِلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ »^(١) ، فقد قالوا في معناه : إنهم لما صاروا في الجنات ، فإذا ما انتقلوا من بعضها إلى بعض يقال لهم عند الوصول إلى التي أرادوا الانتقال إليها : « ادخلوها » وأرى - والله أعلم - أن أسلوب الأمر في الآية مراد به ، الإكرام ، للؤمنين وهذا شائع بين الناس ، فإنك تقول اضيفك وهو مستمر في الأكل والشرب كل واشرب ، وقد تقسم عليه أن يأكل ولا تقصد إلا زيادة إكرامه وأن تصور ما في حلجات نفسك من حبه له وسروره به .

١٢ - وقد يأتي الأمر لتصوير حال المتكلم والدلالة على ما هو فيه من الحيرة والتخبط ؛ كما في قوله تعالى : « وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ »^(٢) ، فأصحاب النار يعلمون يقيناً أن ما في الجنة محرم عليهم ، وليكنهم لفريط مأم فيه من هول وعذاب ، كأنهم قد فقدوا عقولهم فصاروا يطلبون مالا سبيل إلى تحقيقه .

ومثله قوله تعالى : « حَقِّ إِذَا جَاءَ أُحَدِّثُ الْمَوْتَ قَالَ : رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ... »^(٣) ، وقوله عز وجل : « قَالُوا : رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ »^(٤) ، وكان الكافر وقد حضره ملك الموت وأبصر زبانية العذاب أصابه الهول فصار يطلب مالا سبيل إلى تحقيقه ، ولا يدري ماذا يقول . وكذا في الآية الثانية ، كان الأشقياء لشدة مذاقوا من العذاب في جحيم أصبحوا في حيرة وتخبط فصاروا يطلبون ويتجنون مالا سبيل إلى تحقيقه ..

(١) سورة الحجر آية ٤٦ . (٢) سورة الأعراف آية ٥٠ .
(٣) سورة المؤمنون آية ١٠٠ . (٤) سورة المؤمنون آية ١٠٧ .

١٣ - وقد باتى الأمر الإثارة والإلهاب والتوبيج وذلك عندما بوجه إلى
 المأمور الواقع منه الفعل، والذي لا يتصور أن يكون منه خلافه، كما في قوله
 تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ » (١) . .
 وقوله عز وجل : « فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَبَيْنَ يَدَيْكَ مَتَكٌ وَلَا تَطْغَوْا لَبًا
 إِنَّمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرَةً » (٢) . . وقوله جل وعلا : « فَاقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا
 فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ الْإِنْسَانَ عَلَيْهَا » (٣) . . إلى غير ذلك من الآيات
 الكريمة التي بوجه فيها الأمر بما هو حاصل أو النهى عن غير الحاصل إلى
 الرسول صلى الله عليه وسلم فإن الغرض من الأمر أو النهى عندئذ هو الإثارة
 والتوبيج والإلهاب حتى يزداد المخاطب تمسكا بما هو عليه من الحق واليقين
 ويستمر ويدوم، ولذا قالوا: إن التعبير بالأمر في مثل هذه الآيات وكذا النهى،
 يفيدان طلب الدوام والاستمرار، أى: طلب دوام التقوى والاستقامة والابتعاد
 عن الكفار وعن الطغيان . . ونرى أن أسلوب الأمر والنهى الموجهين إلى
 الرسول - صلى الله عليه وسلم - في مثل هذه الآيات يفيدان بالإضافة لما سبق،
 الإشارة إلى بسط سلطان الربوبية وتفرداها بالأمر والنهى وأن البشرية
 في أسنى صورها وأعلى منازلها، وهى النبوة تؤمر وتنهى، وهذا تعميق للفرق
 بين الألوهية والنبوة، وهو ما حرص الإسلام على إبرازه وتقريره، حتى
 لا يتطرق إلى عقيدة الوجدانية عند هذه الأمة، ما تطرق إليها عند الأمم
 السابقة، فقد قالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالت اليهود عزير ابن الله،
 وهذا كان أسلوب الأمر أو النهى الموجه إلى النبي - عليه الصلاة والسلام -
 في مثل هذه الآيات : « اسْتَقِمْ - اتَّقِ اللَّهَ - لَا تَطْغَ - لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،

(٢) - سورة هود آية ١١٢

(١) - سورة الأحزاب آية ١

(٣) - سورة الروم آية ٣٠

مشير إلى أن محمداً وهو الذى ما خلق الله ولا ذراً ولا أبرأ نفساً أكرم عليه منه ، إنما هو بشريٌّ من وينهى ويحذر ويتوعد : « لَنْ أَشْرَكَكَ لَيْحَبْطَنَّ عَمَّاكَ » (١) ، « وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ » (٢) وبذا يظل الألوهية سلطانها القاهر المهيمن وتقف النبوة عند منزلتها السامية التى مهما سميت لا ترقى إلى مرتبة الألوهية (٣) . .

١٤ - وقد يأتى الأمر تصويراً للحدث وبياناً لكيفية وقوعه انقباضاً لقدرة الله تعالى ، كما فى قوله عز وجل : « ثُمَّ اسْقَوْنِي إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهًا قَالَتَا : أَتَيْنَا طَائِعِينَ » (٤) ، وقوله جل وعلا : « فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أُخْيَاهُمْ » (٥) ، وقوله : « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ » (٦) ، فالأمر فى الآيات الكريمة : « ائْتيا - موتوا - كن » ، يصور حال الحدث وسرعة وقوعه وانقياده لأمر الله تعالى . . وفى هذا من الدلالة على القدرة البالغة ما لا يخفى على صاحب الذوق الرفيع - ونأمل ما فى الآيات من أمر يعقبه استجابة سريعة ، ثم فارق بينه وبين أن تقول : فأولاهم الله ثم أحياهم . . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يكون . . فأمرهما الطاعة فأطاعنا . . فستجد أن تصوير الحدث وبيان كيفية وقوعه وانقياده الخاطف لقدرة الله عز وجل ، قد ولى وذهب ، فى هذه الأقوال . .

١٥ - وقد يأتى الأمر بالفعل مراداً به الحث على الاتصاف بصفة معينة ، كما فى قولك : مت وأنت كريم . . مت وأنت تقى - صل وأنت خاشع . . وأقرأ وأنت بمظفأنت . فى هذه الأقوال لا تريد بأمره بالموت ولا الصلاة ولا القراءة ،

(١) - سورة الزمر آية ٦٥ (٢) - سورة الحاقة الآيات ٤٤ - ٤٦ .

(٣) - انرجع إلى دلالات التراكيب ٢٧٠ (٤) - سورة فصلت آية ١١

(٥) - سورة البقرة آية ٢٤٣ (٦) - سورة يس آية ٨٢

وإنما يريد أن تحثه على تلك الصفات المذكورة وهي الكرم والتقوى والخشوع واليقظة ، وأن يحافظ ويستمر على الانصاف بها ، ويحرص على ذلك طوال حياته فهذا هو الأولى به واللائق بأمثاله من الكرماء الأتقياء . . . ومثل الأمر في ذلك أسلوب النهي تقول : لا تفعل إلا وأنت خاشع . . . لا تمت إلا وأنت كريم ، ومرادك من هذا النهي : أن تحثه على الخشوع والكرم ، لا نهيه عن الصلاة والموت . . . ومن ذلك قوله تعالى : « وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ وَسَبَّحْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ صَبْحًا » (١) ، فالمراد حثهم على التمسك بالإسلام وألا يكونوا على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا ، أى : حثهم على أن يستمروا طوال حياتهم متمسكين بالإسلام محافظين عليه فإذا ما جاءهم الموت - وهو لا يأتى إلا بغتة - ماتوا وهم مسلمون .

١٦ - وقد يرد الأمر ولا يراد به مأمور معين وإنما يراد به كل من يتأتى منه الخطاب ، كما في قوله - عليه الصلاة والسلام - : « بشر المشائين إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة » ، لا يريد - صلى الله عليه وسلم - مخاطبا معينا ، وإنما أراد عموم الأمر ، حتى كأن كل فرد من أفراد الأمة مبشر لحولاء ، وفي هذا تذكريم المشائين إلى المساجد وتنويه بشأنهم وبرضا الله تعالى عنهم وتجليه عليهم بالرحمة والغفران والنور التام . . . إلى غير ذلك من الأغراض والمعاني البلاغية التى يفيدها أسلوب الأمر ، فهى كثيرة يطول حصرها ، وما نريده الآن هو أن نتمف على وجه دلالة أسلوب الأمر على تلك المعانى . .

قال كثير من البلاغيين إن هذه المعانى التى يفيدها أسلوب الأمر معان مجازية بمعنى أن الأسلوب - انتقل من الدلالة على الأمر إلى إفادة تلك المعانى ، وكل مجاز لا بد فيه من علاقة بين المعنى الاصل والمعنى المجازى . . وقد خاض

البلاغيون وجدوا في التماس تلك العلاقات ، فالعلاقة بين الأمر والإباحة هي الإطلاق والتقييد ، لأن الأمر إذن مقيد ، والإباحة لمطلق الإذن ، فاستعمال الأمر في الإباحة بجاز مرسل .. ويجوز أن تكون العلاقة : التضاد ، لأن إباحة كل من الفعل والترك تضاد الإيجاب . . . والعلاقة بين الأمر والتهديد : شبه التضاد وبين الأمر والإهابة : اللزوم .. وهكذا (١) . .

وبعضهم يجعل استعمال الأمر في تلك المعاني من قبيل الكناية ، وبعضهم يجعله من قبيل مستبهمات الكلام . . . وكذا القول في المعاني البلاغية التي يفيدها أسلوب النهي أو أساليب الاستفهام الآتى بيانها . . . والذي نراه أن دلالة الأمر وكذا النهي والاستفهام على تلك المعاني من مستبهمات الكلام بمعنى أن السياق وقرائن الأحوال هي التي تعدد تلك المعاني المرادة ، وأنا لا داعي للخوض في التماس علاقات وأهمية بين تلك المعاني وبين أساليب الأمر والنهي والاستفهام ، لأنه على الرغم من وهن هذه العلاقات فإنه لا فائدة للدرس البلاغى وراءها ، فالأولى أن تصرف الهمم وأن توجه الأذهان إلى معرفة المزايا والأسرار الكامنة وراء استعمال الأساليب الإنشائية في الدلالة على هذه المعاني ، والوقوف عليها من خلال سياقات الكلام ومعرفة قرائن أحواله ، لا أن تبدد في اللامث وراء التقاط علاقات لا تنمى ذوقا ولا تفيد شيئا . . قائل قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يُبْغِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ بَأْتَى آمَنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ) (١) وقوله صلى الله عليه وسلم : وإذا لم تستحي فاصنع ما شئت ، وقوله عليه الصلاة والسلام : د لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فإنى قد غفرت لكم ، نجد أن أسلوب الأمر واحد ، اعملوا ما شئتم -

(١) ارجع إلى هذه العلاقات في شروح التلخيص ج ٢ ص ٣١٣ وما بعدها .

(٢) سورة صافات آية ٤٠

اصنع ما شئت، وعلى الرغم من ذلك اختلفت دلالاته، وهذا الاختلاف مردد إلى السياق ووقوفنا على مرعى الكلام ومعنى الحديث، فالآية تتحدث عن الكفرة الذين ياحدون في آيات الله وتبين أنهم لا يخفون عليه تعالى، فهو عليهم ومصيرهم إلى النار، فليعملوا ما شاءوا، الأمر كما ترى ينفى بالوعيد والتهديد الشديدين. وكذا الحديث الأول يتحدث عن الذي لا يستحي من الله تعالى، ف قوله صلى الله عليه وسلم في خطابه: اصنع ما شئت إنما هو وعيد وتهديد وزجر وتحذير... أما الحديث الثاني فإنه يتحدث عن هؤلاء الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه لإنهم أهل بدر، وقول الله لهم: اعملوا ما شئتم، إنما هو وعد ورضا وتعيم ورضوان... مثل هذا هو الذي ينبغي أن تسكرث الجهود لمعرفة والإحاطة به فهو الذي ينمى الأذواق ويصقل الأذهان ويقف الدارس على خبايا التراكيب وأسرارها، ومزاياها الجمالية... أما أن يشغل الدارس بمعرفة أن استعمال الأمر في مقام التهديد، مجاز مرسل علاقته ما بين الطلب والتهديد من شبه التضاد، إذ المسأورة إما واجب أو مندوب والمهدد عليه إما حرام أو مكروه، وأن شبه التضاد هو الذي جوز استعمال الطلب مكان التوعيد والتهديد استعمالا مجازيا. فهذا ما أرى أنه لا فائدة من معرفته ولا ثمرة من الوقوف عليه، ولذا ينبغي أن يكون عن البلاغة بمنزلة... ومن أجل هذا فضلت القول بأن دلالة أساليب الإنشاء على معانيها البلاغية من مستقبات التراكيب، وأن الواجب على الدارس أن يجد في تذوق تلك المستقبات التي هي سياق الكلام وقرائن أحواله وأن يتف على أسرارها ودقائقها، ومن خلال ذلك يصل إلى المعاني البلاغية التي تفيد بها تلك الأسباب...

أسلوب النهي: هو كل أسلوب يطالب به التكف عن الفعل على جهة الاستعلاء والإلزام، فيكون من جهة علمية ناهية إلى جهة دنيا منهيّة، وله صيغة واحدة وهي المضارع المقرون بلا الناهية كقولك: لا تصاحب الأشرار لا تفعل السوء، لا تكف عن البذل والعطاء، ومنه قوله تعالى:

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَقِىَ تَحْنُ تَوَزُّؤُهُمْ وَلِمَّا كُمْ)^(١) .
 وقوله عز وجل : « وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ... »^(٢) .
 وقوله عز من قائل : « تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ... »^(٣) .
 فقد أفاد النهى في الآيات السكريمة طالب السكف عن قتل الأولاد وعن الإفساد
 في الأرض ومن اقتراب حدود الله ، وصيغته كما ترى هي المضارع المقرون
 « بلا ، الناهية .. »

المعاني البلاغية التي يفيدها أسلوب النهى : والذي تهتم به الدراسات
 البلاغية ليس هو طلب السكف عن الفعل وهو المعنى الأصلي لتلك الصيغة ،
 وإنما تهتم بما وراء ذلك من معان بلاغية يفيدها أسلوب النهى . وأهم
 هذه المعاني :

١ - الدعاء : وذلك عندما تكون تلك الصيغة صادرة من الأدنى إلى الأعلى ،
 كما في قوله تعالى : « رَبَّنَا لَا تَأْخِذْنَا إِنْ سَيِّئْنَا أَوْ أخطأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ
 عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ
 لَنَا بِهِ ... »^(٤) ، فاللما مقام ضراعة وخضوع ، والمؤمنون يهتمون إلى الله
 تعالى بهذا الأسلوب على سبيل التضرع والتذلل ، فالماقصود منه الدعاء
 والابتهال ... وسر التعبير بصيغة النهى في مقام « الدعاء » في الآية السكريمة ،
 هو بيان رغبة هؤلاء المؤمنين في أن يتجلى الله عليهم بالرحمة والغفران وإظهار
 كمال ضراعتهم وتذللهم إلى الله جل وعلا ... ومنه قوله تعالى : « رَبَّنَا لَا تُزِغْ
 قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ... »^(٥) ، وقوله تعالى : « رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا » .

(٢) سورة الأعراف آية ٥٦ .

(٤) سورة البقرة آية ٢٨٦ .

(١) سورة الإسراء آية ٣١ .

(٣) سورة البقرة آية ١٨٧ .

(٥) سورة آل عمران آية ٨ .

كَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . . .» (١) ، إلى غير ذلك من الآيات التي يتضرع فيها المؤمن إلى الله عز وجل داعياً وراجياً بهذا الأسلوب الذي يصور صدق رغبته وشدة حرصه على أن يحقق الله له دعاه ويجيب طلبه . .

٢ - الالتئاس : وذلك إذا كان النهمى من المساوى والنند بدون استعلاء ولا خضوع وتذلل ، كيقولك لتظايرك : لا تفعل هذا ، ومنه قوله تعالى : على لسان هارون يخاطب أخاه موسى - عليهما السلام - : « قَالَ : يَا ابْنَ أُمِّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ : فَرَّقْتُ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي » (٢) فالنهمى في قوله : « لا تأخذ » المراد به : الالتئاس ، لأنه ليس فيه استعلاء وإلزام ، ولا تذلل وخضوع . حيث وجه من هارون إلى موسى وهما متساويان في الرتبة والمهولة فهو يلتمس منه بهذا النهمى ، عدم إزال العقوبة به ، فقد خشي أن يخرج عليهم أن يتفرقوا ، وفي إشار التعبير بنسبته إلى الام ، يا ابن أم ، على الرغم من كونه أخاه لا يمه وأمه : استعطاف لموسى وترقيق لقلبه ، والسر البلاغى وراء التعبير بصيغة النهمى في مقام الالتئاس ، في الآية الكريمة ، هو إظهار حرص هارون على ترقيق قلب أخيه ، ورغبته القوية الأصيلة في العفو والتسامح فقد كان له عنده . ومنه قول المتنبي في سيف الدولة :

فلا تبلغاه ما أقول فإنه شجاع متى يذكر له الطعن يشتق

فهو يلتمس من صاحبيه أن يكنهما عن سيف الدولة ما يقوله في وصف شجاعته وحسن بلائه في الحروب ، وقد عبر بأسلوب النهمى في هذا المقام ، مقام الالتئاس ، إظهاراً لشدة حرصه على كنهان هذا الأمر عن سيف الدولة ، وفي ذلك ما فيه من تهويل وتنفخ لشجاعته وقوة فتكه بأعدائه . . ومنه قول الآخر :

خليل من بين الاخلاء . لا تكن حبالجا أنشودة من حباليا (١)

فهو يلتصق من خليليه الأثيرين عنده المحبين إلى نفسه ألا تكون مودتهما
وصلتهما حقيقة واهية . وقد عبر بأسلوب النهمى إبرازاً لشدة رغبته في أن يتحقق
له ما يريد من قوة الصلة ودوام المودة وتلاحم الروابط بينه وبينهما .

٣- النصيح والإرشاد : كما في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ » (٢) ، فليس المراد بالنهمى عن
السؤال في الآية الكريمة : الإلزام وطالب التكف . وإنما أريد به النصيح
والإرشاد ، وقد جاء بصيغة النهمى رغبة في الاستجابة والامتثال . .
ومنه قول أبي العلاء :

ولا تجلس إلى أهل الدنايا وإن خلا بقى السفهاء تعدى (٣)

فهو ينصيح مخاطبه ويرشده إلى الابتعاد عن السفهاء وأهل الدنايا ، وقد
عبر بصيغة النهمى لبيان رغبته وحرصه على أن يمثل المخاطب ويستجيب
لنصحه وإرشاده . . .

٤- الحث على الفعل . . كما في قول الخنساء :

أعني جوردا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى

فهو يحث عينيها على البكاء وأن تجوردا بالدمع وتنهملا وألا تبخلأ به ،
فإنهما تبكيان لصخر الندى ، والتدمير بالامر والنهي في هذا المقام يظفر شدة
حزنها ورغبتها القوية في أن يتحقق ما ترده فتفيض عينها بالبكاء وفاء
لحق هذا المقام . . ومنه قول إسماعيل صبرى :

(١) أنشودة : واهية غير وثيقة المقد . .

(٢) سورة المائدة آية ١٠١ .

(٣) الدنايا : جمع دنية وهى الميب والنفيسة . والمراد بتعدى . تنتقل إلى

من يحالسه .

لا تقربوا النيل إن لم تعملوا عملاً فآؤه العذب لم يخلق لمكسلان

فهو ينهى المصريين عن الشرب من ماء النيل إذا لم يقدموا عملاً عظيمًا
يصبحون به جسد يرين أن يشربوا ماءه . والغرض من النهى هو الحث على
التقدم والتفاني في سبيل رفعة مصر .

ولإيضار التعبير بالنهى في مقام الحث في البيت ، يبرز حب الشاعر لمصر
وبصور عاطفته القوية نحو تقدمها ورفيعها، فهو يرى أنه لا يستحق الحياة من
لا يعمل لرفعة وطنه ويذل جهده لتقدمه وازدهاره .

٥ — التمنى : كما في قول الشاعر .

يا ليل حل يا نوم قل يا صبح فف لا تطلع

فهو يتعنى أن يستد الليل ويطول والأطالع النهار وذلك حتى يطول
اجتماعه بحبيبته والتحدث إليها ، ووقوف الصبح وعدم طلوعه من المحال ،
ولكن الشاعر لرغبته الشديدة في أن يطول الليل خيل إليه أن توقف الصبح
وعدم طلوعه أمر ممكن ، فأمره بالوقوف : وقف ، ونهاه عن الطلوع :
لا تطلع ، ومراده بهذا : التمنى ورغبته القوية في الاجتماع بحبيبته والتمتع
بحدوثها .

٦ — التحقير والإهانة : كما في قوله تعالى : « قَال : اخذوا فيها
وَلَا تُسْكَلُونِ .. »^(١) ، فالأمر والنهى في الآية الكريمة يحملان معنى الإهانة
والتحقير لهؤلاء الذين غلبت عليهم شقوتهم في الدنيا وكانوا أقومًا ضالين ،
ثم جاءوا يوم القيامة يتمنون الخروج من جهنم : « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ
عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ »^(٢) ، فكانت تلك الإهانة : اخذوا فيها
ولا تسكلمون .

(٢) سورة المؤمنون آية ١٠٧ .

(١) سورة المؤمنون آية ١٠٨ .

ومنه قول الخطيئة في هجاء الزبرقان بن بدر :
دع المسكارم لا ترحل لبعيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي
فالمراد بالامر : ددع واقعد ، والنهي : دلا ترحل ، تحقير المخاطب وإهانته
وإظهار أنه ليس أهلاً للكفاح من أجل المسكارم والمعالى ، فعلية أنت
يقعد وسيأتيه طعامه وكساؤه ممن يحسنون ويتصدقون عليه وعلى أمثاله .

٧ - التوبيخ : كما في قول أبي الأسود الدؤلي :
لاتنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم
فالمراد بأسلوب النهي : دلاتنه ، توبيخ من ينهى الناس عن الشر والسو
ولا ينتهى عنه . . ومثله قول الآخر :
لاتحسب المجد تماً أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبيرا
فالنهي في قوله : دلاتحسب ، المراد منه توبيخ من يتقاعد ويتكاسل
وهو يطمع في تحصيل المجد ، وفي نفس الوقت فيه حث على العمل والجهد لنيل
العلا وتحقيق المجد .

٨ - التهديد : كقول الرئيس مارءوسه : لانطع امرى . . . لانقلع ع
عنادك ، فهو لا يطلب منه ترك الامتناع لأوامره وإنما يهدده ويتوعده .
ومنه قوله تعالى : « وَآيُنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ
أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ . لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ
بِعَدْلِ إِيْمَانِكُمْ . . »^(١) فليس المراد نهيهم عن الاعتذار والتوبة وإنما
المراد التهديد والتحذير حتى يفعلوا عن غيرهم وعنادهم ويسلكوا مسلك الحق
والهدى .

٩ - التبتيس : كما في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »^(١) فلا معنى لنهيهم عن الاعتذار في ذلك اليوم وإنما هو التبتيس ، وإسلامهم أنه ان يقبل منهم وإن يلتفت إليهم ، فليس أمامهم إلا الجزاء على كفرهم وضلالهم .. ومنه قول المتنبي في مدح سيف الدولة :

لا تطلبن كبريما بعد رؤيته إن الكرام بأسخام بداختموا
فقد أراد بالنهاي : لا تطلن ، تبتيس المخاطب من أن يصل إلى كريم بعد أن رأى سيف الدولة ونال كرمه ، فسيف الدولة أكرم الكرام وأسخر الأسخياء وقد ختم به الكرام ، ومهما حاول المخاطب أن يثر على كريم مثله فلن يفلح ، وفي هذا من المبالغة في كرم سيف الدولة وكثرة عطائه ما ترى .

١٠ - التفظيع والتهويل : كقولك : لا تسأل عن فلان وقال الله شر ما أصيب به ... تريد أن فلاقا هذا قد ألمت به الشدائد وأحاطت به المصائب التي لا توصف لشدتها وهرطها وفضاعتها ، فليس المراد بأسلوب النهي : لا تسأل ، طلب الكف عن السؤال عنه ، وإنما أريد به التهويل وتفظيع ما ألم به ، كان المتكلم لا يستطيع وصفه ، أو كان المخاطب لا يطيق سماعه أو كان المتحدث مشفق على مخاطبه فلا يريد إساءته بإسماعه تلك الأحوال .. ومنه قوله تعالى : « وَلَا تَسْأَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ »^(٢) ، في قراءة من قرأ بالنهي وجزم المضارع ، أي : لا تسأل عن فرط ما هم فيه من العذاب وما آل إليه أروهم من النكال ، فإنه لا يستطيع أحد أن يصف لك هول ما هم فيه ، أو لا يستطيع أنت سماعه لفظاعته وشناعته .. وقد يكون التهويل في النعيم والخير ، كأن تقول : لا تسأل عن فلان ، وتريد فلاناً الذي حل به من الخير والنعيم ما لا يوصف لكثرة وفرفته ..

(١) سورة التحريم آية ٧ . (٢) سورة البقرة آية ١١٩ .

١١ - وقد ينهى عن الفعل مقيداً بقيد أو موصوفاً بوصف ، ولا يكون الغرض : النهى عن الفعل في هذه الحال بل النهى عن الفعل مطلقاً ، ويكون القيد أو الوصف عندئذ للبالغة في التنفير والتحذير كقولك : لا تضيع دينك بكسرة خبز . . لا تضيع حق جارك الصالح ، لا تريد النهى عن ضياع الدين في هذه الحال ، أو عن ضياع حقوق الجار الصالح فقط ، وكأنك تبيح له أن يضيع دينه إذا غلا ثمنه ، وأن يضيع حقوق جاره غير الصالح ، وإنما تريد حذره على التمسك بدينه وحفظه حقوق جاره مطلقاً ، وقد قيدت التضضيع بكسرة الخبز ووصفت الجار بالصالح ، لأن في ذلك مزيداً من التنفير والتقبيح ، والمخاطب عندئذ يكون أكثر استجابة وأسرع انقياداً . . ومن ذلك قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ مَضَاعَةً »^(١) ؛ وقوله عز وجل : « وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتَلِيَ عَلَيْهِنَّ الْخِلَافَ الدُّنْيَا . . »^(٢) ، وقوله جل وعلا : « وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَالِيفَتِ بِالْأَطْيَبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا . . »^(٣) ، وقوله عز من قائل : « فَإِنْ آتَيْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا . . »^(٤) ، فالأفعال المنهى عنها في الآيات المذكورة قيدت بقيود بقيود من شأنها أن تبعث على التنفير وأن تبرز فظاعة تلك الأفعال وشناعتها ، وليس المراد النهى عن الأفعال المذكورة في الحال التي قيدت بها

(١) سورة آل عمران الآية ١٢٠

(٢) سورة النور الآية ٣٣

(٣) سورة النساء آية ٢

(٤) سورة النساء آية ٦

فقط دون ماعداها وإنما المراد النهى المطلق ، وقد جرى بالقيد للتبشيع والتنفير كما قلت . . انظر إلى آية النهى عن الزنا ، تحد هذا النهى قد قيد بكونه أمضاعاً مضاعفة والمراد النهى عن كل الربا مضاعفاً وغير مضاعف ، ولكنه جرى بهذا القيد تبشيعاً للصورة وتنفيراً للنفوس . . وتأمل آية النهى عن البغاء ، وانظر كيف اختير الإكراه لينهى عنه : لا تذكرهوا ، والمراد هو النهى عن البغاء سواء أكان عن طريق إكراه الفتيات أو إقبالهن طواعية ، ثم جرى بهذا القيد : وإن أردن تحصننا ، والفتاة لا تذكره على البغاء إلا إن أرادت التحصن والتعفف ، وكان القيد تأكيداً لإكراه المنهى عنه ، وفي هذا مزيد من التقطيع والتنفير ، وتصوير الصورة في أبشع صورها . فتاة تعففت وتحصنت وسيد يكرهها على البغاء على الرغم من عفافها وتحصنها ، تلك هي الصورة المنهى عنها ، وهي صورة تستبشعها النفوس وتستفظعها وتنفر منها ، والمراد - كما قلت - هو النهى عن البغاء مطلقاً . .

وتأمل الآيات التي تنازلت تحريم أموال اليتامى في القرآن تجد أن هذا التحريم قد قيد بالآكل : لا تأكلوا ، ولا يعنى ذلك أنه يجوز الاستيلاء على مال اليتيم واستخدامه في غير الآكل كالملبس والمشرب والمسكن ونحو ذلك ، وإنما المراد النهى عن الاعتداء على أموال اليتامى بأي وجه من وجوه الاعتداء ، ولكن لما كان العربي يتذمم بملء البطن وكثرة الآكل وبعد ذلك من البهيمية ، فقد أوتر التعبير بالآكل تفضيلاً وتنفيراً ، وهكذا نجد الآيات التي تناولت تحريم الاعتداء على أموال الغير . . انظر : لا تأكلوا الربا ، . . لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، . . لا تأكلوا مال اليتيم ، . . فالتعبير بالآكل فيها يفيد التفضيل والتنفير ، والمراد هو النهى عن الاعتداء على أموال الغير بأي وجه من الوجوه . . وعد إلى آيتي أموال اليتامى المدكورتين : لا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ولا تأكلوها إسراراً ويهداراً أن يكبروا . . تجد أن هذين القيدين : إلى أموالكم ، و إسراراً ويهداراً

أن يكبروا ، قد جبه بهما لزيادة التنفير وإبراز الصورة - صورة الاعتداء على مال اليتيم - في أبشع الصور وأفظعها ، فهذا غنى يضم أموال اليتامى إلى أمواله طمعاً وجشعاً وذلك يسرف ويبادر خشية أن يكبر اليتيم فيأخذ منه ماله... وما جاء على هذه الطريقة في أسلوب الأمر قوله تعالى : « وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا »^(١) ، فذو القربى ممن لا يرثون وكذا اليتامى والمساكين يعطون قدراً من الميراث على سبيل النذب وإرضاء النفس لا على سبيل الوجوب - وهذا مما تنهات به الناس ولم يلتفتوا إليه - وهذا القدر يعطى لتقريب غير الوارث وللمساكين واليتيم سواء أحضروا القسمة أم لم يحضروا ، وقد قيد الأمر - فآرزقوهم ، بحضور القسمة ليكون ذلك أبعد على الغطاء ، ودافعا أقوى لترضية ذوى القربى غير الوارثين واليتامى والمساكين وإسعادهم والقول لهم قولا معروفا...^(٢)

أباليب الاستفهام : الهمزة والسين والتاء إذا زيدت في الفعل الثلاثي ، أفادت معنى الطلب ، يقال : استزاد أى : طلب الزيادة ، واستغفر : طلب المغفرة واستفهم : طلب الفهم ، فالاستفهام يعنى طلب الفهم ، ولذا قالوا فى تعريفه : الاستفهام هو طلب العلم بشىء لم يكن معلوما من قبل بأدوات خاصة ... وهذه الأدوات هى : الهمزة وهل ومن وما وكيف ولم واين وأيان ومتى وأنى وأى .. وقد عرفت أن الجملة الخبرية التى تدخل عليها هذه الأدوات تتكون من أجزاء هى المسند والمسند إليه وأحد المتعلقات ، وبضم هذه الأجزاء إسناد بعضها إلى بعض تتكون الجملة التى تفيد حكما معينا بهذا الضم أو بذلك الإسناد . وعندما تدخل هذه الأدوات على الجملة الخبرية يكون الاستفهام بها عن أحد أمرين : إما عن النسبة أى : الإسناد أو الحكم المنفاد من الجملة

ويسمى ، تصديقا ، ولما عن أحد أجزاء الجملة ويسمى ، تصورا ، . .
فالتصديق هو إدراك النسبة بين الشئين ثبوتا أو نفيا . . والتصوير هو إدراك
أحد أجزاء الجملة ، المسند أو المسند إليه أو أحد المتعلقات . . وأدوات
الاستفهام بحسب المستفهم عنه ثلاثة أنواع :

١ - ما يطلب به التصور تارة والتصديق تارة أخرى ، وهو الهمزة
وحدها . .

٢ - ما يطلب به التصديق فقط ، وهو هل . .

٣ - ما يطلب به التصور فقط ، وهو بقية الأدوات . .

ولهذا كان لبناء جملة الاستفهام مع ، الهمزة وهل ، موابط واعتبارات
دقيقة ينبغي الوقوف عليها والإحاطة بها ، أما بقية الأدوات فلا يكونها لطلب
تصور أشياء محددة ، فإنهم لا يلتزمون في بناء الجملة معها شيئا زائدا عن
الضبط العام في النظام الإعرابي ووجوب تصدر هذه الأدوات . . .

ولذلك لبضاح بناء الجملة مع الهمزة وهل وبيان ما يسأل عنه ببقية
أدوات الاستفهام . .

الهمزة : ويطلب بها إما التصديق ، أى : إدراك النسبة الواقعة بين
الطرفين ثبوتا أو نفيا ، وذلك عندما يكون السائل عالما بأجزاء الإسناد ،
ويجهل الحكم أو مضمون الجملة : فهو يسأل ليقف على هذا الحكم . .
ولما التصور ، أى : إدراك أحد أجزاء الجملة عندما يكون السائل عالما
بالحكم ولكنه يجهل أحد أجزاء البناء . فإذا كانت الهمزة لطلب التصديق ،
كان جواب الاستفهام د نعم أو لا ، ، ولا يذكر معها معادل ، ويليهما غالبا
الفعل إن وجد . . تقول : أنجح خالد . . عمرو وشجاع ؟ إذا كنت تتصور
أجزاء الكلام : د نجح وخالد وعمرو وشجاع ، وتتصور النسبة بين أجزائه
أى بين نجح وخالد ، وبين عمرو وشجاع ولكذلك تجهل وقوع هذه النسبة ،

أواقعة هي وعققة أم غير واقعة ، ولذا يجاب سؤالك بنعم أو بلا ، أى بتحقيق هذه النسبة ووقوعها أو بعدم تحققها . . ومن ذلك قول الشاعر :

أأتراك إن قلت دراهم خالد زيارته ؟ لى إذا للثيم

فالجواب هنا بالنفى أى : دلا ، لن أتراك زيارته إن قل ماله ، لأن السؤال عن التصديق ، إذ المتكلم يعرف الفعل ويتصور الفاعل وهو المتكلم نفسه ويعلم المفعول وهو زيارة خالد . كما أنه يتصور النسبة بين تلك الأجزاء ، ولكنه يتساءل أتقع منه أم لا تقع . . فإن ذكر المعادل د أم ، بعد همزة التصديق هذه ، كانت أم منقطعة بمعنى بل وكانت بعدها همزة أخرى مقدرة ، كما فى قول الشاعر :

ولست أبالى بعد فقدي مالىكا

أموتى ناه أم هو الآن واقع

فالسؤال بالهمزة عن النسبة و د أم ، الإضراب عن الكلام السابق ، أى : عن هذا التساؤل ، وبعدها همزة مقدرة يسأل بها سؤال آخر والمعنى : أموتى ناه ؟ بل أهو الآن واقع ؟ . . . وإذا كانت الهمزة للتصور وجب أن يليها المستفهم عنه . . ويذكر المستفهم عنه - غالبا - معادل بعد دأم ، المتصلة وقد يستغنى عن ذكر المعادل إذا وجد ما يدل عليه . . ولا يكون جواب الاستفهام عندئذ بنعم أو بلا ، وإنما يكون بتعيين المستفهم عنه . . تقول فى السؤال عن المعادل : أحمد جاء أم عمرو ؟ فيكون الجواب : محمد أو عمرو أى بتعيين من جاء منهما ولا يقال عندئذ نعم أو دلا . وفى السؤال عن الفعل أجاه محمد أم خلف ؟ فيقال : جاء أو تخلف وعن المفعول : أعمراً ضربت أم زيداً ؟ فيجاب : عمراً أو زيداً وعن الظرف : أفى البيت زارك عمرو أم أم فى المدرسة ؟ فيجاب : فى البيت أو فى المدرسة . . . وتد يستغنى عن المعادل

إذا دل عليه دليل ، كما في قوله تعالى : « قَالُوا : أَأَنْتَ قَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ؟ » ^(١) فالسياق وقرائن الأحوال تدل على أن المسئول عنه هو الفاعل ، حيث أشاروا إلى الفعل هذا ، فهو معلوم لهم ، وهم يشاهدون الأصنام محطمة ويحملون الفاعل ، ولذا ولي الفاعل الهمزة « أَنْتَ » ، والمعنى : أَنْتَ فعلت هذا أم غيرك ؟ ، وقد أنجأهم - عليه السلام - معينا لهم الفاعل على سبيل التهمك : « بَلْ قَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ » ^(٢) .

وينبغي أن يراعى عند ذكر المعادل بعد « أم » ، المتصلة أن يكون موافقا لما بعد الهمزة وألا يتناقض معه ، على نحو ما ترى في الآيات الكريمة « يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ؟ » « أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّعْنِ عَمْدًا ؟ » ، « قُلْ أَنْتُمْ أَهْلُ أُمِّ اللَّهِ » ، « أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ بُنْعٍ » ، « لَيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ؟ » حيث تجد أن ما بعد « أم » ، مماثل لما بعد الهمزة . . ولذا كان من الخطأ أن تقول : أزيدا أكرمت أم أهنت . . أأكرمت زيدا أم عمرا . . أجاهك خالد أم علي . . لتناقض ما بعد الهمزة مع ما بعد « أم » ، المتصلة ، وهو ليس تناقضا في تركيب العبارة لحسب ، بل تناقض واضطراب في الإدراك والوعى ؛ إذ تقديم المفعول مثلا في قولك : أزيدا أكرمت ؟ ينفي . بأنك تجهل المفعول وتتصور الفعل وهو الكرم والفاعل وهو المخاطب ، فلو قلت بعد ذلك : « أم أهنت » ، أو قلت : « أم خالد » ، بالرفع تناقضت العبارة وتناقض فهمك واضطرب إدراكك لما تقول . . . عليك أن تعلم أن الفعل إذا حدد وعين كان الشك في الفاعل والجهل به كقولك : « أَنْتَ بنيت هذه الدار ؟ » ولا يصح قولك : « أبنييت هذه الدار ؟ » ، لأن تحديد الفعل وتعيينه بالإشارة إليه يجعله معلوماً ويجعل الشك في الفاعل ، وتقديم الفعل وإيلاء الهمزة ينفي ذلك

(١) سورة الأنبياء آية ٦٢ .

(٢) سورة الأنبياء آية ٦٣ .

(٨ - علم الثاني ج ٢)

ويجعل الشك في الفعل وهذا تدافع وتناقض ، فإذا أردت الاستفهام عن الفعل ينبغي عليك ألا تحده ، بل اتركه بلا تحديد كأن تقول : أبنيت الدار التي كنت على أن تبنيها . . . أقلت الشعر الذي عزمت على قوله ؟ . . . ولا يصح أن تسأل عن فاعل هذا الفعل غير المحدد فلا تقول : أأنت بنيت الدار التي كنت على أن تبنيها ؟ . . . أنت قلت الشعر الذي عزمت على أن بقوله ؟ . . . لأن تقديم الفاعل يدل على أن الفعل قد وقع والمطلوب معرفة فاعله ، وقولك : التي كنت على أن تبنيها . . . الذي كنت على أن تفعله ، يدل على أن الشك في الفعل . . . وهذا تناقض .

فالسؤال عن الفاعل يقتضي بالضرورة معرفة فعل محدد معين حتى يقال في الجواب : فعله فلان ، ، ولا يعقل أن يسأل عن فاعل فعل غير محدد ، فلا يقال : أنت أكلت طعاماً ؟ . . . أنت رأيت اليوم إنساناً ؟ . . . أنت قلت شعراً ؟ وإنما يسأل في مثل هذا عن الفعل فيقال : أأكلت طعاماً ؟ .. أرايت اليوم إنساناً ؟ . . . أقلت شعراً . . . ؟

هذا وقد ذكر سيبويه أن قولك : أزيد عندك أم سمرو ؟ أزيدا لقيت أم بشرا ؟ أفضل وأحسن . فإن قلت : أعندك زيد أم عمرو ، أقيت زيدا أم بشرا ؟ كان حسنا جائزا . . . وهذا الذي ذكره سيبويه يتناقض مع ما قاله البلاغيون ؛ لأنهم أوجبوا إيلاء المستفهم عنه الهمزة كما رأيت . . . وسيبويه يجوز تأخيرها ، بل يعمده حسنا . . .

ويمكن أن يجاب عن ذلك بأن ما أجازته سيبويه كان في مراحل سابقة اللغة فيها تنمو ، والتراكيب تتطور ، ثم إن الترقى في التراكيب الهادف إلى تخفية الصياغة قد تجاوز ذلك إلى الصورة المنضبطة التي قررها البلاغيون ورفضوا ماعداها بما أجازته سيبويه واستحسنه ، وإشارة سيبويه إلى أن هناك تراكيبين يفيدان هذا المعنى أحدهما أفضل من الآخر وأحسن ، توحى بصحة

هذه الإجابة (١) ..

وقد يكون السؤال بالهمزة عن الفعل وبلى الهمزة غيره لغرض بلاغى وهو المبالغة في الإنكار ، وتأكيده الردع والزجر ، وذلك عندما بلى الهمزة أو يعطف على ما وليها الفاعل أو المفعول أو الظرف الذى ليس للفعل غيره ، كقولك : أفى ليل وقع هذا أم فى نهار ، فأنت لا تسأل عن الظرف ، وإنما تذكر وقوع الفعل ، ولم بلى الفعل الهمزة كما ترى ، بل وليها وعطف على ما وليها الظرف الذى ليس للفعل ظرف سواء ، فإذا ما انتفى الظرف الذى لا ظرف يقع فيه الفعل غيره ، كان هذا أبلغ فى انتفاء الفعل ، وأشد إنكاراً وأقوى ردعاً لمن يدعى وقوعه .. ومن ذلك قوله تعالى : « قُلْ أَلَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَكْثَرُ أَعْيُنًا أَوْ أَبْصَارًا أَمْ أَكْثَرُ أَلْسِنًا أَوْ أَفْهَامًا » (٢) ، ومن ذلك قوله تعالى : « قُلْ أَلَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَكْثَرُ أَعْيُنًا أَوْ أَبْصَارًا أَمْ أَكْثَرُ أَلْسِنًا أَوْ أَفْهَامًا » (٣) ، ومن ذلك قوله تعالى : « قُلْ أَلَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَكْثَرُ أَعْيُنًا أَوْ أَبْصَارًا أَمْ أَكْثَرُ أَلْسِنًا أَوْ أَفْهَامًا » (٤) .

وقوله عز وجل : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ أَلَمْ يَأْتِ الْفُتَنَ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا : « (٥) :

فالمعنى هل لإنكار التحريم ، ود الإذن ، وقد رلى الهمزة غيرهما مبالغة فى الإنكار والزجر ، لأنه إذا انتفى المفعول الذى ليس للفعل مفعول غيره ، فى الآية الأولى ، والفاعل الذى ليس للفعل فاعل سواء فى الآية الثانية ، كان ذلك أبلغ فى انتفاء الفعل ، وأشد ردعاً وأقوى زجراً ، لمن ادعى وجوده وثبوته (٤) .

هل : - أما د هل ، فإنها لطلب التصديق لحسب ، تقول : هل قام زيد ؟ ، وهل عمرو ناجح ؟ ، فتسأل عن نسبة القيام للأول والنجاح للثانى ، ولذا

(١) ارجع الى دلالات الترا كيب ص ٢١٩ .

(٢) سورة الانعام آية ١٤٣ .

(٣) سورة يونس آية ٥٩ .

(٤) انظر دلالات الإعجاز ص ١٤٧ .

يكون جوابك: نعم أولا ، أى : بإفادتك ثبوت النسبة أو نفيها ... ولما كانت
د هل ، لطلب التصديق لحسب : فقد ترتب على ذلك ما يلي :

١ - امتناع أن يذكر بعدها معادل د بأم ، المتصلة ، فلا يقال: هل زيد
قائم أم عمرو ؟ ، لأن د هل ، تدل على أن مضمون الجملة ، هو النسبة غـير
معلومة وأن السؤال عنها ، ووقوع المفرد بعد د أم ، دليل على أن د أم ،
متصلة ، . وأم ، المتصلة تدل على أن مضمون الجملة معلوم وأن المطلوب هو
تعيين أحد الأمرين : المفرد الذى قبلها أو المفرد الذى بعدها ، والسؤال عن
ذلك إنما يكون بهمزة التصور : أزيد قائم أم عمرو ؟ فالجواب بين د هل ،
ود أم ، المتصلة فى مثال واحد يودى إلى التناقض . . ويصح اجتماع د هل ،
ود أم ، المنقطعة ، لأنها بمعنى بل ، فالكلام بعدها مستقل عما قبلها . .

ومن ذلك قول الشاعر :

ألا ليت شعرى هل تغيرت الرحا

رحا الحرب أم اضحت بفالج كما هي

د قام ، فى البيت منقطعة وقد ذكرت بعد د هل - كما ترى - والمعنى : هل
تغيرت الرحا : رحا الحرب ؟ بل اضحت بفالج كما هي ؟ ، فهما كلامان ..

فإن وردت د أم ، بعد د هل ، وكان بعد د أم ، المفرد ، وجب تأويله
بالجملة وجعل أم منقطعة للإضراب مع استفهام آخر مقدر ، من ذلك ما روى
أنه صلى الله عليه وسلم قال الجابر : د دل تزوجت بكرا أم ثيبا ؟ ، فالمعنى :
بل هل تزوجت ثيبا ؟ ، وإذا لوقبل فى المثال المذكور : هل قام زيد أم عمرو ؟
لأن المعنى : بل هل قام عمرو ؟ لجاز ذلك وصح . . .

٢ - يقيح استعمال د هل ، فى كل تركيب يتقدم فيه المسند إليه على الخبر
الفعلى أو المفعول على الفعل كقوله : هل زيد قام ؟ وهل زيدا أكرمت ؟
ووجه قبحه عند الجمهور ، أن التقديم فى هذين الحالين قد يكون للاختصاص ،

والاختصاص يقتضى وقوع النسبة والعلم بها ، وأن المراد هو السؤال عن الفاعل أو المفعول ، وهل لا يوقى بها لهذا ، بل هى للتصديق ، أى طلب العلم بالنسبة ، فإذا كانت النسبة معلومة ، عند دلالة التقديم على الاختصاص ، كانت هل لطلب جسرل الحاصل ، وهذا عيب .. وظاهر هذا الوجه المنع ولكنهم عدوه قبيحا لاحتمال أن يكون التقديم مجرد الاهتمام بالمقدم ، لا للتخصيص الذى يقتضى العلم بالنسبة ، أو لاحتمال تقدير فعل محذوف دل عليه المذكور فعلى الاحتمال الأول وهو جعل التقديم لمجرد الاهتمام بالمقدم يكون على خلاف الغالب ، إذ الغالب فى تقديم المفعول على الفعل أو المسند إليه على خبره الفعلى أن يكون للتخصيص ومخالفة الغالب قبيحة وعلى الاحتمال الثانى ، يكون الفعل الظاهر قد منع من العمل بلا شاغل عنه وذلك قبيح ... ورجح العلامة سعد الدين أن وجه عدم امتناعه هو الاحتمال الثانى دون الأول ، لأننا لو قلنا إن التقديم فى : هل زيد قام وهل زيدا أكرمت للاهتمام ، لم يكن هنالك وجه لعدوه قبيحا ، وإلا لزم أن يكون التقديم للاهتمام قبيحا مطلقا ولا قائل به (١) ..

وأما قولك : هل زيدا أكرمته ؟ فهو صحيح لا قبح فيه ، لأن الفعل هنا مشغول عن الاسم المنصوب بضميره ، والكلام على تقدير فعل محذوف هو الناصب لزيد ، ويكون هذا الفعل مقدما على المنصوب ، وبهذا تكون هل قد وليها الفعل ، فلا قبح ..

وبما يقبح دخول هل على المعرفة وبمدها فعل ، فإنه يقبح دخولها على النكرة المتلوة بفعل نحو : هل رجل سافر ؟ لنفس الأسباب المذكورة ... والقبح هنا فى تقديم النكرة باتفاق البلاغيين ، لأنه يفيد الاختصاص على مذهب المسكاكى ، إذ يرى أن الأصل : هل سافر رجل ، فرجل فاعل فى المعنى ،

إذ هو بدل من الضمير المستتر في سافر ، وقد قدم من تأخير ، أما قولك : هل زيد قام فالتقديم فيه لا يفيد الاختصاص على مذهب السكاكي ، لأنه ليس مقدما عن تأخير ، ولو تأخر لكان فاعلا في اللفظ لا في المعنى ، فلم يتوقف الشرطان اللذان ذكرهما لإفادة التقديم الاختصاص ، كما هو في التقديم المذكورة ، فكان يلزم ألا يكون تقديم المعرفة في : هل زيد سافر ، قبيحا على مذهب السكاكي حيث جعل علة القبح التقديم المفيد للاختصاص ، ولكن هذا التقديم قبيح بإجماع النحاة . . . فهل هناك تعليل آخر لهذا القبح المجمع عليه لا يرتبط بدلالة الاختصاص التي لم يقرها السكاكي ؟ نعم هناك تعليل آخر - وإن لم يذكره السكاكي - يرجع إلى طبيعة هل وأصلها ، لا إلى دلالة الاختصاص التي يحتملها التقديم ، فقد قالوا إن دهل ، في الأصل بمعنى قد ، وكانت ترد مسبوقة بالهمزة فيقال : أهل جاء زيد . . . ومن ذلك قول خنطام المجاشعي :

أهل عرفت الدار بالفرّيين لم يبق من آي بها يُحَلِّين^(١)

وقول الآخر :

سائل فوارس يربوع بشدتما أهل رأونا بسفح التاع ذى الأكم^(٢)

فلما طالت ملازمتها الهمزة تشربت منها معنى الاستفهام ، فسقطت الهمزة وبقيت هل دالة عليه ، ولما كانت قد لا تدخل إلا على الأفعال ، كانت كذلك دهل ، التي معناها . .

وعلى ذلك إذا وجد الفعل في التركيب ، وجب مراعاة معنى دهل ،

(١) الفرغان - بنامان طويلان هما قبر مالك وعقيل نديمي جذيمة الأبرش وسما بالعريين ، لأن النعمان بن النضر كان يربو ما بدم من يثقله يوم يؤسه . . انظر لسان العرب مادة : غراس ٣٢٥٠

(٢) الأكم : الموضع الذي يكرن أشد ارتقاها بما خوله . .

الأصلي في لزوم إيلائها الفعل ، وإن لم يوجد الفعل أصلا في التركيب ،
روعى في «هل» معنى الاستفهام الذي استمدته من الهذرة ، فجاز دخولها
على الاسم ، ولذا لا يقبح أن يقال : هل زيد قائم ؟ وإنما يقبح أو يمتنع نحو
قولك : هل زيد قام ؟ .. والفرق بين التركيبين ، أنها إذا رأيت الفعل في حيزها
تذكرت عموداً بالحى وحننت إلى الإلف المألوف وعانقته ولم ترضى بافتراق
الاسم بينهما . بخلاف ما إذا لم تره في حيزها فإنها تتسلى عنه ذاهلة (١) ..

هكذا ونجد أن ما قبله البلاغيون والتمسوا الحال المذكورة في بيان
وجه قبحه ، نجده برد في كلام أهل الفصح من الشعراء ، كما في قول
عائقة الفحل :

هل ما عدت وما استودعت مكتوم أم حبلها إذ نألك اليوم مصرور
أم هل كبير يسكى لم يقض عبرته إثر الاحبة يوم تبين مشكور

وقول ابن الرومى في رثاء ولده :

هل العين بعد السمع تسكى مكانه أم السمع بعد العين يهدى كما تهدي

بل نراه قد ورد في آى الذكر الحكيم في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ
اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ خَيْرٌ اللَّهُ يُرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ .. » (٢) ، ولهذا كان ينبغى ألا يصف البلاغيون تلك التراكيب
بالقبح ، بل الأولى أن يقال : إنها قليلة ونادرة ، فإنه إذا جاز أن يصف ما ندر
فروده على السنة البشر بالقبح والكدارة ، فلا يجوز أن تطلق ذلك على ما ورد
في القرآن الكريم . بل ينبغى الاحتراز وتنزيه أساليب القرآن الكريم عن
مثل هذه الأوصاف (٣) .

(١) أنظر للطول ص ٢٢٩

(٢) سورة فاطر آية ٣

(٣) ارجع إلى أساليب الاستفهام في القرآن ص ٧

ومن خصائصه ، هل ، أنها إذا دخلت على الفعل المضارع خلصته للاستقبال ، ولذا لا يجوز أن تقول : هل يقوم زيد الآن ، لأن في ذلك تدانعا في بناء الجملة ، إذ ، هل ، تمحضها للاستقبال والتقييد بلفظه الآن ، يجعلها للحال ، وكأنك تقول : هل يقوم بعد الآن ، ثم تقول : الآن ، وهذا تناقض واضطراب وكذا إذا دلت قرينة حالية على أن المضارع مراد به الحال ، كقولك : هل تسي إلى صاحبك ؟ إذا دل الحال على وقوع الإساءة ، ولهذا لا تقع هل موقع الهمة في مثل قوله تعالى : « أُنْزِلْ مُكُومَهَا وَأُنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ »^(١) ، وقوله عز وجل : « قَالَ : أَتَعْجِدُونَ مَا تَنْحِتُونَ .. »^(٢) ، وكل ما دل فعله على الحال . .

وهذا الذي قاله البلاغيون نراه منخرما ، إذ نجد في كثير من آيات الذكر الحكيم دخول هل على المضارع والقرائن تدل على أن المضارع أريد به الحال . . تأمل الآيات السبعة : « هَلْ تَنفِقُونَ مِمَّا إِيَّاكُمْ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ .. »^(٣) .. « وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ : هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا .. »^(٤) .. « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ .. »^(٥) .. « وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُخِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا .. »^(٦) « وَأَزَلَّ الْجَنَّةُ الْمُتَّقِينَ وَبُرُزَّتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ وَفِيلَ لَهُمْ : ابْنِ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ؟ فَكُتِبَ عَلَيْهَا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ .. »^(٧) .. « قُلْ تَرَى أَهْمَ مِنْ »

(٢) سورة الصافات آية ٩٥

(١) سورة هود آية ٢٨

(٤) سورة التوبة آية ١٢٧

(٣) سورة اللائدة آية ٥٩

(٦) سورة مريم آية ٩٨

(٥) سورة الرعد آية ١٦

(٧) سورة الشعراء آية ٩ - ٩٤

بأقبيّة ؟^(١) ، فبإمعان النظر في هذه الآيات الكريمة ، وغيرها كثير نجد أن المضارع بعد « هل » قد أريد به الحال ، ولم تتمحض دلالاته للاستقبال .. ولذا كان ينبغي ألا يبقى ذلك على القطع والإطلاق ، بل على الغالب والاحتمال فيقال مثلاً : إن « هل » إذا دخلت على الفعل المضارع فإنه - غالباً - يراد به الاستقبال ، وقد يراد به الحال ، أما القطع بأنها تتمحضه للاستقبال ، فهو مردود بنحو الآيات الكريمة التي أشرنا إليها^(٢) ..

وعما تقدم يتضح لك أن « هل » لها مزيد اختصاص بالافعال ، وأن ذلك يرجع إلى الأمور الآتية :

١ - أنها في الأصل بمعنى « قد » ، وقد لا تدخل إلا على الافعال ، فذلك ما هو بمعناها ..

٢ - تأثيرها في بعض أنواع الفعل وهو المضارع بتخليصه - غالباً - للاستقبال ..

٣ - اختصاصها بطائفة التصديق وهو إدراك النسبة ، وهذا بطبيعته يتوجه إلى المعاني لا إلى الأفراد ، أي : إلى الفعل دون الاسم ؛ لأن الحكم بالثبوت أو الانتفاء يتوجه إلى الحدث الذي هو جزء من مفهوم الفعل ، إذ الفعل حدث وزمن ..

ولكون « هل » لها مزيد اختصاص بالافعال ، فإنه لا يعدل عن الفعل إلى الاسم بعدها إلا لنتيئة بلاغية .. وهي أن يجعل ما يحدث ويتجدد الذي هو مفاد الجملة الفعلية ، أو يجعل ما سيوجد باعتبار « هل » ، تخلص المضارع في الغالب للاستقبال ، في معرض السكّن الحاصل الذي هو مفاد الجملة الاسمية ، اهتماماً بشأنه واعتناءً بأمره . وذلك بناء على قول البلاغيين : إن الجملة الفعلية

(١) سورة العنكبوت آية ٨٠ .

(٢) انظر أساليب الاستفهام في القرآن ص ٩٤

تفيد التجدد والحدوث، والجملة الاسمية تفيد الثبوت والدوام.. تأمل قوله تعالى :
 « وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ
 شَاكِرُونَ ؟ » ^(١) ، وقوله عز وجل : « قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ
 إِلَهُ وَاحِدٌ قَهْلَ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ » ^(٢) ؟ تجد أن قوله : « هل أنتم شاكرون »
 « هل أنتم مسلمون » أدل على طاب حصول الشكر والإسلام من قولك :
 « هل تشكرون ؟ » « هل تسلمون ؟ » أو « هل أنتم تشكرون ؟ » « هل أنتم تسلمون ؟ » وذلك
 لأن الجملة الاسمية تفيد التوكيد وتدل على معنى أوفى مما تدل عليه الجملة الفعلية ،
 ولأن إبراز ما يحدث ويتجدد في معرض الحاصل الثابت أقوى دلالة على
 الاهتمام بشأنه وكال العناية بحصوله من إبقائه على أصله .. وكذا من قولك :
 « أفأنتم شاكرون ؟ » « أفأنتم مسلمون ؟ » ، وإن كانت صيغته للثبوت - كما ترى - ،
 لأن « هل » نزاعة إلى الفعل وأدعى له من الهمزة ، فترك معها أدل على كمال
 العناية بحصوله وشدة الاهتمام بوقوعه ...

ولهذا قال البلاغيون : إن قولك : « هل زيد منطلق ؟ » أقوى دلالة على
 طلب حصول الانطلاق والاهتمام بوقوعه من أن تقول : « زيد منطلق ؟ » ..
 وقالوا : إن العدول عن الهمزة إلى « هل » ، في مثل هذا المثال ، لا يحسن إلا من
 من البليغ . لأنه هو الذي يلتفت إلى تلك الدقائق ويراعى هذه النكات
 البلاغية ويقدر على تطوير الكلام وتكليف العبارات وصياغتها على حسب
 ما يقتضيه المقام ..

ومن الفروق الدقيقة بين الهمزة و«هل» : أن الهمزة لا يستفهم بها حتى
 يهجن في النفس إثبات ما يستفهم عنه ، فأنت لا تقول : « جاء عمرو ؟ » إلا ولديك
 شعور قوى بمجيئه ، أما « هل » ، لا يترجح فيها الإثبات ولا النفي ، فعندما تقول : « هل »

جاء عمرو؟ لا يكون لديك ترجيح لمجئته أو عدم مجئته ، فالنسبة المطلوبة بالهمزة
بالهمزة يترجح فيها لدى السائل إثباتها ووقوعها ، ويكون عنده هذا جنس قزية
ترجح الإثبات على النفي ، أما النسبة المطلوبة بهل فلا يترجح فيها لإثبات
ولانفي^(١) .

وبقية أدوات الاستفهام للتصور لحسب ، فيسأل بها عن معانها ، ويكون
الجواب عنها بتعيين المستفهم عنه ، وإذا لا يلتزم في بناء الجمل معها سوى
الضبط العام في النظام الإعرابي لصياغة الجمل ، مع مراعاة تصدر تلك
الأدوات ، فليس وراء بناء الجمل مع تلك الأدوات دقائق ينبغي مراعاتها ،
كما هو الحال بالنسبة للهمزة ود هل ..

فن : يطلب بها تصور من يعقل أو من يعلم ، كقولك : من عندك ؟ من
فتح بلاد الأندلس ؟ فيقال في الجواب زيد والقائد البطل طارق بن زياد ..
ولك أن تقول في جواب الأول العالم الصادق .. وفي جواب الثاني : القائد
البطل الذي لا يخفى على أحد بطولاته وتفانيه في نشر دين الله .. أى أن
الجواب يكون إما بذكر الدات المستفهم عنها ، وإما بذكر الأوصاف الخاصة
بالمستفهم عنه ، المشخصه له ..

ومن ذلك قوله تعالى : « قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ؟ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى
كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى .. »^(٢) ، فقد أحاب موسى - عليه السلام - ببيان
الصفات الخاصة برب العزة المفرد بها سبحانه وتعالى .. وانظر في قوله عز وجل :
« قَالُوا : مَنْ قَدَرَهُ هَذَا بِأَهْلِنَا إِنَّا لَمِنَ الظَّالِمِينَ . قَالُوا : سَمِعْنَا فَتًى
يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ .. »^(٣) ، وقوله عز من قائل : « فَأَمَّا عَادَ
فَأَنكَرُوا فِي الْأَرْضِ بِبَنِي الْحَاقِّ وَقَالُوا : مَنْ أَشَدُّ مِحْنَةً ؟ أَوْ لَمْ

(١) ارجع إلى أساليب الاستفهام في القرآن ص ٨٩ .

(٢) سورة طه آية ٤٩ . ٥٠ . ٥١ . سورة الأسماء آية ٨٨ ، ٩٠ .

يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً . . »^(١) وواضح في الآيتين أن الجواب قد اشتمل على ذكر الذات للستفهم عنها . .

وما : يستفهم بها عن غير المعلاء ، فيطلب بها بيان الذات كقوله تعالى : « وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ؟ » قَالَ : هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأُشْفَى بِهَا عَلَى غَنِيِّي وَلِيَّ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى . . »^(٢) ، وقوله تعالى : « إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ : مَا تَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا : تَعْبُدُونَ أَصْنَامًا فَتَنَظَّلُ مِنْهَا عَاكِفِينَ »^(٣) .. كما يطلب بها بيان حقيقة المسمى وصفته كقولك : ما زيد ؟ فيجواب عالم أو طویل ومنه قوله عز وجل : « مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ؟ قَالُوا : وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَاكِفِينَ »^(٤) .

وقوله تعالى : « قَالَ فِرْعَوْنُ : وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ »^(٥) .

فالمراد بالاستفهام في الآيتين بيان حقيقة المسمى وصفته التي يعرف بها وقد جاء الجواب على خلاف ما يقتضى الاستفهام في الآية الأولى ، وعلى خلاف ما يريد السائل ويتوقع في الآية الثانية^(٦) ..

ويطلب بها أيضا لبضاح الاسم نحو : ما المسجد ؟ فيجواب : الذهب . . متى : ويستفهم بها عن الزمان ماضيا كان أو مستقبلا ، كقولك : متى حضرت ؟ ومتى تسافر ؟ ومنه قوله تعالى : « وَبَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »^(٧) .

-
- | | |
|---|----------------------------|
| (١) سورة فصلت آية ١٥ . | (٢) سورة طه آية ١٧ . |
| (٣) سورة الشعراء آية ٧٠ . | (٤) سورة الأنبياء آية ٥٢ . |
| (٥) سورة الشعراء الآيتان ٢٣ ، ٢٤ . | |
| (٦) إرجع إلى أساليب الاستفهام في القرآن ص ٣٠٩ . | |
| (٧) سورة يس آية ٤٨ . | |

أَيَّانَ : ويستفهم بها عن الزمان المستقبل وتستعمل في مواضع التفتيح والتحويل كقوله تعالى : « بَسَّالُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ »^(١)

أَيْنَ : ويسأل بها عن المكان ، كقوله تعالى : « فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ . وَخَسَفَ الْقَمَرُ . وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ . يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيَّنَ الْمَفْرَءُ ؟ »^(٢)

كَيْفَ : ويسأل بها عن الحال كما في قوله تعالى : « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّقُكُمْ .. »^(٣)

أَيَّ : وتكون بمعنى كيف كقوله تعالى : « قَالَ رَبِّ أُنِّى يَسْكُونُ لِي غَلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَأَمْرًا نَبِيَّ عَاقِرٌ »^(٤)

ومعنى من أين كقوله تعالى : « قَالَ : يَا مَرْيَمُ أَنْتِ لَكِ هَذَا »^(٥)

ومعنى متى كما في قوله تعالى : « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتِ شِثْتُمْ »^(٦) (فأنتى) فى الآية السكريمه محتمل المعانى الثلاثة ، أى : متى

شتم وكيف شتم ومن أين شتم ، على أن يكون الإتيان فى موضع الحرث ..

كم : ويستفهم بها عن العدد كقوله تعالى : « قَالَ قَاتِلْ مِنْهُمْ : كَمْ كَيْفَ تَقْتُلُونَ قَاتِلُوا : لَيْسَ لَكُمْ يَوْمَئِذٍ بَعْضُ يَوْمٍ .. »^(٧) ...

ومنه قول الفرزدق يهجو جريرا :

كم عمة لك يا جرير وخالة فدعاء قد حلبت على عشارى

فى رواية من نصب د عمة ، وخالة ، فدعاء : من الفدع وهو عوج

فى المفصل ، والعشار : مفردهما : عشار وهى الناقة النفساء أو التى مضى

لحلمها عشرة أشهر ..

- | | |
|------------------------------|------------------------------|
| (١) - سورة الداريات آية ١٢ . | (٢) - سورة القباة آية ١٠ . |
| (٣) - سورة البقرة آية ٢٨ . | (٤) - سورة آل عمران آية ٤٠ . |
| (٥) - سورة آل عمران آية ٣٧ . | (٦) - سورة البقرة آية ٢٢٢ . |
| (٧) - سورة السكهة آية ١٩ . | |

أى : وتستعمل في تمييز أجدالمشاركون في أمر يعمهما ، كما في قوله تعالى :
« أَيْ الْقَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مِّمَّا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا »^(١) .

ويسأل بها أيضا عن تمييز الزمان أو المكان أو الحال أو العدد ، وكذا عن
تمييز العاقل وغير العاقل ، فهي تمكنسب معنى ما تضاف إليه ، فتقول في السؤال
بها عن تمييز الزمان : في أى يوم عاد البطل ؟ وعن المكان : في أى مكان
نلتقى ؟ وعن الحال : على أى حال تركت أراك ؟ وعن العدد : إلى أى عدد
بلغت دراهمك ؟ وعن العاقل : أى الرجلين أكبر سنا ؟ وعن غير العاقل : أى
جراد امتطيت ؟ . .

تلك هى معاني أدوات الاستفهام وهى وإن كانت لا تخلو من فوائد
ودقائق واعتبارات بلاغية ، وبخاصة بناء الجمل مع الهمزة وهل ، إلا أن
جل اهتمام البلاغيين يتجه إلى المعاني البلاغية التى يفيدها أساليب الاستفهام ،
فتعالوا ننظر فى هذه المعاني البلاغية .

المعاني البلاغية للاستفهام : يفيد الاستفهام كثيرا من المعاني البلاغية ،
كالإنكار والتعجب والاستبعاد والتهديد والتمكيم والتحقيق ونحو ذلك ، وكثير
من البلاغيين وبخاصة المتأخرون منهم يطلقون على هذه المعاني : د المعاني
المجازية للاستفهام ، ونحن لا نوافقهم على هذه التسمية ولا نرتضى هذا
الإطلاق ولا نقر أن تلك المعاني معان مجازية ، وذلك للأسباب الآتية :

١ - أن المتقدمين من البلاغيين لم يتحدثوا عن وجه دلالة الاستفهام
على تلك المعاني ، وإنما بينوا أنها معان تستنبط من سياق الكلام والوقوف
على قرائن أحواله ، أما وجه الدلالة ، فقد شاع الحديث عنها بين المتأخرين
الذين تسكفوا وأسرفوا فى التقاط العلاقات بين المعنى الأصلى للاستفهام
والمعاني البلاغية التى يفيدها ، وقد أتعبوا أنفسهم وأنعبوا الدارسين معهم فى

محاولة الوصول إلى علاقات بين طلب الفهم وبين هذه المعاني دون أن يصلوا إلى شيء مقنع . . (١)

٢ — أن المعنى الأصلي للاستفهام وهو طلب الفهم من المخاطب وإثارته وتحريك ذهنه يظل باقيا عند إفاضة الاستفهام لتلك المعاني البلاغية ، ومزية أداء هذه المعاني بطريق الاستفهام على أداؤها بطريقة المجهود ، ترجع إلى بقاء معنى الاستفهام في تلك الأدوات ، ولذا يذكر القراء في كتابه دمعاني القرآن ، عند حديثه عن الآية الكريمة : « كَيْفُ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْْوَآَنًا فَأَحْيَاكُمْ » أن الاستفهام فيها قد دخله وشابه معنى التعجب فلم يعد استفهاما محضاً ، بل صار استفهاماً غير محض (٢) . . . وهذا دليل على أن معنى الاستفهام ظل باقيا عند إفاضة الأسلوب لمعنى التعجب . .

ويقول عبد القاهر بعد ذكره الجملة من المعاني البلاغية التي يفيدها الاستفهام : « واعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالإسكار ، فإن الذي هو محض المعنى أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعي بالجواب ، إما لأنه قد ادعى القدرة على فعل لا يقدر عليه ، فإذا ثبت على دعواه قيل له : « فافعل » ، فيفضحه ذلك ، وإما لأنه هم بأن يفعل ما لا يستصوب فعله ، فإذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ ، وإما لأنه جوز وجود أمر لا يوجد مثله ، فإذا ثبت على تجويزه وبنح على تمننته وقيل له : « فارتاه في موضع وفي حال وأقم شهادا على أنه كان في وقت ، ولو كان يكون للإسكار وكان المعنى فيه من بدء الأمر ، لكان ينبغي ألا يحى فيها لا يقول عاقل إنه يكون حتى ينكر عليه . كقولهم : أنصعد إلى السماء ؟ أنستطيع أن تنقل الجبال ؟ أ إلى رد ماضى سبيل ؟ ، وإذا قد عرفت ذلك فإنه لا يقرر بالمحال وبما لا يقول أحد إنه يكون إلا على سبيل التمثيل وعلى أن يقال له

(١) ارجع إلى البلاغة القرآنية في تفسير الكشاف ص ٣٠٢ .

(٢) ارجع إلى معاني القرآن ١/ ٢٣ .

لأنك في دعواك ما ادعيت بمنزلة من يدعى هذا المحال ، وإنك في طمعك في الذي طمعت فيه بمنزلة من يطمع في الممتنع . . . (١)

فهو يشير إلى أن الاستفهام عند إفادته لمعانيه البلاغية يظل باقيا فيه معنى التنبيه وإثارة ذهن المخاطب ولفته إلى موضع التعجب أو الإنكار أو التقرير ، حتى يتأمل ويتدبر ويعلم أنه لا جواب لهذا الاستفهام إلا بالإذعان للمعنى الذي يلفته إليه . . . كما في الأمثلة التي ضربها عبد القاهر . .

٣ - عندما ننظر بامعان إلى تلك المعاني البلاغية التي يفيدها الاستفهام لا نستطيع أن نقول: إن الأسلوب الاستفهامي يفيد معنى واحدا كالتعجب مثلا ، بل ترى عدة معان تنبعث من الأسلوب الاستفهامي . . تأمل الآية السابقة « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَتُؤْمِنُونَ فَأَخْيَاكُمْ ۝ ٤٠ » (٢) نجد أن الاستفهام بها يفيد إنكار الكفر والتعجب من وقوه والتوبيخ والاستبعاد والتوعد ، وغير ذلك من المعاني التي تنبعث من الأسلوب وتشع منه . . . فلو قلنا إن إفادة الاستفهام في الآية الكريمة لمعنى التعجب إفادة مجازية والتسنا علاقة بين طلب الفهم والتعجب ، فكيف أو فاذا نقول في إفادته لبقية المعاني التي أفادها ؟ . .

٤ - أن المتأخرين أنفسهم الذين قالوا بمجازية هذه المعاني وجدوا في التماس العلاقات لبيان وجه المجاز ، تراهم مترددين ، وكأنهم غير مقتنعين بما يقولون ، فهم يذكرون وجوها من الاحتمالات ، قد يكون أحدها أقرب من غيره أو أقل إغرابا منه ، فالعلاقة بين طلب الفهم ومعنى الاستبطاء مثلا في قوله تعالى : « مَتَى نَعْبُرُ اللَّهَ » (٣) هي اللزومية ، فهو مجاز مرسل علاقته اللزوم من استعمال الملزوم في اللازم ، لأن السؤال عن الشيء يستلزم الجهل به ،

(٢) سورة البقرة آية ٢٨ .

(١) دلائل الإعجاز ١٥١ .

(٣) سورة البقرة آية ٢١٤ .

والجمل به يستلزم كثرته عادة أو أدهاء ، وكثرته تستلزم بعد زمن الإجابة عن زمن السؤال والبعد يستلزم الاستبطاء . . . هكذا يبحرون في النقاط والناس تلك العلاقات . . . وليت وراء هذا الإبحار صيدا يشبع النفس ويمتتها وبري فيها ملكة التدوق ، إنه ليس وراءه إلا التعب وكد الذهن بلاقائدة مرجوة ولا ثمرة من تقية . ثم ترام إذا تجزوا عن الوصول إلى علاقة بين طالب الفهم والمعنى الذي هم بصدد الحديث عنه ، ترام يقولون : إن المعنى هنا يفاد عن طريق البكناية أو عن طريق مستتبعات التراكيب (١) .

فما كان أخرى بهؤلاء المتأخرين أن يلتزموا طريقة المتقدمين التي أشرنا إليها عند البغراء ، وأد القاهر ، وأن يدعوا بأن الاستفهام قد دخلته هذه المعاني وشابته وصار بإفادته لها استفهاما غير محض ، إذ تنبيهه وإيقاظ المخاطب وحشه على التأمل الذي هو لب الاستفهام ، لا يفارقه عند إفادة تلك المعاني . . . وهذا هو الذي نراه ندعو إليه . . . ندعو إلى تأمل هذه المعاني في سياقاتها الجيدة وتراكيبها الرفيعة ، والوصول إليها عن طريق تأمل السياق وإيمان النظر فيه ومعرفة قرائن أحواله ، وإيماءات تراكيبه . فهذا هو الذي يربي وينمي ملكة التدوق لدى الدارس . . . فتعالوا ننظر في هذه المعاني البلاغية التي يفيدها الاستفهام ونحاول أن ندركها ونقدرها من خلال السياق وما بنو به .

١ - معنى الاستبطاء : تأمل قوله تعالى : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ يَسْتَفْتُونَ الْبَنَاءَ وَالْغُرَّاءَ وَزُلُفُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ : قَتَى نَعْمُ اللَّهُ ؟ » (٢) الخطاب في الآية الكريمة للصحابة رضوان الله عليهم . والمعنى : أحسبتم أن تدخلوا الجنة بلا ابتلاء وتمحيص ، وقد جرت سنة الله تعالى أن يبتيلى عباده

(١) ارجع إن شئت إلى شروح التلخيص ٢/٢١١ والمطول ص ٢٢٥ .

(٢) - سورة البقرة آية ٢١٤ .

فقد ابتلى الأمم قبلكم ابتلاء شديدًا رمتهم البأساء والضراء حتى قال الرسول وهو أعلم الناس بالله وأوثقهم بنصره، وقال الذين آمنوا معه - لشدة ما حل بهم ونزل - : متى نصر الله ؟ فقد استطلوا مدة العذاب واستبطأوا مجيء النصر وسر التعبير بأسلوب الاستفهام في مقام الاستبطاء. هو إظهار المعاناة من طول الانتظار وجذب انتباه السامع ودعوته للمشاركة والنظر فيها نزل وحل .. ولا يخفى عليك ما للسياق في الآية الكريمة من إبراز وتصوير لحال هؤلاء القائلين وما حل بهم من ابتلاء وشدة جماعتهم يتطلعون إلى فرج الله ونصره الذي طال انتظارهم له .. ومن ذلك أن تقول وقد اشتد الحرج وأنت صائم . متى يؤذن لصلاة المغرب ؟ أنت لا تجهل موعد الأذان والإفطار ولكم تصور حالتكم وطول انتظاركم وترقبكم لهذا الوقت وتدعو المخاطب ليشاركك ما تعاني منه وتطلع إلى تفرجه ومثله قولك وقد طال انتظارك لقطار : متى يصل القطار ؟ وقولك لصاحبك ندعوه كثيرًا الحضور وهو يماطل ويتأخر ولا يجيب دعوتك : كم دعوتك ؟ فانت تستبطن إجابته وتحمسه على مراجعة نفسه ومعرفة تقصيره وخطئه ومنه قول المتنبي :

حتام نحن نسارى النجم في الظلم وما سراه على خوف ولا قدم

نسارى : من السرى وهو السير السري . بقول : إلى متى نسرى مع النجم في الليل ، وهو لا يسرى على خوف كالإبل ولا على أدم كالناس فهو لا يتمب مثلنا ومثل مطايانا ، فالمتنبي لا يسأل من الزمان ، ولكنه يستبطن مجيء هذا اليوم الذي يدخل فيه إلى هدفه ويحقق بغيته ومثله قول البهاء زهير :

أمر لاى إنى فى هـواك معذب وحتام أتقى فى العذاب وأمكت
فهو يستبطن ويتطلع إلى مجيء يوم الخلاص بما يعانيه . .

٢ - الاستبعاد : وقد يراد من الاستفهام معنى الاستبعاد وهو وعد الشيء بعيدا ، بالفرق بينه وبين الاستبطاء : أن الاستبعاد متعلقه غير متوقع ،

أما الاستبطاء فتمتلكه متوقع والمستفهم يتطلع إلى وقوعه وبعيدته ومن
الاستفهام الذى جاء مفيداً الاستبعاد قوله تعالى : « فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا
شَيْءٌ لَا عَجِيبُ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ »^(١) فالكفرة يستبعدون
البعث وينكرون وقوعه ، وقد عبروا عن هذا الاستبعاد بصيغة الاستفهام
التي طوى فيها البعث المستفهم عنه والتقدير : أبعث إذا كنا تراباً ؟ ذلك
رجع بعيد ، وكانهم يريدون أن يظل البعث هكذا سؤالاً مثاراً وتوجهاً مقاماً
يسأله كل كافر ويتمجب مزق وقوعه كل جاحد عنيد . . . ومنه قوله تعالى :
« أَنَأْنَى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ . ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا
مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ »^(٢) والمعنى : من أين لهم الذكر والاعتبار والرجوع إلى
الحق وقد جاءهم رسول بين لهم الحق فأعرضوا عنه وانهموه بالجنون ،
أريدون الآن أن يتذكروا وأن يكشف عنهم العذاب . . . لهيات هيات
لقد مضى وقت الذك والاعتبار . . . وفي ذلك إثارة لحزن الكفرة وتنبية
إلى ما هم فيه من غفلة وعناد ومكابرة وحث لهم على قبول الهدى والانصياع
للحق . . . ومن ذلك قول أبي تمام :

من لو يأنسان إذا أغضبتَهُ وجهتُ كان الحلمُ ردَّ جوابه

فهم يستبعد أن يوجد إنسان على هذا القدر من الحلم والصفح وقوة
الاحتمال . . . وتقول : لقد صرنا في زمن أغبر ، أكثر فيه الظلم واعتداء
القرى على الضعيف . صار الناس يظلم بعضهم بعضاً وبأكلون أموالهم بينهم
بالباطل . . . فمن يتق الله اليوم في اليتيم ؟ ومن يساعد المسكين ؟ ومن يعيد
الناس للانصياع إلى الحق المبين ؟ فانت تستبعد أن يوجد في هذا الزمان
الأغبر من يقوم بواجبه تجاه دينه وتجاه اليتامى والمساكين . . .

٣ - التحسر : ويرد الاستفهام مراداً به معنى التحسر والتألم وذلك

(٢) - سورة الدخان آية ١٣ ، ١٤ .

(١) - سورة ق آية ٢ ، ٣٠ .

في مقام يظهر فيه المستفهم حزنه وتألمه وتحسره على ما فاتته . .
تأمل قول حافظ إبراهيم في وصف حريق :

سائلوا الليل عنهم والنهارا كيف باتت نساؤهم والعذارى ؟

فهو يتجسس ويتفجّع لهؤلاء المنكوبين الذين ساءت أحوالهم وأتى الحريق على ما يملكون من متاع وماوى فباتوا هم وأهلهم في العراء ، وقد لجأ الشاعر إلى أسلوب الاستفهام ليلمب الناس ويشير حميتهم لمساعدته المصاب لتبديد ما ألم به وأصابه . . وانظر إلى قول البارودي في رثا زوجته :

يادهر فيم فجعتني بحليلة كات خلاصة عدتي وعتادي
إن كنت لم ترحم ضغاي لبعاءها ألا رحمت من الأمسى أولادي

تراه حزينا متألما لفراقها وقد صاغ ألمه وتحسره في أسلوب استفهامي ليلمب الناس ويشيرهم إلى مشاركته حزنه وألمه .

ومن ذلك قوله تعالى : « فَأَذَا بَرِقَ الْبَعَثُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمُوعُ النَّاسِ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَبْنُ الْفَرِّ »^(١) فالاستفهام في الآية يفيد تحضر الإنسان وندمه على ما فاتته في الدنيا واستبعاده الفرار في ذلك اليوم .
« كَلَّا لَا وَزَرَ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ »^(٢) .

٤ - العجب : تأمل قوله تعالى : « وَتَنقَدَّ الطَّيْرُ فَقَالَ : مَا لِي لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ »^(٣) فسلیمان - عليه السلام - لما تنقذ الطير ولم يجد الهدود تعجب : كيف لا يراه وهو لا يغيب إلا بإذنه ولذا توعدده بالعذاب الشديد إذا لم يكن غيابه هذا اسباب قوى يدعو إليه : « لَا عَذَابَ لَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا ذُبْحَنَهُ أَوْ آيَاتُنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . . »^(٤) ، ومثله

(٢) سورة القيامة آية ١١ ، ١٢

(٤) سورة النمل الآية ٢١ .

(١) سورة القيامة آية ٧ - ١٠

(٣) سورة النمل الآية ٢٠

قوله عز وجل : « قَالَتْ : يَا وَيْلَتَى أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ؟
إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ .. » (١)

فقد تعجبت امرأته من بشارة الملائكة لإبراهيم عليه السلام بإسحاق ،
ومن وراء إسحاق يعقوب ، كيف ولد وهي عجوز وقد عاشت حياتها عقيماً ،
وهذا بعلمها قد صار شيخاً ، إنه لامر عجيب ولذا تساءلت الملائكة متعجبة
من تعجبها : « أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ؟ .. »

ومنه قول المتنبي في وصف الحى :

أبنت الدهر عندي كل بنت فكيف وصلت أنت من الزحام ؟
فهي يتعجب من الحى ، كيف وصلت إليه ، إلى الرغم من نزاحم الشدائد
حوله وتسكالها عليه ..

٥ - التنبيه إلى ضلال : كما في قوله تعالى : « فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ؟ إِنْ هُوَ
إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ » (١) ، فهو تنبيه للكفرة إلى خطأ ما يقولون وضلال
ما يعتقدون وباطل ما يعبدون من دون الله ، ويتضح لك هذا التنبيه عندما تتأمل
سياق الآيات السكرية : « فَلَا أَقْسِمُ بِالْخَنَاسِ الْجَوَارِىِ الْكَاسِ وَاللَّيْلِ إِذَا
عَسَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى
الْعَرْشِ مَسْكِينٍ مُّطَاعٍ ثُمَّ أَمِينٍ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ وَلَقَدْ رَآهُ
بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ
فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ؟ .. » فقد أقسم سبحانه وتعالى بالدعوم الدالة على قدرته
في أحوال ظواهرها واختفائها الخناس . الجوارى . الكاس . ثم أقسم
بالليل يقبل بظلامه وبالصبح الذى يبدد ذاك الظلام ، إن القرآن لمن هتداه
نزل به رسول أمين على صاحبكم محمد صلى الله عليه وسلم ، وآثر التعبير

بالصاحب ليلفتهم إلى أنه صاحبهم الذي يعرفون صدقه وأمانته فهو جادق فيما يبلغهم عن ربه، أمين عليه، وقد رأى وأبصر من آيات ربه الكبرى، رأى جبريل بالآفاق المبين، وهو حريص على إبلاغ رسالة ربه، لا يرضى بها عليكم، . . لقد وضح الأمر وانكشف الحق، فأير تذهبون بعد ذلك عنه إلا إلى ضلالات وعتاهات؟ فجاء الاستفهام عقب هذا البيان وتلك التجلية ينبه الغافل ويحذر المعاند ويحث المكابر على النظر والتأمل ليقتل على الحق ويتخلى عن الضلال والعتاد.

٦ - التحويل : كما في قوله تعالى : « الْخَافَةُ مَا الْخَافَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخَافَةُ »^(١) ، « النَّارَةُ مَا النَّارَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا النَّارَةُ »^(٢) ، « كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ . . »^(٣) فلا استفهام في الآيات الكريمة يكشف عن أهوال يوم القيامة ، ويصور ويبرق فظاعة العذاب وشدته . .

٧ - الوعيد والتهديد : كقوله لمن يسمى إليك : ألم أودب فلاناً ؟ تريد بذلك تهديده وتوعده حتى يقلع عن إساءته . . . ومنه قوله عز وجل : « قَبْلُ يَوْمَئِذٍ الْمُسْكَذِبِينَ . أَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْآوَلِينَ . ثُمَّ نُنَبِّهِهُمْ الْآخِرِينَ . كَذَلِكَ نَقُولُ بِالْمُجْرِمِينَ . . »^(٤) ولا يخفى عليك ما يفيد الاستفهام من توعده للكفرة وحث لهم على الإقلاع عن كفرهم والانصياع لصوت الحق حتى لا يصيبهم ما أصاب الأولين من إهلاك وتعذيب . .

٨ - الأمر والحث على الفعل : كما في قوله تعالى : « فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ »

(١) سورة الشعراء آية ١ - ٣ . (٢) سورة القارعة آية ١ - ٣ .

(٣) سورة الحمزة آية ٥ . (٤) سورة المرسلات آية ١٥ - ١٧ .

مُسْلِمُونَ» (١)، : قوله تعالى : «وَأَقْذِرْنَا قُرْآنَكَ لِلذِّكْرِ قَهْلًا مِنْ
مُذِّكِرٍ؟» (٢)، وقوله عز وجل : «وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا السِّكِّاتِ وَالْأُمِّيِّينَ
أَسْلَمْتُمْ؟» (٣)، وقوله تعالى : «إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ
الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي أَنْعَمِ وَالْأَعْيُنِ وَيَصُدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الْعِلَاقَةِ
قَهْلًا أَنْتُمْ مُؤْمِنُونَ؟» (٤)، وقوله : «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا
حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ؟» (٥) . . . فالمراد بالاستفهام في الآيات الكريمة الأمر ،
وقد جاء في صيغة الاستفهام ، لأن في ذلك إغراء للمخاطب وحثا له على
الاستجابة وقبول الأمر . .

٩ - التقرير : وقد باتى الاستفهام ويراد به التقرير ، بمعنى صواب الإقرار
أو بمعنى التحقيق والإنبات ، فمن الأول قوله تعالى : «قَالُوا : أَأَنْتَ قُلْتَ
هَذَا بِالْهَيْعَةِ يَا إِبْرَاهِيمُ؟» (٦) فهم يريدون حمله على الإقرار ، لا التعريف
بالفعل ، وعندما يكون التقرير بالهجرة ينبغي أن يليها ما حمل المخاطب على
الإقرار به . فهم هنا يقرر رده بالفاعل ولذا أجابهم : «بَلْ قَوْلَهُ كَبِيرُهُمْ
هَذَا» ، ومثله قوله تعالى : «أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ
مِنْ دُونِ اللَّهِ؟» (٧) فهو تقرير بما يعرفه عيسى عليه السلام من هذا الحكم ،
وهو أنه لم يصدر منه هذا القول ، وفيه توبيخ وتنبهت لمن اتخذه وأمه لإلهين
من دون الله . . . ومنه قوله تعالى : «أَلَمْ تُرَبِّكُنَا وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ
مِنْ طِينٍ مِنْ عَمَلِكُمْ شَيْئًا؟» (٨) فالمراد بالاستفهام : تذكير موسى - عليه السلام -
بنشأته وتربيهه فيهم وحمله على الإقرار بذلك ، أملا من فرعون في أن يقلع

- | | |
|----------------------------|----------------------------|
| (١) سورة هود آية ١٤ . | (٢) سورة القمر آية ١٥ . |
| (٣) سورة آل عمران آية ١٩ . | (٤) سورة المائدة آية ٩١ . |
| (٥) سورة الحاد آية ١١ . | (٦) سورة الانبياء آية ٥٢ . |
| (٧) سورة المائدة آية ١٦ . | (٨) سورة الشعراء آية ١٨ . |

ويكف عما جاء به من قبل الله، ولكن أنى له ذلك، وموسى رسول رب العالمين، ومن الثاني: «ألم يجِدْكَ يَتِيماً فَكَوَىٰ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ...» (١) .. «ألم نشرح لك صدركَ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ...» (٢) .. «ألم يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ...» (٣) .. «خَلَّ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا؟» (٤) ، فالمراد بالاستفهام في الآيات التقرير بمعنى التحقيق والإثبات، ويجيء التحقيق في صورة الاستفهام فيه تنبيه للمخاطب وحث له إلى تدبر الأمر وتأمله .. ومنه قول جرير في مدح بني أمية :

أستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

فهو تحقيق وإثبات لكرمهم وشجاعتهم وقد صاغه في صيغة استفهام بلير شديداً وينبئ به إلى فضلكم وسبقكم إلى العلاء .

١ - الإنكار : والهمزة هي أكثر أدوات الاستفهام دلالة على معنى الإنكار، ويليهما دائماً المستفهم عنه سواء أكان الاستفهام مجرد جلب الفهم أم للتقرير أم للإنكار أم لغير ذلك كما عرفت في بناء جملة الاستفهام - مع الهمزة ... والاستفهام الإنكاري، يرد على نوعين : إنكاري توبيخي وإنكاري تكذيبي ...

فالاول : إنكار وتوبيخ على أمر قد وقع في الماضي بمعنى ما كان ينبغي أن يقع ، أو على أمر يخشى المستفهم أن يقع في المستقبل بمعنى ينبغي ألا يكون، فالإنكار أو النفي في التوبيخ موجه إلى الإبقاء والمعنى : ما كان ينبغي في الماضي ، وينبغي ألا يكون في المستقبل .. تأمل قوله تعالى : « أَكْفَرْتُم بِالَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْقَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا » (٥) ، فالمعنى :

- | | |
|-----------------------|--------------------------|
| (١) سورة الضحى آية ٥ | (٢) سورة الفرج آية ١ - ٢ |
| (٣) سورة الليل آية ٢ | (٤) سورة الإنسان آية ١ |
| (٥) سورة الكهف آية ٣٧ | |

ما كان ينبغي أن يقع هذا الكفر وقد خلقك الله رسواك وألهم عليك بالنعم التي
تباهى بها وتفخر .. ومثله قوله تعالى : « هَلْ عَمِلْتُمْ مَا كَفَلْتُمْ بِيُوسُفَ
وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ؟ » ^(١) وقوله تعالى : « أَتَدْعُونَ بَشْرًا
وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ » ^(٢) فالاستفهام في الآيتين للقوبيخ على أمر واقع
والمراد : ما كان ينبغي أن يقع منكم ما وقع .. ومنه قول امرئ القيس :
أغرك مني أن حبك قاتلي وأنتك مهمما تأمرى القلب يفعل

والمعنى : ما كان ينبغي أن يفرك حبي لك ، وقد تقدي أني أصبحت متبها
في هواك ، أفعل ما تأمرين به .. وتقول : أعصيت ربك .. الذيت
جارك .. أهملت في واجباتي ؟ أي : ما كان ينبغي أن يقع هذا منك ..
ولعلك تشعر بما في بيت امرئ القيس من تصوير جميل لقصة حبه مع ما في
التعبير من إبحار وإخفاء لهذا الحب وراء الاستفهام ، فهو يستغفم عنه
ولا يفتضح بإظهاره ووقوعه .. ونأمل قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَتَّبِعُوا الْكَافِرِينَ وَلَا يُلَاقُوا دُونَ اللَّهِ مُبِينًا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ
عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ؟ » ^(٣) نجد أن الاستفهام موجه إلى تلك الإرادة وهي
غير واقعة ، بل يحتمل وقوعها في المستقبل والمراد : لا ينبغي أن تكون
هذه الإرادة .. وتقول : اتصلي بـ .. أتؤذي أباك .. أنسى إحسان
فلان .. أخرج في هذا الوقت ؟ والمراد تنبيه المخاطب إلى خطأ ما هو مقبل
عليه حتى يرتدع عنه ، فالمعنى : لا ينبغي أن تكون منك هذه الأفعال ..

والثاني : وهو الإنكار التوكيدي ، ويسمى أيضا بالإنكار الإبطالي ،
إذا كان التكذيب في الماضي ، كان الاستفهام بمعنى : لم يكن ، وإذا كان في
المستقبل كان بمعنى إن يكون .. تأمل قوله تعالى : « أَفَأَصْنَأَكُمْ رَبُّكُمْ

(٢) - سورة الصافات آية ١٢٥ .

(١) - سورة يوسف آية ٨٩ .

(٣) - سورة النساء آية ١٤٤ .

بِالْبَيِّنَاتِ وَأَتَّخِذَ مِنَ اللَّائِبِكَدِ إِنَانًا إِنَّا نَكُفُّكُمْ أَلْتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا . . .^(١)
تجد أن الاستفهام في الآية يفيد تكذيبهم ، وإبطال ما قالوه ، والمعنى : لم يكن
من الله تعالى استغناء ولا اتخاذ . ومنه قول امرئ القيس
أيقنني والمشرقي مضاجعي مسنونة زرقى كأنباب أغوال

فهو يكذب [إننا نكذب] ونوعده بالقتل وينكر أن يقع منه ذلك والمعنى : إن
يكون هذا القتل . واقرأ قوله تعالى : « قَالَ : يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ
عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِي فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُ كُفُوهَا
وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ؟ »^(٢) ، فالمراد : أنجبركم ونسركمكم على الاعتداء بها ،
والمعنى : لن يكون ذلك الإجبار إذ لا إكراه في الدين . . . وتقول : أيرحمي
عذك ربك وأنت مقبم على عصيانه ؟ أي : لن يكون هذا
ومنه قول الشاعر :

أترك إن قلت دراهم خالده زارته ؟ إن إذا للثيم
أي : لن يكون ذلك مني . .

هذا وموضع الإنكار - كما مر بك - هو ما يلي الحمزة ، تقول في إنكار
الفاعل : أأنت تقدر على هذا ؟ أأنت تـ ؟ أي : تريد : لن يكون هذا منك ،
ولن تستطيعه فاست له أهلاً . . . وتقول في إنكار المفعول : أعمرأهنت ؟
بمعنى لم يكن ذلك . وتأمل قوله تعالى : « قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَوْ يَتَّخِذُ وَايَا »^(٣) . .
« قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَوْ يَتَّخِذُ وَايَا »^(٤) ؟ أي : فآلف على إنكار الفعل :
أؤذى أباك . . ؟ ومنه قوله تعالى : « أَلْتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . . »^(٥)

(٢) سورة هود الآية ٢٨ .

(١) سورة الإسراء الآية ٤٠ .

(٤) سورة الأنعام الآية ١٦٤ .

(٣) سورة الأنعام الآية ١٤ .

(٥) سورة الاعراف الآية ٢٨ .

وقوله عز وجل : « أَنْتَبِذْ أَوْنَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ... »^(١)
 والمعنى : ينبغي ألا يقع هذا .. وتقول : انتفاني ؟ والمعنى ان يكون ذلك
 منك ، وقد مرت بك شواهد كثيرة لإنكار الفعل لإنكاراً تكاد يبيأ ...
 وقد يكون الإنكار للفعل ويل الحمزة غيره وذلك عندما يكون للفعل فاعل
 محدد أو مفعول أو ظرف ليس للفعل سواء قبل الحمزة أو بعد على ما وثق
 بأم المتصلة ذلك المحدد كقولك في إنكار الفعل : أني ليل وقع هذا أم فنهله ؟
 منكراً الوقوع ، لأن الفعل إذا نفي فاعله أو مفعوله أو محله - كما في انتفاني
 الذي ليس له غيره ، لزم من ذلك انتفاء الفعل ، وهذا أبلغ في إنكار الفعل
 وانتفائه ، لأن نفي الفعل فيه بطريق الكناية والازوم ، فهو بمنى دعوى
 بدليلها . . . وقد مرت بك شواهد هذه الصورة في بناء جملة الاستفهام مع
 الحمزة فقد إليها هناك ..

١١ - النفي : وقد يأتي الاستفهام بمعنى النفي ، كما في قوله تعالى :
 « هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ »^(٢) والمعنى : ما جزاء الإحسان إلا
 الإحسان ، تلك حقيقة مقررة لا يعارض فيها عاقل ، ولكن فرق بين الدلالة
 عليها بالاستفهام والدلالة عليها بطريق النفي المأمور ، إن في الاستفهام تحريكاً
 للفكر ، وتنبهً للعقل وحشاً على التهازل والتأمل .. وهذا هو الفرق بين
 النفي التصريح وبين النفي من طريق الاستفهام ... انظر إلى قوله تعالى :
 « سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا
 يَقُولُونَ بِالسَّيِّئَةِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ أَنْ يَمْلِكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً
 إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ... »^(٣) ، فالمعنى لا محالة :
 لا أحد يملك لكم من الله شيئاً ، ولكن الدلالة على هذا المعنى بالاستفهام فيها

(٢) - سورة الرحمن آية ٦٠

(١) سورة البقرة آية ٦١ .

(٣) سورة الفرقان آية ١٧

تنبيه لطولاء المخلفين وحث لهم على تدبر أحـ والهم ومراجعة أنفسهم
والانقياد للحق وانباع سبيل الرشاد .. وكذا القول في الآيات الكريمة :
« قَمِنَ أَظْلَمُ يَمْنٍ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي
خَوَائِهَا » (١) . . . « وَمَنْ أَظْلَمُ يَمْنٍ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » (٢)
« فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا التَّوَكُّلِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ
يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَارٍ بَلَاغٌ قَوْلٍ لِيُهْلِكَ إِلَّا الْقَوْمُ
الْفَاسِقُونَ » (٣) . . . فالدلالة على النفي بالاستفهام في الآيات الكريمة
تتمايز عن الدلالة عليه بطريقة المعمود ؛ إذ النفي الصريح خال من التحريك
والتنبيه وإثارة المشاعر ، أما الاستفهام ففيه بحث غلى النظر والتأمل وحث
على التفكير والتدبر حتى يتبين المخاطب وجه الخطأ فيقلع عنه ويبتعد ..
وعد لإدالة الاستفهام على الإنكار ونأمل فرق ما بين قولك : أتؤذى
أباك ؟ تنسى إحسان فلان ؟ وبين قولك : لا ينبغي أن تؤذى أباك ..
لا ينبغي لك أن تنسى معروف فلان ، فمحن وإن كنا نفسر الاستفهام بهذا
المعنى إلا أن هناك فرقا جوهريا يمتاز به الاستفهام الإنكارى عن النفي
الصريح وهو أن في الاستفهام إغراء لمن تخاطبه كي يقلع عما فعل أو سيفعل
وعما اعتقد أو يعتقد ، حيث لم تواجهه صراحة بالنفي أو التكذيب ، كما أن
في الاستفهام تحريكا لفكر المخاطب وتنبيها له ودعوى كي يتأمل ويتدبر
ويعيد النظر فيما يفعل أو يعتقد لعله يستيقن فيذعن للحق ويقلع عن
الباطل و"ضلال ..

ومن الاستفهام الدال على النفي قول البحتري :

هل الدهر إلا غمرة وانجلاؤها وشيكا وإلا ضيقة وانفراجها

(٢) سورة العنكبوت آية ٦٨

(١) سورة البقرة آية ١١٤

(٣) سورة الأحقاف آية ٢٥

فالشاعر أراد بالاستفهام أن يحث المخاطب على النظر والتأمل حتى يدرك هذه الحقيقة الواقعة ويعيها فكره ، وهي أن الدهر ليس إلا شدة سرعان مائتجلى ، وضيقا يعقبه فرج ..

ومثله قول الآخر :

هل الدهر إلا ساعة ثم تنقضي بما كان فيها من بلاء ومن خفوض؟

١٢ . التشويق : وقد يأتي الاستفهام للتشويق وذلك عندما يقصد المتكلم إلى ترغيب المخاطب واستمالته كما في الآيات الكريمة : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ؟ »^(١) « قُلْ أَوْفَيْتُكُمْ بِمَعْدِئِكُمْ مِنْ دِينِكُمْ .. »^(٢) « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُتَدَنِّسِ طُوًى .. »^(٣) « هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ .. »^(٤) ، ولا يخفى عليك ما في الآيات الكريمة من ترغيب للمخاطب وتشويق له إلى معرفة الجواب ، فهو يفكر فيه وينشغل به وينتظره في ترقب وتطلع وعندئذ يأتي الجواب فيقع في نفس المخاطب موقعا حسنا ، لأنه نجاةً والنفس مهبأة له ومثلثة إلى معرفته ... إلى غير ذلك من الأغراض البلاغية التي يفيدها الاستفهام في أكثر من أن يحاط بها ، لأنها معان تستنبط من السياق وتأمل أجواله ، والمعنى عليه في ذلك هو سلامة الذوق وتابع التراكميب الجيدة ، ولا ينبغي أن تقتصر في ذلك على معنى سمته أو مقال وجدته من غير أن تتخطاه إلى غيره ، بل عليك بالتصريح واستعمال الروية وافقه الهادي^(٥) ..

(٢) سورة آل عمران آية ١٥

(١) سورة الفاتحة آية ١٠

(٤) سورة النازعات آية ٢٨

(٣) سورة النازعات آية ١٥ ، ١٦

(٥) انظر المطول ص ٢٣٩

ومنها بالإضافة لما سبق، دلالة على التعظيم . . . كما في قول المتنبي :
 من للمحافل والجحافل والسرى فقدت بفقدك نيراً لا يطلع
 فهو يريد تعظيم المخاطب والإشادة بفضله وأن المحافل وهي المجامع
 والجحافل وهي الجيوش والسرى أى السير ليلاً والزحف إلى الأعداء ، هذه
 الأمور قد فقدت بفقده نيراً لا يطلع . . . ومثله قول الآخر :

أضاعوني وأى فنى أضاعوا ليوم كربهة وسداد ثغر

فالمراد بالاستفهام تعظيم نفسه والإشادة بشجاعته وفروسيته ، ولا يخفى
 عليك ما فى البيتين من إظهار التحسر والتفجع لفقدته المحافل والجحافل ،
 وإضاعة القوم لفتمام المغرار . . . ومنها التحقير ، كما فى الآيات الكريمة :
 « وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِلَّهِ يُدِّعُ مَا تَعْبُدُونَ ؟ » (١) .
 « وَإِذَا رَأَوْكَ أَنْ يَنْخِذُ مِنْكَ إِلَّا هُيُوءَا : أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا » (٢)
 « أَهَذَا الَّذِي بَدَّكُمْ آلِهَتَكُمْ ؟ » (٣) . . . وكافى قول الشاعر :

تقول وقد دنت نحرها بيمينها أبعل هذا بالرحا المتقاعس

وقول الآخر :

فدع الوعيد فما وعيدك ضارنى أثنين أجنحة الذباب يضير ؟

ومنها التهم ، كما فى قوله تعالى : « قَالُوا : يَا شُعَيْبُ أَصْلَافُكَ تَتَأْمُرُكَ
 أَنْ تَتْرُكَ مَا يَتَّبِعُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَنْتَقِلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ » (٤) فهم
 يسخرون منه ويتهكمون بما جاء به ، وقد هربوا عن ذلك بصيغة الاستفهام
 ليدلوا على ثباتهم فى الكسر ووقوفهم الصامد فى الضلال والمكابرة . . . ومنها

(٢) سورة الفرقان آية ٤١

(٤) سورة هود آية ٨٧

(١) سورة الشعراء آية ٧٠

(٣) سورة الانبياء آية ٣٦

الغنى ، وذلك عندما يطلب السائل الأمور المحالة أو البعيدة الحصول ، كما في قوله تعالى على لسان أهل النار : « قَهْلَ لَمَّا مِنْ شُعْمَاءَ فَيَدْنُوْنَا لَنَا أَوْ نُزِدْ فَنَمْلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ . » (١) « حَلْ إِلَى مَرَدَّةٍ مِنْ سَبِيلِ .. » (٢) . « إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا قَهْلَ أَنْتُمْ مُنْفُونَ عَمَّا فَصَّيْبًا مِنَ النَّارِ ؟ » (٣) . وكأهم لفظة ما هم فيه من هول العذاب صاروا يسألون غير المهملين كما يسأل عن الشيء الذي لا استحالة في وجوده . . . هذا وكما ذكرت لك فإن هذه المعاني يستنبطها الدارس من خلال النظر في السياق وتأمل تراكيبه وقرائن أحواله ، وكثيرا ما نجد أسلوب الاستفهام يفهم بأكثر من معنى بلاغى ، تأمل قوله تعالى : « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُفُّنْ أَمْوَانَا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ مِمَّنِّيَّتْ كُفُّنْ ثُمَّ يُخَيِّبُكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » (٤) نجد الاستفهام بها يفيد الإنكار التوبيخى ، أى : لا ينبغي أن يكون منكم كفر وقد علمتم قصة خلقكم وحياتكم . . كما يفيد التعجب من وقوع هذا الكفر والحث على الإقلاع عنه والإقبال على الهدى والإيمان ، لأن في خلق السموات والأرض وفي خلق الإنسان من العبر والعظات والأدلة على قدرة الله مالم تأمل الكافر وتذره لأقلع عن كفره وضلاله ، فوجود الكفر منه بعد أن يدور إلى التعجب والإنكار . . ومثله قوله تعالى : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْفُسُونَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَكُونُونَ الْكِتَابِ ؟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ » (٥) فلا استفهام فى الآية لإنكار لوقوع ذلك منهم وتعجب من وقوعه وحث الإقلاع عنه . . وخذ قوله تعالى : « فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ . وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ . يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ : أَأَبْنَى الْمَمَرُ ؟ » (٦) نجد الاستفهام بها يدل على الحيرة والتخبط والتحسر والندم . وتبقى الفرار من العذاب الذى ينتظره . وأنى له ذلك :

- | | |
|-----------------------------|---------------------------------|
| (١) - سورة الأعراف آية ٥٣ . | (٢) - سورة الشورى آية ٤٤ . |
| (٣) - سورة طه آية ١٧ . | (٤) - سورة البقرة آية ٤٨ . |
| (٥) - سورة البقرة آية ٤٤ . | (٦) - سورة القيامة آية ٧ - ١٠ . |

« كَلَّا لَا وَزَرَ . إِلَىٰ رَبِّكَ يُؤْتِيهِ الْمُسْتَقَرُّ : » (١) وتأمل قوله تعالى :
 « يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ : هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ ؟ » (٢) فالسؤال
 الأول يفيد التقرير ، والسؤال الثاني يفيد طلب المزيد من الوقود وتمنييه
 وينبغي أن يمدى تخيلهم وشدة غضبها لكثرة هؤلاء الكفرة وتطلعها وتشوقها
 إلى المزيد منهم . . . وخذ هذه الآية - وقد سرت بك - « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ
 تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا بَأْيَكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْجُومُ الْبَاسَاءِ
 وَالضَّرَاءِ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ؟
 أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ » (٣) فاستفهام الرسول ومن معه وهم صفوة الناس ،
 وقولهم وقد زلزلوا ومستهم البأساء والضراء متى نصر الله ؟ ، يفيد تطلعهم
 للنصر وتشوقهم وتمنيهم وقوعه وسأله ، كما يفيد استبطاءهم لحجته ، وهذا
 ما يصور شدة ابتلاهم وبين أنه على المؤمنين أن يكونوا على استعداد وأن
 يهيئوا أنفسهم لمثل هذا الابتلاء ، فإن يدخلوا الجنة إلا إذا عصفوا كما عصف
 من قبلهم واختبروا كما اختبروا . . . وهذا يتضح لك أن الأسلوب الاستفهامي
 يفيد الكثير من المعاني التي يستطيع أن يقف عليها الدارس بتأمل سياقه
 وتذوق قرائن أحواله . . .

أسلوب النداء : - النداء : هو خطاب الإقبال بحرف نائب مناب كلمة :
 « أَدْعُو » ، والغاية منه أن يصغى من تناديه إلى أمر ذي بال ، ولذا غالب أن
 يأتي النداء أمر أو نهى أو استفهام أو إخبار بحكم شرعي كما في قوله تعالى :
 « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبُّكَ فَكَبَّرْ . وَثِيَابِكَ فَطَهِّرْ » (٤) . وقوله
 تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ
 وَلَا تَمْتَدُّوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » (٥) ، وقوله عز وجل : « يَا أَيُّهَا

(١) - سورة القيامة آية ١١ - ١٢ (٢) - سورة ق آية ٣٠
 (٣) - سورة البقرة آية ٢١٤ (٤) - سورة المدثر آية ١ - ٤
 (٥) - سورة المائدة آية ٨٧ .

النَّيِّ لَيْمَ تَحَرَّمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ..»^(١)، وقوله جل وعلا : « يَا أَيُّهَا النَّيِّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَدَّتَيْنَّ ..»^(٢)

ودلالة النداء على الطلب دلالة مطابقة عل أرجح الأقوال ، لأنه طلب الإقبال ، فهو بمعنى : « أقبل ، الأمر ، وقيل : إن دلالة على الطلب التزامية ، لأنه بمقتضى تعريفه : « طلب إقبال المخاطب بحرف نائب مناب كلمة : « أدعو ، ليصغى إلى ما يريد المتكلم . ، و « أدعو ، فعل مضارع لا أمر ، و« كن النداء يتضمن طلب الإقبال فلذا جعل النداء من أقسام الطلب ، ودلالته عليه دلالة التزامية تضمينية .. ومنهم من يرى أنه مجرد تنبيه لا طلب فيه .. والراجح هو الرأى الأول . كما ذكرت - لأنك عندما تقول : « يا محمد ، فإنك تطلب منه الإقبال عليك ، وكأنك تقول له : « أقبل ، بصيغة الأمر ، وليس « أدعو ، بصيغة المضارع ..

وحروف النداء هي : الهزمة رأى ويا وآى وآيا وهيا ودوا ، وأكثرها استعمالا فى نداءات القرآن الكريم هو « يا ، .. وهذه الأدوات نوعان : ما ينادى به القريب وهو الهزمة وأى ، وما ينادى به البعيد وهو بقية الأدوات ..

وإذا كان النداء هو طلب الإقبال ، فإن الأصل فيه أن يكون للقريب الذى لا يجاوز امتداد صوت المنادى ، ولاكنهم توسعوا فيه فننادوا البعيد الذى لا يمكن أن يسمع صوت المنادى ، أو بمعنى آخر الذى لا يمكن أن يصل إليه صوته ، وجعلوا لندائه أدوات ونداء القريب أدوات - كما رأيت - . ولم يتوقفوا عند نداء البعيد الذى لا يصله صوت المنادى ، بل اتسع تعريفهم فى النداء فننادوا غير الحى العاقل ، كالإناء والطير والوحش ، ومشاهد الطبيعة

(٢) - سورة الطلاق آية ١ .

(١) - سورة التحريم آية ١ .

من برق وسحاب وأقار وشموس وأشجار وأرض وسما وجبال ، وفيافي وقبور و أطلال وديار ، كما نادوا أحوال النفس وعواطفها من حب وبغض وحسرة وويل ولذة ... ونداء مثل هذه الأمور لا يكون لطلب الإقبال ، وإنما يكون لأغراض بلاغية ومقاصد يتصدد إليها المتكلم .

قلت : إن النداء يكون بحروف نائمة كتاب كلمة : ، أدعو ، ، وهـ هذه الحروف قد تذكر ، كما في الآيات التي ذكرت بك ، وكما في قولك أحمد . . يا خالد . هيا سلمي . . وقد تحذف فتقول : محمد . خالد . . سلمي تريد نداءهم . . وما ورد فيه حذف أداة النداء ، قوله تعالى : « يُوسُفُ أَفْرِضْ عَنْ هَذَا . . »^(١) . . « يُوسُفُ أَيُّهَا الصَّدِيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ يَمْكُنُ »^(٢) . . « قَالَ : فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ »^(٣) فقد حذفت أداة النداء في الآيات الكريمة وتقديرها : أيوسف . . يا أيها الصديق . . يا أيها المرسلون . . ومن ذلك نداء الرب في أحاليب القرآن الكريم ، فلا يكاد يستخدم حرف النداء مع الرب بل ينادى بمجرداً من حرف النداء ، ولعل في ذلك تعبيراً عن شعور الداعي بقربه من ربه عز وجل ، كقوله تعالى : « وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُخَيِّمُ التَّوْتَى . . »^(٤) وعلى كثرة ما نودي الرب في القرآن الكريم ، لم يكثر عليه ، سيقا بحرف النداء إلا في الآية الكريمة : « وَقِيلَ : يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ . فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَسْتَلِمُونَ »^(٥) . وامل في مجيء حرف النداء مع الرب في هذه الآية بصفة خاصة ، تعبيراً عن حالة نفسية أملت بالرسول عليه السلام . وقد أفرغ نهمه في دعوة قومه وإنذارهم ، فلم يزدحم ذلك إلا بما ديا في كفرهم ، فأطبق لهم على فؤاده ، وكأنا شعر بتخلي الرب عن

(١) - سورة يوسف الآية ٢٩ (٢) - سورة يوسف الآية ٤٦

(٣) - سورة الداريات آية ٣١ (٤) - سورة البقرة آية ٢٦٠ .

(٥) - سورة الزخرف آية ٨٨ - ٨٩ .

نصرته بسبب كفر قومه وإعراضهم، فأراد أن يرفع صوته زيادة في الضراعة إلى الله واستجلاب رضاه، كما أن في امتداد الصلة بهذا الحرف « يا » ما ينبغي بحالة الرسول النفسانية، وكأنه وجد فيها متنفساً لإلامه وأحزانه ..

وفي ندائه لفظ الجلالة يجوز استبدال ميم مشددة في آخره بحرف النداء فيقال : اللهم ، بدلا من : يا الله ، ومن ذلك قوله تعالى : « قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ .. » (١)

هذا وقد ينزل البعيد منزلة القريب فينادي بالهزمة وأى، لغرض بلاغى وهو الإشعار بأنه حاضر في القلب لا يغيب عن الخاطر ، حتى صار كأنه حاضر مشاهد .. ومن ذلك قول أبي فراس وهو أسير في بلاد الروم ينادى سيف الدواة :

أسيف الحديدى وقريع العرب لإلام الجفاء وفيم الغضب ؟
وما بال كتبك قد أصبحت تنسكبنى مع هذى النكب (٢)

فعلى الرغم من تباعدهما جاء النداء بالهزمة ليعبر عما يضمره له من حب ، فهو حاضر في قلبه لا يغيب عن خاطره، وكأنه مشاهد أمامه .. ومثله قول الآخر :

اسكان نعمان الاراك تيقنوا بأنكم فى ربيع قلبى سكان (٣)
فهو ينادى سكان هذا المكان وقد عبر بالهزمة الموضوعة لنداء القريب لينبىء بأنهم قريبون منه ، لا يتركون فكره ولا يبرحون خياله .. ومنه قول الآخر :

(١) سورة آل عمران آية ٢٦ .

(٢) قريع العرب : سيدهم . تنسكبنى : تجنبنى والمراد أن هذه نكبة تضاف إلى نكبة أسره .. وكتبك يسكون التاء ضرورة : رسائك ، مردعا : كتاب ..

(٣) نعمان الاراك : اسم موضع .. والربيع : المنزل ..

أبى لا تبعد وليس بخالد حتى ومن تصب المنون بعيد
فهو ينادى أبيا الذى أصابته المنون فصار بعيدا عنه يناديه بالهمزة اي عبر
عن حضوره فى قلبه واستقراره فى قواده . . وتقرأ رسالة والد إلى
ولده أرسلها له من مكان بعيد فتراه يقول : دأى بنى عليك بالاستقامة
وترك المعاصى فإن العلم نور ونور الله لا يهتدى لمعاصى ، فقد عبر بأبى فى
ندائه ابنه وهو بعيد عنه ليدل على أنه حاضر فى قلبه لا يبرح خياله ولا يغيب
من فكره ووجدانه ..

كما قد ينزل القريب منزلة البعيد فينادى بغير الهمزة وأبى لأغراض
بلاغية أهمها :

١ - الإشعار ببعد منزلته وعلو مكانته ، فينزل بعد المنزلة وعلو المكانة
منزلة البعد المسكنى ، كما فى قوله تعالى : « يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ
الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا . يَا أَبَتِ إِنَّهُ أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ دَذَابٌ
مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا » (١) فأبراهيم - عليه السلام - ينادى
أباه وهو قريب منه ، وقد استخدم دأيا ، الموضوع لنداء البعيد لينبئ ببعد
مكانته وسمو منزلته وهذا أدب الابن مع أبيه حتى ولو كان على غير دينه . .
ومن ذلك نداؤك لفظ الجلالة فتقول : دأيا الله ، مع أنه أقرب إليك من
حبيل الوريد ..

٢ - الإشعار بأن النادى وضيع المنزلة منخط المكانة وكأنه بعيد عن
القاب ، فينزل ، هذا البعد النفسى منزله تبعد المسكنى . . كما فى قول جرير يهجو
ابن أبى خليل :

نفل الفخر يا ابن أبى خليل وأد خراج رأسك كل عام

ومثله قول الفرزدق فى هجاء جرير :

أولئك آباءى فجئنى بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

٣- التنبيه على عظام الأمر المدعوله وعلو شأنه ، حتى كأن المنادى مقصر فيه غافل عنه مع شدة حرصه على الامتثال ، كما فى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ »^(١) . ويحمل على ذلك كل النداءات الموجهة من الله تعالى إلى عباده : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. يَا أَيُّهَا النَّاسُ .. يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ .. يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ .. يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا .. » فالله عز وجل أقرب إلى عباده من حبل الوريد ، وقد جاء النداء ديباً ، المرشوعة لنداء البعيد للتنبيه على عظم الأمر الذى نودى من أجله وعلو شأنه ، وليبادر المنادى بالامتثال والاستجابة .. ومن ذلك قوله تعالى على لسان لقمان يوصى ابنه : « يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ .. يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ .. »^(٢)

٤- أن يكون المنادى نائماً أو ساعياً ، فيكون كل من النوم والسهو بمنزلة البعد الذى يقتضى علو الصوت ، كقولك : هيا عمرو استيقظ ، أيا خالد تنبه ولا تسه ..

٥- الإشعار بغفلة المنادى عن الأمر العظيم الذى يقتضى اليقظة والانتباه ، كقولك : هيا فلان تمهياً للحرب .. ومنه قول الشاعر :

يا أيها السادر المزور من صاف مهلاً فإنك بالأيام متخدع

وكان غفلة هذا الغافل جعلتك تبعده عن ساحة الحضور وتنزله منزلة البعيد فتناديه تداه .. ومنه قول مرة بن محمك السعدي مخاطب ربة بيته ويناديه :

ياربة البيت قومي غير صاغرة ضمى إليك رحال القوم والقربا

الأغراض البلاغية التي يفيدها أسلوب النداء : - وبأني أسلوب النداء مفيداً للمعان بلاغية كثيرة تفهم من السياق وقرائن أحواله ، فعندما تنادى القبور أو الدوق أو الهزق أو التعجب أو الويل ، فإنه يراد بهذا النداء ، مقاصد وأغراض يرمى إليها المنادى ، كما قد ينادى الحى العاقل لغرض آخر ، بالإضافة إلى طلب الإقبال ... وإليك أم هذه المقاصد :

١ - الإغراء : وهو الخث على طلب الأمر الذى ينادى له ، كقولك لمن يتظلم : يا مظلوم تسكلم ، فأنت تريد بهذا النداء إغراءه وحثه على بث الشكوى وإظهار التظلم .. وكقولك لمن يتردد فى الإقدام : يا شجاع تقدم ، تريد حثه على المضى والتقدم ...

٢ - الاختصاص : وهو تخصيص حكم علق به ضمير باسم ظاهر صورته صورة المنادى أو المعرف بال أو بالإضافة أو بالعلمية ، فقال كون الذال على التخصيص صورته صورة المنادى قولا كذا أنا أفعل كذا أيها الرجل .. ونحن نقول كذا أيها القوم .. واغفر انهم لنا أيها العصاة ، فالمراد بالمنادى هو المتكلم نفسه والمعنى : أنا أفعل كذا متخصصا من بين الرجال .. ونحن نقول .. متخصصين من بين الأقوام .. واغفر لنا متخصصين من بين العصائب .. ولا مانع من نداء الإنسان نفسه كما فى قول عمر رضى الله عنه : وكل الناس أفة منك يا عمر ، ومثال الاختصاص المعرف بال : نحن العرب أسخى من نذل ، وبالإضافة قوله - صلى الله عليه وسلم - : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، وبالعلمية : بنا تميا يكشف الضباب ..

والغرض من الاختصاص إما تأكيد مدلول الضمير .. كما فى قولك : أنا أفعل كذا أيها الرجل .. وإما إظهار المسكنة والتواضع كقولك : أنا أيها المسكين أطلب المعروف ، وإما الافتخار كقولك : نحن العرب أكرى للضيف

٣ - الاستغاثه : كقولك : يا الله . أى : أقبل علينا لإغاثتنا ..
ومنه قول الشاعر :

يا القوم وبالأمثال قومي لأماس عتسوم في ازدياد

٤ - الندبة وهي نداء المذموم منه أو المتفجع عليه : كقولك يا رأساه ..
يا عيناه .. واحمداه .. ومنه قول المتنبي :

واحر قلباه من قلبيه شيم ومن بحسنى وحالى عنده سقم

٥ - التعجب : كقولك وقد شربت ماء باردا حلوا : يا الله .. تريد
التعجب من برودته وتحلاوته .. ومنه قول امرئ القيس :

فيالك من ليل كان نحومه بكل مغار الفندل شدت بيندول
وفول الفرزدق يهجو جريرا :

فوا عجباً حتى كليب تسبى كان أباهما نشل او يحاشع
وقول الآخر :

فوا عجباً كيف اتفقنا فنامح وفي ومطوى علم الغيا قادر
٦ - الزجر : كما في قول الشاعر :

ياقلب ويحك ما سمعت لنامح أما ارعويت ولا اتقيت كلاماً
فهو يريد بالنداء زجر قلبه وتأنيبه لعدم استجابته للنصائح وارعوائه
عن هواه وصباهته .. ومثله قول الآخر :

أفزادى متى بالمتساب الما تصح والشيب فوق رأسي إلى

٧ - الوعيد : كما في قول المهمل متوعدا آل بكر :

ياالبكر أنشروا لي كليباً بالبكر أن أن الفرار

٨ - التنبيه : وقد يأتي حرف النداء لمجرد التنبيه وذلك عندما يدخل على الحروف ، كما في قوله تعالى « يَا كَيْتَبِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا » (١) ، وكما في قوله صلى الله عليه وسلم : « بَارِكْ كَاسَةً فِي الدُّنْيَا عَارِيَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

٩ - التحسر والتحزن : وذلك عند نداء الأطلال والمنازل والمطايا والقبور والأموات والويل والحسرة وما إلى ذلك ، كما في قوله تعالى : « وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا كَيْتَبِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَا وَيْلَتَى كَيْتَبِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا . لَقَدْ أَضَلُّنِي عَنِّي الدُّكْرُ بِمَعْدَةٍ إِذْ جَاءَنِي » (٢) وقوله تعالى : « أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ » (٣) ، فنداء الحسرة والويل في الآيتين يفيد التحسر والتحزن وإظهار الندم ، وكأنه يقول : يا ويلتي . يا حَسْرَتِي أَقْبَلَا ، فهذا هو أو أوانك . وكأنه أي الكافر لفة ط ماهد فيه صار يتخيل أن الويل والحسرة يسمعان ويحييان فتأداهما . . وهذا يعني عما بداخله من أحزان وآلام وتحسر وندم . .

ومن ذلك نداء القبر في قول الحسن بن مطير :
فتى عيش في معروفه بعد موته كما كان بعد السيل بجراه مرتعا
أيا قبر معن كنت أول حفرة
من الأرض خلعت السماحة مضجعا
وياقبن معن كيف وارت جوده ولو كان حبا منقت حتى تصدعا
ونداء الميت في قول العتيبي بن مالك :
أعداء ماللعيش بعدك لذة ولا لخليل بهجة بخليل

(١) سورة النساء آية ٧٣ .

(٢) سورة الفرقان آية ٢٧-٢٩ .

(٣) سورة الزمر آية ٥٦ .

أعداء ما وجدى عليك بهين ولا الصبر إن أعطيته بحميل

وفي قول الآخر :

دعوتك يا بنى فلم تجبني فردت دعوتي بأسا عليا

وقوله :

يادرة نزع من تاج والدها فأصبحت حلية في تاج رضوان

ونداء المنازل والديار كما في قول الشاعر :

يادارمية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد

وقول الآخر :

أما منازل سلمى أن سلك من أجل هذا بكيناها بكيناك

ونداء المناقة في قول حفص بن الأحنف السكاني :

فقرت قلوبهم من حجارة حرة بنيت على طاق اليمين وهرب

لا تنفري يا ناع منه فإنه شراب نحر مسمم لحروب

ونداء البرق في قول أبي العلاء المبرق :

فيا برق ليس الكرخ دارى وإنما رماني إليه الدهر منذ أبال

فهل فيك من ماء المهرة قطرة تغيث بها ظمآن أيس نعال

فهو راء تلك النداءات تمكن آلام الشعراء وأحزانهم وتحمسهم وكانهم
لفرط ما يجدون من الوجد والاسى توهموا أن تلك الأشياء تحس وتشعر ،
أو أرادوا أن يبرزوا ويصوروا للمخاطب أنها تشعر وتهى ، وعليها أن
تشاركهم آلامهم وأن تستجيب لنداءاتهم ، فالتبر في خيال الشاعر حتى يعقل
وعليه أن يجيب نداءه ، والمناقة تشعر بالآلام وتفرح لفرحه ونأس لتلك
الحجارة كما أنس .. والميت في قبره ينعم ويحيا ويرى ويسمع توهاته ...

والمنازل .. والبرق .. وغيرها .. تستجيب انداء المكروب وتشعر بالم
المآل .. ووراء ذلك تمكن آلامهم وأحزاهم — سم التي تذبذب من تلك
النداءات .. وهذا هو السر البلاغى وراء نداء تلك الأشياء ...

هذا والنداء يصحب - غالباً - الأمر والنهى والاستفهام ، وكأنه يعسد
النفس ويهيئها لتلقى تلك الأساليب ، ولذا فهي تتقوى به ، لأن النداء يوقظ
النفس ويلفت الذهن وينبه المشاعر ، وإذا ما جاء بعد الأمر أو النهى
أو الاستفهام صادى نفساً مهيأة يقظة . فيقع منها موقع الإصابة حيث تلتقاه
بحس واع وذهن متنبه .. ولذا كثر مصاحبة النداء لتلك الأساليب في
النظم الكرم على نحو ما ترى في الآيات الكريمة : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا
رَبَّكُمْ ..)^(١) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ..)^(٢) ..
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرُّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ..)^(٣) ..
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ
أَلِيمٍ ..)^(٤) ، وقد تجتمع هذه الأساليب جميعها كما في قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ تَبْخَسُوا لَئِنْ أَتَيْتُمْ
وَلَا يَفْتَقِبْ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ أَتُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا
فَكَرِهْتُمُوهُ ..)^(٥)

وبجد النداء في الآيات المذكورة - تقدم ، بل تلك الأساليب وقد يتأخر
عنها ، كما في قوله تعالى (وَاتُّبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ)^(٦) .

وقد تتقوى هذه الأساليب بغير النداء ، وذلك بأن يقع بعدها ما يحث

- | | |
|---------------------------|--------------------------|
| (١) سورة الحج آية ١ . | (٢) سورة المائدة آية ١ . |
| (٣) سورة المائدة آية ٨٧ . | (٤) سورة الصف آية ١٠ . |
| (٥) سورة الحجرات آية ١٢ . | (٦) سورة الزور آية ٣١ . |

عليها ، كما في قوله تعالى (وَصَلُّ دَلَامِيهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)^(١) ، فقوله :
 (إن صلاتك سكن لهم) حث على الصلاة وترغيب فيها .. ومنه قوله تعالى :
 (وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا
 بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ)^(٢) فقوله : (إنهم كفروا) حث على
 النهي وتنفير من الصلاة عليهم . ومن ذلك قول بشار :

بكرًا صاحبي قل الطهجير

إن ذاك النجاح في التكبير

فقوله : ، إن ذاك النجاح في التكبير ، حث على الأمر وترغيب فيه ...

أسلوب النفي : قالوا في أمر ينفه ، هو طلب أمر تحبه النفس وتميل إليه وترغب
 فيه ، راد كنهه لا يرجى حصوله إما لسكرته مستحيلاً ، أو لسكرته بعيداً لا يطمع
 في نيله .. والأداة الموضوعة له هي : أيت ، تقول في تمنى الأمر المحبوب
 الذي لا طمع فيه لسكرته مستحيلاً ، لا يمكن حصوله : أيت الشباب بموديو ما ..
 أيت الكواكب تدنولي .. ومن ذلك قوله تعالى : (فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى
 جِذْعِ النَّخْلَةِ قَائَتْ : يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَانِيًّا)^(٣) ،
 وقوله عز وجل : (يَا لَيْتَنَا كُنَّا نُرَدُّ وَلَا نُكْذِّبُ بَاتِ رَبُّنَا وَنَكُونُ مِنَ
 الْمُؤْمِنِينَ)^(٤) ، وقوله تعالى (وَبِئْسَ الظَّالِمُ مَن يَدِينُ يَقُولُ :
 يَا لَيْتَنِي اخْتَلْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا)^(٥) .. فريم تعنى أن تكون

(٢) سورة التوبة آية ٨٤ .

(٤) سورة الأنعام آية ٢٧ .

(١) سورة التوبة آية ١٠٣ .

(٣) سورة مريم آية ٢٣ .

(٥) سورة الفرقان آية ٢٧ .

قد ماتت قبل ذلك .. والكفرة يتمنون عند معاينة الحساب أن يردوا إلى الدنيا فيؤمنوا ولا يكذبوا ... والظالم يعض على يديه ندما ويتمنى أن يكون قد اتخذ مع الرسول سيلا ، وتلك الأمور الممتنة لا يرجى حصولها أبداً لكونها مستحيلة الوقوع . ومنه قول الشاعر :

ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب

وقول الآخر :

ليت الكواكب تدنو لي فأنظماها عقود مدح فما أرضى لكم كلنى
فالأمر الممتنى في البيتين لا يرجى حصوله لكونه مستحيل الوقوع .
ومنه قول علي بن الجهم :

سقى الله ليلاً ضمنا بعد فرقة وأدنى فؤاداً من فؤاد معذب
فيا ليت أن الليل أطبق مظلماً وأن نجوم الشرق لم تغرب

فقد ملا لقاء الحبيب عليه نفسه ، ولم يدع فيها مجالاً لوعى أو فكر ، فأخذ يدعو بالسقيا ليل الذي ضمهما بعد فرقة ، ولا معنى لسقيا الليل إلا فقدان الشاعر لوعيه وفكره . ثم أخذ يتمنى أمراً محالاً لا يرجى حصوله وهو أن يظل الليل مطبقاً عليهما بظلامه ، وأن تبقى النجوم فلا تغرب .. وتقول في تمنى الشيء المحبوب الذي يمكن حصوله ولكنه غير مطموح فيه لبعده مثاله : ليت لي مالا فأحج منه ، ليتني ألقى فلاناً فأنفع بعمله ، والبعده هنا بعد نفسي ، مردد إلى شعور النفس وإحساسها بذلك الشيء ، وقد لا يكون بعيداً بالنسبة للواقع أو العرف أو العقل ، ومن ذلك قوله تعالى :
(فَمَخْرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا : يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)^(١) فقد تمنوا أن يكون لهم

مثل تلك السكون التي تنوء مفاتيحها بالعصاة أولى القوة وهي أمنية عجيبة
لنفوسهم ، وليست مستحيلة ، بل هي ممكنة الوقوع ، وليكنهم لا يطعمون
فيها أبعد مناهل .. ومنه قول مالك بن الرب :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا
فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه
وليت الغضا ماشى الركاب لياليا

فقد تمنى الشاعر في البيت الأول أن يبيت ليلة بجنب الغضا، ذلك الوادي
الحبيب إلى قلبه ، وهذا غير محال ، ولكنه بعد المنال في نفس الشاعر الذي
أحس بدنو أجله فخاطب صاحبيه :

فيا صاحبي رحلي دنا الموت فاحضرا
برأية أني مقيم لياليا
وخطا بأطراف الأسنة مضجعي وردا على عيني فضل ردائيا
ولا تحسداني بارك الله فيكما
من الأرض ذات العرض أن توسعا لي
تذكرت من يبكي على فلم أجد
سوى السيف والرمح الرديني يا كيا

أما تمنه في البيت الثاني ألا يقطع الركب عرض الغضا وأن يمشى الغضا
الركاب ، فهو تمن للأمر المحال وقوعه وهذا ينبغي بمدى حب الشاعر وتعلقه
بهذا الوادي .. فإذا كان الممكن يطعم في حصوله ، صار طلبه ترجيا
وعندئذ تستعمل فيه الألفاظ الدالة على الترجى كـ *عسى* .. ومن ذلك
قوله تعالى : (وَمَا يَذُرِيكَ لَعَلُّهُ يَزْكِي أَوْ يَذْكُرُ فَعَفَيْتُكَ الذِّكْرُ سِي) (١) ،

وقوله عز وجل: (فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْفَتْحُ أَوْ أَمْرٌ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضَرِّحُوا عَلَى مَا أَسْرَدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ فَادْمِغِينَ)^(١) وكون الممكن مرجوا حصوله، مطدوما فيه أو بعيد الحصول لا طمع فيه، مرده - كما أشرت - إلى نفس المتكلم وإحساسه، فمثلا إذا كنت تطلب حصول مال وتوقعه وتطمع في وجوده ونبله قلت مترجما: لعل لي مالا فأحج به، وإن كنت غير متوقع له ولا طمع لك في نبله، قلت متمننا: لبت لي مالا فأحج به..

عرفت أن الأداة الموضوعة للتمنى هي «ليت»، وقد يتمنى بالفاظ أخرى غيرها لأغراض بلاغية.. ومن هذه الألفاظ أدوات الاستفهام مثل هل وأين ومتى، كما في قوله تعالى (قَالُوا: رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَخْيَيْنَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ؟)^(٢)، وقوله تعالى: (فَإِذَا بَرِقَ الْبَهَرُ. وَخَسَفَ الْقَمَرُ. وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ. يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ؟ هـ)^(٣). ويقول من وقع في شدة يستبعد زوالها: متى الخلاص؟، والسر البلاغي وراء التمنى بالاستفهام في الآيتين هو أن هؤلاء لشدة دهشتهم وفرط حيرتهم طارت عقولهم فظنوا أن غير الممكن صار ممكنا، فاستفهموا عنه، ولذا فإن الدلالة على التمنى بطريق الاستفهام تبرز المستحيل - كما في الآيتين - أو البعيد الحصول - كما في المثال - في صورة المستفهم عنه الممكن الوقوع، وهذا ينبىء بكمال العناية به وشدة الرغبة في وقوعه..

وقد يتمنى بلو كما في قوله تعالى: إِذْ تَبَرَأُ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ

(١) سورة المائدة آية ٥٣ .

(٢) سورة غافر آية ١١ .

(٣) سورة القامة آية ٧-١١ .

اتَّبِعُوا وَرَأُوا الْمَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا :
 لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا ^(١) ، وقوله تعالى : (أَوْ تَقُولَ
 حِينَ تَرَى الْمَذَابَ لَوْ أَنِّي كَرَّةً فَأَكُونُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) ^(٢) ، وقوله
 عز وجل : (فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ . فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً
 فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) ^(٣) . فلو في هذه الآيات الكريمة تفيد النفي بدليل
 نصب المضارع بأن مضمرة بعد الفاء المسبوقة بها ، والفرق بين النفي بـلو
 والمتمنى بليت هو أن النفي بـلو يزداد المتعنى فيه بعدا واستحالة وسباق الآيات
 الكريمة يفيء بهذا ، فقد وقع هذا النفي بعد رؤيتهم المذاب وتيقنهم وقوعها ،
 وهذا مما يزيد شعورهم باليأس واستحالة الرجوع إلى الدنيا ، ويرجع ازدياد
 التمنى بـلو ، بعدا أو استحالة إلى طبيعة دلالتها إذ هي حرف امتناع
 لامتناع .. ومن النفي بـلو شعرا قول القائل :

ولى الشباب حميدة أيامه لو كان ذلك يشتري أو يرجع

ولعلك تشعر بشدة استحالة النفي في البيت وهو رجوع الشباب ،
 وازدياد بعده عن قولك : أيت الشباب يعود ، ومرد ذلك كما قلت - إلى كون
 دلو ، حرف امتناع لامتناع .. ^(٤)

وقد يعنى بلعل كما في قوله تعالى : (وَقَالَ فِرْعَوْنُ : يَا هَامَانُ ابْنِ لِي
 صَرْحًا لَأَتِلَّ بِأَسْمَاءِ الْأَسْهَابِ . أَسْهَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطْلِعْ إِلَى آلِهَةِ مَوْسَى
 وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا) ^(٥) ، فهلوغ أسهاب السموات من الأمور المستعجيلة التي

(١) - سورة البقرة آية ١٦٧ . (٢) - سورة الزمر آية ٥٨ .

(٣) - سورة شعراء آية ١١٠ - ١٠٢ .

(٤) انظر دلالات التراكيب ٢١١ وبغية الإيضاح ٣٣/٢ .

(٥) سورة غافر آية ٣٦ .

لا يمكن وقوعها وهذا يقتضى استعمال أذا التمنى الأصاية : ، أيت ، ، ولكنه عدل عنها إلى د لعل ، التى تقييد الترجى لفرض الاغى وهو إبراز التمنى المحال فى صورة الممكن القريب الحصول وذلك ل كمال العناية به وشدة الرغبة فى وقوعه . . . ومنه قول الشاعر :

أمر ب القطا هل من يعير جناحه

لعل إلى من قد هويت أطير

وكما تستعمل لعل فى مقام : التمنى ، فقد تستعمل أيت فى مقام الترجى ، كما فى قول جرير :

أقول لها من ليلة ليس طارها كطول الأيالى ليت صبحك نورا

فانبلاج الصبح وهو أمر مترتب الحصول أبرزه جرير فى صورة البعيد الحصول فغير عنه بأيت ، وذلك لإبراز الشئ المرجو القريب الوقوع فى صورة الشئ البعيد إشعارا بعزته وامتناعه ، وهذا ينهى بمعاناة الشاعر وشعوره بامتداد الليل وطوله . . .

حروف التنديم والتحضيض : وهى : هلا وألا ولولا ولوما . . .

يرى السكاكى أن هذه الأحرف ، كأنها مأخوذة من هل ، ولو ، بقلب الهاء همزة فى ، ألا ، مركبتين مع د لا وما ، الزائدين ، لإفادتهما معنى التمنى ، وذلك ليتولد من التمنى الذى أفادته ، معنى التنديم فى الماضى ، كقولك : هلا أكرمت صاحبك . . . لولا قاتلت الأعداء ، ومعنى التحضيض فى المضارع ، كقولك : ألا تسكرم صاحبك ، لوما نجتهد فى عملك ، لأن تمنى ما فات يتولد منه التنديم وتمنى ما هو آت يتولد منه التحضيض ، وهذا الوجه فى تحليل دلالة تلك الأحرف على معنئى التنديم والتحضيض مبنى على افتراض أن استعمال : هل ولو ، فى التمنى سابق لاستعمال : هلا وألا ولولا ولوما ، فى التنديم والتحضيض ، لأنه يفترض أن المعنى الثانى مما تولد عن هذا الاستعمال ،

ولا وجه لإثبات ذلك الافتراض ، وبخاصة إذا لاحظنا أن هــ لو ، لم
توضعا للتمنى ، فاستعمالها فيه لأبد أن يكون قد جاء في مرحلة متأخرة من
استعمالها فيما وضعته له ، ويقترب على هذا أن يكون التنديم والتحضيز قد
جاء في الطور الثالث من استعمال الكلمتين ، على الرغم من أن التنديم
والتحضيز من المعاني التي يحسها الإنسان ويحتاج للعبارة عنها في نفس
المرحلة التي يعبر فيها عن معانيه القلبية والذهنية والتي منها التنى والاستفهام
وامتناع الشيء لامتناع غيره ، فإذا أضفنا إلى هذا أن هــ لو ، كانت في
الأصل بمعنى قد ، ثم أشربت معنى الاستفهام لطول ملالمتها الهمزة ، ازداد
هذا الوجه بعداً (١) ...

ولم يكن هذا البعد في وجه الدلالة خافياً على السكاكي ، ولذا تراه لم يقطع
به ، بل بناه على الاحتمال حيث قال : ، وكان حروف التنديم والتحضيز ،
هــ لا وألا بقلب الهاء همزة . ولولا ولوما ، مأخوذة منهما - أى من هــ لو -
مركبتين مع لا وما المزيدتين ، لتضمينهما معنى التنى ، ليتولد منه في الماضي
التنديم نحو : هــ لا أكرمت زيدا ، وفي المضارع التحضيز نحو : هــ لا
تقوم ... (٢) ... ولذا فإني أرجح ما قاله النحاة في وجه دلالة هذه الأحرف ،
حيث ذكروا أنها موضوعة للتنديم والتحضيز من أول الأمر ..

التعبير بالخبر في موضع الإنشاء : يقع الخبر في موقع الإنشاء وذلك
لأغراض بلاغية يقصد إليها البلاغي .. وأهمها ما يلي :

١ - التفاؤل وإظهار الحرص والرغبة في وقوع المعنى الإنشائي وتحقيقه
إدخالاً للسرور على المخاطب ، ويكون ذلك في ، الداء ، بأن يقصد المتكلم

(١) انظر دلالات التراكيب ٢١٣ .

(٢) انظر منتخب للمعجم ١٤٧ والإيضاح ج ٢ ص ٣٣ .

(١١) - عر الثاني ج ٢

طلب الشيء وتكون صيغة الأمر هي الدالة عليه ، أو طلب الكف وتكون بصيغة النهى هي الدالة عليه ، فيعدل عنهما إلى صيغة الإخبار بالماضى الدالة على تحقق الوقوع ، وفيه إشعار بأن الدعاء للمخاطب قد حصل وتحقق ... من ذلك قولك لصاحبك : وفقك الله للتقوى والعمل الصالح وسدد خطبك ورحمك وغفر لك . والمعنى : اللهم وفقه وسدد خطاه ورحمه ، وقولك : لا سمعت مكروها ولا رأيت شراً ، والمراد : اللهم لا تسمعه مكروها ، ولا تره شراً ، فعدل عن الأمر والنهى الدالين على الدعاء إلى الإخبار عنه بالماضى الدال على تحقق الوقوع تفاؤلاً وإظهاراً لحرص المتكلم على حدوث ذلك للمخاطب ، وإدخالاً للسرور عليه ... ومن ذلك قول الشاعر :

إن الثمانين - وبلغتها - قد أحوجت سمي إلى ترجان

فقوله : وبلغتها ، دعاء للسامع ، إدماراً : اللهم أطل عمره ، وبلغه هذه السن ، وقد عر عن ذلك بالماضى إظهاراً لرغبته وحرصه على تحققه ووقوعه ..

ومثله قول الآخر :

جزى الله عنا جعفرأحسين أزلفت

بنا نعلمنا في الواحسين فزلت

وقول الشاعر في رثاء عمر رضى الله عنه :

جزى الله خيراً من إمام وبارك

يد الله في ذاك الأديم الممرك

٣ - الاحتراز عن صورة الأمر أو النهى المشعرة بالاستعلاء تأدياً مع المخاطب حيث يقتضى المقام ذلك التأديب ، كقولك لمعلمك : ينظر إلى أستاذي لحظة ... لا يعاقبني أستاذي . . . ولو قلت : انظر بالأمر ، أو لا تعاقب بالهى ، لكان قولك بخلاً بما يقتضيه المقام من تأديب التلميذ عند مخاطبة أستاذه . .

٣ حمل المخاطب على تحقيق المطلب وتحصيله وذلك كقول الصديق لصديقه : « تزورني غدا ، وقول الأستاذ لتلاميذه : تأتوني كل صباح .. بدلا من زرتني واقتوني بصيغة الأمر ، وذلك لأن التعبير بصيغة الخبر يحتمل الصدق والكذب - كما عرفت - فلو أن الصديق لم يحضر لزيارة صديقه ألصق به الكذب ونسبه إليه ، وكذا التلاميذ إذا لم يأتوا كل صباح كما أخبر أستاذهم ، نسبوه إلى الكذب والصدوق به ، والصديق حريص على أن ينزه صديقه ويبعده عن الكذب ، والتلاميذ بحرصهم على أن يكون أستاذهم بمنأى عن الكذب ومنزها عنه ، ولذا كان التعبير بالخبر في موضع الإنشاء حاملا للمخاطب على تحقيق المطلوب وتحصيله ... ومن ذلك قول النبي - صلى الله عليه وسلم - لا يجتمع دينان في جزيرة العرب ، فالمراد : لا يجتمعوا في جزيرة العرب ، بالنهي وقد جاء بصيغة الخبر حملا للمسلمين على تحقيق ذلك وتحصيله ، والجهاد في سبيل رفع راية الإسلام حجة لا نعلموها راية .. ومنه قوله تعالى « الزَّانِي لَا يَنْفِكُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْفِكُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ »^(١) فقوله : « لا ينفك .. لا ينفكها » خبر أريد به النهي ، وفي بعض القراءات بالجزم على النهي ، وعلى قراءة الرفع يكون التعبير بالخبر في موضع الإنشاء أبلغ في الزجر وأكد ؛ لأنه يبرز المنهى عنه في معرض الواقع المحقق رغبة في حدوثه وحرصا على تحقيقه وحشا على الامتنال وسرعة الإجابة ..

ومثله قوله تعالى : « وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَيَالُوا الَّذِينَ أَحْسَنَّا »^(٢) ، وقوله عز وجل : « وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ »^(٣) فالعقود

(٢) سورة البقرة آية ٨٣ .

(١) سورة النور آية ٣ .

(٣) سورة البقرة آية ٨٤ .

على النهى أي : لا تعبدوا إلا الله ، لا تسفكوا دماءكم ولا تخرجوا أنفسكم ، وقد عدل عنه إلى الخبر حملاً للمخاطبين على تحقيقه وتحصيله وحثاً لهم على سرعة الإجابة والامتثال ..

التعبير بالإشياء في موضع الخبر : وقد يقع الإنشاء في موقع الخبر لأغراض ومقاصد يرعى إليها البلاغي .. أهمها :

١ - الاهتمام بالشيء ، كقوله تعالى : « قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ »^(١) . والمعنى : « وإقامة وجوهكم عند كل مسجد ، فعدل عن الخبر إلى صيغة الأمر ، تنبيهاً إلى وجوب الاهتمام بالمأثور به والحرص على تحقيقه ..

٢ - الرضا بالواقع حتى كأنه مطلوب ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » ، فالمعنى : « تبدأ مقعده من النار ، وقد عدل عنه إلى صيغة الأمر للدلالة على أنه مطلوب ، وأنه واقع يؤمر به ، وليس على الكاذب إلا الرضا وتنفيذ المطلوب وفي هذا ما فيه من الوعيد والتحذير والزجر .

٣ - الاحتراز عن مساواة اللاحق بالسابق ، كما في قوله تعالى : « قَالَ : إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوكُمْ أَنِّي بَرِيءٌ بِمَا تُشْرِكُونَ »^(٢) فالمعنى : « إني أشهد الله وأشهدكم فعدل عن ذلك إلى ما عليه النظم الكريم من التعبير بصيغة الأمر : « وأشهدوا » احترازاً عن مساواة شهادتهم بشهادة الله عز وجل ، وفيه أيضاً تعظيم لهود - عليه السلام - وإعلاء لشأنه وتحقير طغول الكفرة المشركين ، حيث أبرزه الأمر في صورة الأمر الذي يوجه إليهم الأمر ، وعليهم أن يخضعوا ويذعنوا وأن يستجيبوا لما يأمر به ..

(١) سورة الأعراف آية ٢٩ . (٢) سورة هود آية ٥٤ .

تنوع الأسلوب بين الخبر والإنشاء : وبعد أن عرفت الأساليب الإنشائية والخبرية ، وما بينهما من فروق دقيقة ، وما في اللغة العربية من طواعية لصرف الجملة عن الإنشاء إلى الخبر ، وعن الخبر إلى الإنشاء ... ينبغي لك أن تعلم أن المتكلم البليغ والأديب المقتدر هو الذي يعرف مواطن الكلام وما يقتضيه كل موطن منها ، فيورد كلامه ويضوع عباراته ملائمة للمقام ... وتنويع الأسلوب بين الخبر والإنشاء مما يجذب السامع ويحرك فكره ويدعوه إلى المشاركة بوجدانه وأحاسيسه ، فعلى البليغ مراعاة ذلك ، وأن يعرف المواطن التي تحتاج إلى حدة وانفعال وإثارة وتحريك فيورد فيها الأساليب الإنشائية من أمر ونهى واستفهام وتعجب وترجى وتمن ونداء ، وأن يعرف المواطن التي تقتضى السرد والحكاية ، فيورد بها الجمل الخبرية . وأما البليغ نماذج ثرية وأمثلة حية من الشعر العربي ... انظر إلى الشعر الجاهلي وتبين كيف كان الشاعر يتساءل ويأمر صاحبيه ويتمنى ويصف نااقته ورحلته ويتعجب مما يرى ويشاهد ، فتأتي أساليبه ملائمة للمقامات ومبينة على التنويع الذي يجذب السامع ويستقر على انتباهه .

الفصل الثالث

الفصل والوصل

الفصل والوصل بين المفردات أو بين الجمل باب دقيق المجزى لطيف المغزى ، جليل المقدار ، كثير القوائد ، غزير الأسرار ... وقد تنبه العلماء قديما لدقة هذا الباب وجعلوه البلاغة بأمرها حيث سئل أحدهم عن البلاغة فقال : البلاغة معرفة الفصل من الوصل (١) ... وقال عبد القاهر : ، وأهم أنه ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول فيه : إنه خفي غامض ودقيق صعب إلا وأهم هذا الباب أغمض وأخفى وأدق وأصعب ... ، (٢)

والوصل معناه العطف ؛ عطف الكلام بعضها على بعض ، سواء أكان هذا العطف للمفردات أم للجمل ، وسواء أكان بالواو أم بغيرها كالفاء وثم ودأو... والفصل هو ترك العطف ، هذا ما ذكره السكاكي .. ولكن البلاغيين جرت عادتهم في حديثهم عن الفصل والوصل أن يتجاوزوا عطف المفردات وعطف الجمل التي لها محل من الإعراب ، معلنين ذلك بأن عطف المفردات وكذلك الجمل التي لها محل من الإعراب ، أمره هين ويسير ، إذ لا يقصد به سوى مجرد التشريك في الحكم الإعرابي ، أما دقة الفصل والوصل فإنما تظهر في الجمل التي لا محل لها من الإعراب ... كما تجاوز البلاغيون العطف بغير الواو قائلين : إن الواو من بين حروف العطف هي التي لا تفيد سوى مجرد الإشراف في الحكم ومطلق الجمع ، فالعطف بها دقيق مشكل ، أما غيرها من حروف العطف فتفيد مع التشريك في الحكم معاني أخرى ، فالفاء تفيد :

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ٨٨٠

(٢) دلائل الإعجاز ص ٢٣٧ .

الترتيب والعقيب ، وشم تفيد الترتيب والتراخي و ، أو ، تفيد تردد الفعل بين شيئين أو التخيير أو الإباحة ، ولذا لم يشكل العطف بتلك الأحرف... (١) . وهذا الذي ذكره وإن كان لا يخلو من الصحة ، إلا أننا لا نعدم وجوها دقيقة وأسارا خفية نجدها كدائمة وراء العطف بغير الواو ، كما أننا لا نعدم وجوها أدق وأسارا أخفى تكمن وراء عطف المفردات والجل التي لها محل من الإعراب ... ولذا وإنا سنبدأ دراستنا للفصل والوصل بالإشارة إلى هذه الدقائق وتلك الأسرار ...

العطف بغير الواو : انظر إلى قول الله عز وجل : « وَأَنْتَ خَلَقْتَ الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْقَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَاقَةً فَخَاقَتْهَا الْعَلَاقَةُ مُضْغَةً فَخَاقَتْهَا الْمُضْغَةُ عِظَامًا فَكَسَّوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » (٢) ، نجد أن الجمل - ووصلت في الآيات الكريمة بحرفي العطف ، ثم ، و ، والفاء ، ، ووراء الوصل بهذين الحرفين تكون الدقائق والطاقف ، فقد بدأت بالخلق الأول ، خلق آدم عليه السلام من طين ، ولما أريد وصله بالخلق الثاني ، خلق التناسل ، عطف عليه بهم لما بينهما من التراخي ، ثم تحدثت الآيات عن أطوار الخلق ، فوصلت خلق العلقة بالنطفة ، بهم ، لما بينهما من التراخي ثم توالت الأطوار خلق المضغة فالعظام فكساء العظام لحماً ، موصولة بالفاء ، حيث لم يكن هناك تراخ بينها ثم وصل ثبوته لإنساناً بكساء العظام لحماً بحرفي العطف ، ثم ، إشارة إلى التراخي بينهما (٣) .. هذا وعندنا تتأهل ما عطف بهم نجده أدق وأبعد عما عطف بالفاء ، فقد نزل الاستبعاد عقلاً أو رتبة منزلة التراخي والبعد

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ٢٣١ والإيضاح ٦٢/٢ .

(٢) سورة المؤمنون آية ١٢ - ١٤ .

(٣) ارجع إلى الطراز ج ٢ ص ٤٤ ، ٤٥ .

الحسى ، فعطف بـ ثم ونزل القرب عقلا أو رتبة منزلة القرب الحسى ، فعطف بالفاء .. (١) ثم جاء قوله تعالى : « فتبارك الله أحسن الخالقين » معطوفاً بالفاء على تلك الجملة ، جلّت أطوار الخلق في هذا النظم المبدع لتنبيه الإنسان إلى مايجب عليه من المبادرة والإسراع إلى تعظيم الله عز وجل والإشادة بحسن خلقه وعجيب صنعته ، ولهذا نطق أكثر من صحابي بختام الآيات الكريمة : « تبارك الله أحسن الخالقين » قبل أن يملئها النبي - صلى الله عليه وسلم - لكتاب الوحي ، ويبتسم النقي عليه الصلاة والسلام قائلاً : « هكذا نزلت » .

وتأمل قوله تعالى : « قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ » . من أي شيء خلقه . من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره » (٢) ، ولاحظ كيف جاء تقدير الإنسان موصولاً بخلقه وإيجاده بالفاء : « خلقه فقدره » ، تنبيه على أن التقدير مرتب على الخلق وأنه لا تراخي بينهما . وكذا عطف إقباره على موته بالفاء أيضاً : « أماته فأقبره » ، إذ لا ملة بين الموت والإقبار ، ولما كان الزمان معتداً بين تيسير السبيل وتقدير خلقه ، وبين التيسير والإماتة ، وبين الإقبار والنشر جاءت هذه الجملة موصولة بـ ثم التي تفيد امتداد الزمن وإطالة المسافة : ... فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره وخذ قوله تعالى : « الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ » . وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي . وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي » (٣) وتأمل كيف عطفت الهداية هنا على الخلق بالفاء « خلقه » فهو يهدين ، بينما عطفت على الخلق والتقدير في سورة هبس بـ ثم : « من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره » . . . ويرجع هذا الاختلاف إلى السياق والمقام ، فالآيات في سورة الشعراء تتحدث عن إبراهيم - عليه السلام - والعطف بالفاء ينفي بقوة يقينه وكمال

(١) انظر روح المعاني ج ١٨ ص ١٥ .

(٢) سورة هبس آية ١٧ - ٢٢ . (٣) سورة الشعراء آية ٧٨ - ٨١ .

لإيمانه بربه ، فقد بلغ إيمانه مبلغا جعله لا يعتمد بما بين الخلق والهداية من طول الزمن وامتداد المسافة ، ولذا عطف هدايته على خلقه بالفاء : « خلقني فهو يهدين » ، أما في سورة عبس فالحديث عن الكافر قتل الإنسان ما أكفره . . . ولهذا جاء العطف بضم . . . وانظر في بنية الآيات تجد عطف السقي على الإطعام بالواو إذ المراد الجمع بينهما ذون مراعاة لترتيب ، و قدم الإطعام على السقي مراعاة لحسن النظم وناسق الآيات . ثم جاء عطف الشفاء على المرض بالفاء ، إشارة إلى حدوث وجبى الشفاء عقب المرض و ربيبه عليه ، وتنجيها إلى عظم المنة بالعافية بعد المرض بلا تراخ ، وانظر إلى حسن الأدب حيث أسند الشفاء إلى الله تعالى دون المرض و مرضت . . . يشفيني ، . . . ثم عطف الإحياء على الإمامة بضم لما بينهما من التراخي وامتداد الزمن .

وهذا السياق هو الذى يحدد كيفية الوصل بين الجمل ويعين حرف العطف الذى يتحتم استخدامه دون غيره ، انظر في قوله تعالى : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَمَعْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا » (١) . ثم تأمل قوله عز وجل : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ » (٢) نجد أن سياق الآية الأولى يتخذ عن الكفرة الذين مازالوا يحيرن . . . يعاندون ويكبرون ، ويرفضون قبول الهداية . . . « وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْمَدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا » فهؤلاء يمرضون عن الآيات فور تذكيرهم بها ولذا فاسب العطف بالفاء التي تفيد التعقيب : « ذكر آيات ربه فأعرض عنها » ، أما سياق الآية الثانية فتحدث عن المجرمين الذين انتهت حياتهم وماتوا على الكفر . . . « ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ

الَّذِي كُفِّرْتُمْ بِهِ تُسَكِّدُونَ . وَلَنَذِقَنَّهْمُ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَمِ دُونَ
الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ (١) فهو لاء قد استمرت ذكبرهم في الدنيا بالآيات وامتد زمانا
بعد زمان ثم أعرضوا عنها إعراضا نهائيا بالموت وهذا بلائهم العطف بشم
التي تفيد الامتداد والتراخي . . . ذكر آيات ربه ثم أعرض عنها لما من
المجرمين متقحمون . .

وبهذا يتضح أن العطف بغير الواو يكن وراءه من الدقائق والأسرار
واللطايف ما ينبغي إظهاره وتجليته ولا يمكن إغفاله والتغاضي عنه . . .

عطف المفردات : يذكر بعض البلاغيين أن المفردات يعطف بعضها
على بعض بالواو إذا كانت متناسبة متجانسة ، كما في قوله تعالى :
« قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَأُسْكِي وَنَحْيَاكِي وَتَمَآنَيْتُمْ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » (٢) فالصلاة
والنكاح والمحيا والممات أسماء متناسبة ، وكذا قوله تعالى : « قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ
رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالنَّبَغَى بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ
تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » (٣)
فالقوا حش والإثم والبغى والشرك والقول على الله ما لا يعلمون ، الفاظ
متجانسة متناسبة . ومثله قوله تعالى : « آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ
رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ » (٤)
فالله والملائكة والكتب والرسل أسماء بينها تناسب وتآلف . وهذا الذي
ذكره البلاغيون غير شديد ولم يعلم لهم ، لأن التناسب بين الفاظ والتلاؤم
والتجانس بين الكلمات مطلوب سواء أعطفت هذه الكلمات أم لم تعطف ،
وقد ذكرنا ذلك في علم البديع وسموه : مراعاة النظير ، فالتكلم ينبغي له

(٢) سورة الأنعام آية ١٦٢

(١) سورة السجدة آية ٢٠ ، ٢١

(٤) سورة البقرة آية ٢٨٥

(٣) سورة الأعراف آية ٣٣

أن يراعى التناظر والتجانس والتآلف بين ألفاظه وألا يباعد في القول ..
ولذا عاب نصيب على السكيت قوله :

أم هل ظمائن بالعايا يا فاعه

وإن تكامل فيها الأنس والشنب

فقد عقد عقدة عند سماءه ، ولما سأله السكيت : ماذا تعني ؟ أجاب : خطأك ،
باعدت في القول ، ابن الأنس ، من الشنب ؟ ألا قلت كما قال ذو الرمة :

لمياء في شفتيها حرة لعل وفي اللثات وفي أسنانها شنب

وعاب النقاد قول أبي تمام يمدح أبا الحسين محمد بن الهيثم :

زعمت هوأك عفا الغداة كما عفا عنها حلول باللوى ورسوم
لا والذي هو عالم أن النوى صبر وأن أبا الحسين كرم
مازلت عن سنن الوداد ولا غدت

نفسى على إلف سواك تحوم

حيث جمع بين مرارة النوى وكرم أبي الحسين وهما متباعدان لاتجانس بينهما ، والذي أرقع أبا تمام في هذا المريب هو محاولته التخلص من القول والانتقال إلى المديح ، ولكنه لم يحسن التخلص ووقع فيما وقع فيه من عدم التجانس بين مرارة الفراق وكرم الممدوح ... وقد انتهر البعض لأبي تمام فقالوا : الجامع خيالي لتفاوتهما في خيال الشاعر ، أو وهمى وهو ما بينهما من من شبه التضاد ؛ لأن مرارة النوى كالضد لحلاوة الكرم ، أو التناسب ، لأن كلا منهما دواء فالصبر دواء للألميل ، والكرم دواء للفقير ، وكل هذه تكلفات باردة ، لا تبرر خطأ أبي تمام ، إذ المتمد به هو التناسب الظاهر بين الكلمات والألفاظ ... وخلاصة القول أن التناسب والتجانس والتآلف بين الألفاظ ليس مقصوداً على كونها معطوفة ، بل لابد من مراعاة النظر بين المفردات سواء أكانت معطوفة أم غير معطوفة ...

كما يذكر البلاغيون أن الصفات لا يعطف بعضها على بعض إلا إذا كانت متضادة كما في قوله تعالى : « هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »^(١) أما إذا كانت غير متضادة فإنها تذكر بلا عطف كما في قوله عز وجل : « هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى »^(٢) وانظر إلى قوله تعالى : « عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَفَ لَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُمْ مَسَلَمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِعَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا »^(٣) نجد أن الصفات قد توالى بلا عطف إلا « ثيبات وأبكاراً » فقد عطفنا لما بينهما من التضاد .

ومن ذلك قوله تعالى : « التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ »^(٤) توالى الصفات بلا عطف ماعدا صفتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد جاءت الواو بينهما لأنهما متضادان ... وعندما يرى هؤلاء البلاغيون أن الواو قد جاءت بين صفتين ليس بينهما تضاد يحاولون أن يتلمسوا وجهاً من التضاد بينهما ، كما في قوله تعالى : « حَمْدٌ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ »^(٥) حيث عطف في الآية : « قابل التوب » على « غافر الذنب » وهما غير متضادين ولا يكن البلاغيون يتسفون عندما يحاولون إثبات وجه من التضاد بين الصفتين في الآية الكريمة ... فقد ذكروا أن المغفرة ترجع إلى السلب ، لأن معنى

(١) سورة الحديد الآية ٣ . (٢) سورة الحشر الآية ٢٣ ، ٢٤ .

(٣) سورة التحريم الآية ٥ . (٤) سورة التوبة الآية ١١٢ .

(٥) سورة طه الآية ١ ، ٣ .

« غافر » الذي لا يقبل العقوبة مع الاستحقاق ، وقبول التوبة يرجع إلى الإثبات ، لأن معناه قبول الندم والعذر وبين السلب والإثبات تضاد ... وقالوا أيضاً : إن الجمع بينهما لسر لطيف وهو إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين ، بين أن تقبل توبته فتكتب له صاعاً ، وبين أن تمحى ذنوبه ، كأنه لم يذنب ... وقالوا : إن المغفرة مختصة بالعبد وقبول التوبة مختص بالله تعالى ، فالحق عز وجل يغفر حملاً من تلقاء نفسه بفضل ، وحينما يغفر عن المذنب بسبب ندمه واعتذاره وتوبته^(١) ...

وما من ريب في أن هذا تعسف ظاهر ، ونحن في غنى عنه خاصة وأن ما قالوه من أن الصفات المتضادة يجب فيها «مظف بالواو قول غير سديد ، فقد نرد الصفات متضادة وبدون عطف كما في قوله تعالى : « إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ خَافِضَةٌ وَآفِئَةٌ »^(٢)

وكما في قول امرئ القيس :

مكر مفر ، قبل مدر ، معاً كجلمرد صخر حطه السيل من ، عل

كما ترد الصفات غير متضادة ومعطوفة ، مثل الآية المذكورة : « غافر الذنب وقابل التوب .. » ومثل قوله تعالى : « الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَا مَا غَفِرْنَا لَنَا ذُنُوبَنَا وَقَدْ آتَيْنَاكَ عَذَابَ النَّارِ الْعَابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُسْتَقِيمِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ »^(٣) ، وقوله عز وجل : « إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ .. الآية »^(٤) ، فالأولى والأجدر أن نهتم الدراسة البلاغية بالبحث عن الأسرار الكامنة وراء الواو وأن تكشف وتجلي سر مجيئها حين تأتي وسر تركها حين تترك ، فلهذا لا بد أن تفقد

(٢) سورة الواقعة آية ١ ، ٣ .

(١) انظر الطراز ٢/ ٣٦ .

(٤) سورة الأحزاب الآية ٣٥

(٣) سورة آل عمران الآية ١٦ ، ١٧

التغاير وعندما تأتي بين الصفات فإنها تفيد كمال انصاف الموصوفين بكل صفة منها على حدة ، انظر إلى قوله تعالى : « الصابرين والصادقين والقانتين ... » تجد أن الواو دلت على كمالهم في كل واحدة منها .^(١) .. وعندما تترك الواو وتأتي الصفات متوالية بلا عطف فإنها تفيد كمال اجتماعها في الموصوف ، نخذ قوله تعالى : « الثائمون العابدون الحامدون السائحون ... الآية .. » وقوله : « .. مسلمات مؤمنات قانتات ... » وتأمل فستجد أن ترك الواو أفاد أن هذه الصفات مجتمعة في الموصوفين ، وكأنها صفة واحدة ، فقد كرر الواو بين الصفات يفيد أنهم كاملون في كل صفة على حدة ، وتركها يفيد أنها مجتمعة فيهم ..^(٢)

وعلى هذا فقول امرئ القيس .

مكر مفر مقبل مدر معا كجلود صخر حطه السيل من عل

يفيد أن هذه الصفات قد اجتمعت في الجواد في وقت واحد من غير أن تكون مستقلة متغايرة ، ولو أنه قال : مكر ومفر ومقبل ومدر ، لما صح أن يقول معاً .. وكذا القول في الآية الكريمة ، ليس لوقتها كاذبة خافضة رافعة ، أي : منخفضة وترفع في زمن واحد ، ويقع منها الفعلان معاً ، ولو قيل في غير القرآن خافضة ورافعة ، لم يند ذلك .. وكذا قولنا : فلان كاتب شاعر يخالف : فلان شاعر وكاتب ، فالأول أفاد اجتماع الكتابة والشعر ، والثاني أفاد كمال انصافه بكل صفة على حدة ..

وكما تفيد الواو بين الصفات ، فقد تأتي بين الصفة والموصوف وبين الحال وصاحبها سواء أكانت الصفة مفردة أم جملة وسواء أكان الحال مفرداً أم جملة . انظر إلى قوله تعالى : « وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ

(١) انظر الكشاف ١/ ٢٦٣ .

(٢) انظر الكشاف ٢/ ٢٤٦ .

لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ»^(١) فالفرقان صفة للكتاب ، وقد عطفت عليه بالواو ،
وأفاد هذا العطف الجمع بين كونه كتاباً مبزلاً ، وفرقانا يفرق بين الحق
والباطل ، وخذ قوله تعالى : « وَاتَّخَذَ آتَيْنَا مُوسَىٰ زَهَّارُونَ الْفُرْقَانِ وَضِيَاءُ
وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ »^(٢) ، فضياء وذكراً : حال ممتدة للفرقان ، وقد جاءت
بالواو لتفيد الجمع بين كونه فرقانا وضياء وذكراً ..^(٣) .

واقراً قوله عز وجل : « سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْهُمُ كَذِبُكُمْ وَيَقُولُونَ
خَبْرَةٌ سَادِسُهُمْ كَذِبُكُمْ رَجَاءٌ بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَاتَّخَذُوكُم كَذِبُكُمْ
قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِدِينِهِمْ .. »^(٤) فقد عطفت الواو جملة الصفة « تأمنهم كلهم »
على الموصوف « سبعة » ، وهذا المعطوف أفاد - كما ذكر الزمخشري - شدة لصوق
الصفة بالموصوف ، وهذا يؤذن بثبات تلك الصفة وصوابها ، ولذا قال بعد
القرآين الأولين ، رجماً بالغيب ، ، وجاء عقب هذا القول : « ما يعلمهم
إلا قليل .. »^(٥) .

وإفادة الواو لشدة لصوق الصفة بالموصوف ، يمكن وراء ما نفيد من
معنى التخيير ، فكأن القائلين قد قالوا قولين ، قالوا : سبعة وقالوا : ثامنهم
كلهم ، ويتضح هذا في قولنا : جاء محمد غلامه يسمى بين يديه ، وجاء محمد
وغلامه يسمى بين يديه ، فالأول إخبار عن مجيء هذا حاله ، والثاني إخبار
عن المجيء وعن حاله وكأنك بعد الإخبار بالمجيء استأنفت إخباراً آخر عن
حال المجيء ..^(٦) .

وتأمل الآيتين : « وَمَا أَهْلُكُنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ .. »^(٧)

- | | |
|--|------------------------------|
| (١) سورة البقرة الآية ٥٢ . | (٢) سورة الانبياء الآية ٤٨ . |
| (٣) انظر الدلائل ص ١٣٣ والكشاف ١/١٠٤ . | |
| (٤) سورة الكهف الآية ٢٢ . | (٥) انظر للكشاف ٢/٥٥٧ . |
| (٦) انظر الدلائل ص ١٤١ | (٧) سورة الشراء الآية ٢٠٨ |

« وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَنكُومٌ .. »^(١) نجد أن الكتاب عما يمكن إخفاؤه وإنكاره ، أما المندزون فلا يتأتى إنكارهم ، ولهذا جاءت الواو بين الموصوف وجملة الصفة في الآية الثانية لتؤكد لصوق الصفة بموصوفها ، دفعا لما قد يقع من إنكار ، وجاءت الآية الأولى بدون الواو ، لأنها لا تحتاج إلى هذا التأكيد ، وجاء التأكيد - كما قلنا - من إفادة الواو لمعنى التغاير ، وكأنك تبتدىء بها إخبارا آخر ، ففرق بين أن تذكر قرية هذه الصفة جزء منها ، وأن تذكر قرية ثم تبتدىء وصفها لها .^(٢)

وقد زعم بعض البلاغيين أن الواو لا تدخل بين الصفة والموصوف فلا تقول : جاء زيد والكريم ، على أن الكريم هو زيد ، لأنه يستحيل عطف الشيء على نفسه ..^(٣) ... ولا يخفى عليك الآن رد هذا الزعم ، كما لا يخفى عليك أن عطف الصفة على الموصوف ، ليس عطفاً للشيء على نفسه ، بل إن الصفة تفيد معنى آخر ومرجع ذلك إلى ما تفيد الواو من معنى التغاير ...

هذا وعندما ننظر في المفردات المعطوفة ، وترتيبها في الكلام وتقديم ما قدم منها وتأخير ما أخر ، نجد كثيراً من الدقائق واللطائف والاعتبارات البلاغية .. تأمل قوله تعالى : « وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ .. »^(٤) وقوله عز وجل : « وَقَعْنِي رُبُّكَ أَلَّا تَنْهَدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا »^(٥) ، نجد أن عطف الوالدين والأرحام على ضمير لفظ الجلالة يدعو إلى الاهتمام بهم ، ويلفت وينبه إلى ما ينبغي لهم من حسن الرعاية ، وجميل المعاملة ، فلا يخفى عليك ما بين المعطوف والمعطوف عليه من تباعد وتباين وفي اقترانه به تشریف وتعظيم وحث على مزيد من البر والعطف ...

(٢) انظر دلائل الإعجاز ص ١٣٣ .

(٤) سورة النساء آية ١ .

(١) سورة الحجر آية ٤ .

(٣) انظر الطراز ٣٤/٢ .

(٥) سورة الإسراء آية ٢٣ .

• وترى في قوله تبارك وتعالى :

«وَأَنسِيهِمْ مِمَّا خَفَا مَنَّا أَنَّمَا وَأَنَا نَسِيٌّ كَثِيرًا...»^(١) ، تقديمًا للأنعام على الأناسي ؛ لأن في حياة الأنعام حياة للأنامي . . وقد يكون في التقديم تعظيم وتشريف المقدم كما في قوله تعالى : « فَأَرْسَلْنَاكَ مَعَ الَّذِينَ أُنْعِمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الَّذِينَ وَالْعَدَّةِ وَالشُّهَدَاءِ وَالْمَاجِلِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا... »^(٢) وقوله عز وجل : « وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُحَرِّرُونَ وَأَلْفَ نَصَارَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ... »^(٣) .

وقد يكون التقديم للترقي من العدد القليل إلى العدد الكثير كما في قوله تعالى : « فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ... »^(٤) وقوله : « .. جَائِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجِيحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ... »^(٥) أو للعدنى من الكثير إلى القليل كما في قوله تعالى : « قُلْ إِنَّمَا أُعْطِيكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى... »^(٦) ، أو مراعاة للتقدم الزمني كما قوله عز وجل : « وَعَدْنَا نَمُنِّعُكُمْ بِالنُّفُورَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ... »^(٧) إلى غير ذلك مما يمكن وراء عطف المفردات من دقائق وأسرار ...

• • •

الوصل والمصل بين الجمل : - عرفنا فيما سبق أن الجمل نوعان : جمل لها محل من الإعراب ، وجمل لا محل لها من الإعراب ، كما عرفنا أن الجمل التي لها محل من الإعراب حكمها حكم المفرد ، لأنها تقع موقوفة وتأخذ حكم الإعرابي ، فالعطف عليها يكون بمشابة العطف على المفرد ..

- | | |
|---------------------------|--------------------------|
| (١) سورة الفرقان آية ٤٩ . | (٢) سورة النساء آية ٦٩ . |
| (٣) سورة التوبة آية ١٠٠ . | (٤) سورة النساء آية ٣ . |
| (٥) سورة فاطر آية ١ . | (٦) سورة سبأ آية ٤٦ . |
| (٧) سورة التوبة آية ١١١ . | |

يقول جريد القاهر : « الجمل المخطوف بعضها على بعض ضارين ، أحدهما : أن يكون المخطوف عليها موضع من الإعراب ، وإذا كانت كذلك ، كان حكمها حكم المفرد ، إذ لا يكون للجملة موضع من الإعراب حتى تكون واقعة موقع المفرد ، وإذا كانت الجملة الأولى واقعة موقع المفرد ، كان عطف الثانية عليها جاريا مجرى عطف المفرد وكان وجه الحاجة إلى الواو ظاهرا ، والإشراك بها في الحكم موجودا . (١) ... وهذا لا يعنى أن الجمل التى لها محل من الإعراب لا تخضع لما تخضع له الجمل الأخرى التى ليس لها محل من الإعراب بل هى خاضعة لما تخضع له وما يجرى على هذه من أحكام الفصل والوصل يجرى على تلك ، بالإضافة إلى أن الجمل التى لها محل من الإعراب تختص بخضوعها لهذا الحكم الظاهر وهو وقوعها موقع المفرد ، فإذا أردنا إشراك الجملة الثانية للأولى في حكمها الإعرابي عطفنا بالواو مع مراعاة المناسبة أو الجهة الجامعة التى تسوغ العطف ، وإذا لم نرد التشريك في الحكم الإعرابي يمتنع العطف ... فتعالوا ننظر في هذا الحكم الذى تختص به الجمل التى لها محل من الإعراب ، ثم نمضى بعد ذلك إلى مواضع الفصل والوصل التى تخضع لها جميع الجمل ...

متى توصل الجمل التى لها محل من الإعراب ؟ ومتى يتعين فصلها ؟ : —
توصل الجمل التى لها محل من الإعراب ، إذا قصد تشريك الثانية للأولى في حكمها الإعرابي ، وكان بينهما مناسبة ، أى : جهة جامعة تسوغ العطف ، كما في قوله تعالى : « مَنْ ذَا الَّذِي يُفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .. » (٢) بجملة « يقبض » وتأت خبراً للفظ الجلالة ، وجملة « يبسط » عطف على الأولى ، لأن المقصد لإشراك الثانية للأولى في الحكم الإعرابي وهو وقوعها خبراً للبتداء ، وبين الجملتين تناسب ، إذ المسند إليه في كل منهما واحد وهو الله عز وجل ، وبين

المستدين 'د يقبض' ويبسط ، تضاد قهراً متناسبان ، وخير بلاغة الوصل في هذا الموطن أن الآية الكريمة تصور عظمة القادر ، وأنه بيده الأمر وإليه المرجع ، فالجمع بين القبض والبسط مما يحقق ذلك . ولو ترك العطف ففيل في غير القرآن : والله يقبض يبسط بدون الواو ، لكان ذلك موهماً أن قولنا : د يبسط ، رجوع عن قولنا : يقبض وإبطال له ، وما يبرز تلك العظمة أيضاً : عطف جملة د وإليه ترجعون ، على جملة والله يقبض ويبسط ، لما بينهما من التوسط بين الكمالين وعدم المانع من العطف . الآتي بيانه . وانظر إلى ما أفادته الآلاء ، في قوله د فيضاعفه له ، من الترتيب والتعقيب ... نظم بديع ودقائق عجيبة ، المتصدق المنفق في سبيل الله كأنه يقرض الله قرصاً حسناً ، والله عز وجل يعجل له الثواب بل ويضاعفه له أضاعفا كثيرة ، والذي يمار بمضاعفاته الثواب هو الله القادر .. الذي يقبض ويبسط وإليه المرجع والمآل ... حدث على البذل والعطاء وتأكيد للإجابة ما بعده تأكيد ..

ومن أمثلة العطف لقصد التشريك في الحكم الإعرابي قولنا : د فلان يعطى ويمنع ويضر وينفع ويأمر وينهى ويحسن ويسئ ويحل ويعقد ... تجد أن الواو قد أضفت على المعنى قوة وظهوراً حيث أوجبت للمستند إليه الفعلين معاً وجعلته يفعلهما جميعاً ، ولو قلت : يعطى يمنح .. يضر ينفع ، من غير واو لم يجب ذلك ، بل قد يجوز أن يكون رجوعاً عن الأول وإبطالا له .. وغالباً ما تستعمل مثل هذه الأساليب في مقام المدح الذي يحتاج إلى المبالغة وإظهار قوة الفعل (١) ...

تأمل قول أبي تمام مادحا :

لهان علينا أن نقول وتفعل

. وتذكر بعض الفضل منك وتفعل

(١) انظر دلائل الإعجاز ١٤٨ .

تجد أن جملة : د أن نقول ، قد وقعت فاعلا للفعل د هان ، ثم اشتركت معها
بقية الجمل في هذا الحكم فعطفت بالواو ، ولو أردت إسقاط هذه الواوات
ما استطعت إلى ذلك سبيلا ؛ لأنك تجد المعنى يمتنع عليك ، حيث أراد أبو تمام
أن يجمع بين مدحه وكرم الممدوح وبين ذكره لبعض فضائل الممدوح
وزيادة الممدوح في العطاء ... فأنى واو تطارعه في الذهاب دون أن يضييع
المعنى الذى قصد إليه الشاعر . ؟

وتأمل قول الآخر :

لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم
وأن تكف الأذى عنكم وتؤذونا

تجده قد قصد إلى الجمع بين الإهانة والإكرام وبين كف الأذى
والإيذاء ، ولا يخفى عليك مدى الترابط بين هذه الجمل ، وأنت لو حاولت
نزع جملة منها لاختل المعنى وضاع غرض الشاعر ..
ومن ذلك قول المتنبي :

وللسر منى موضع لا يناله نديم ولا يفضى إليه شراب
فقد اشتركت الجملتان : د لا يناله نديم ، ود لا يفضى إليه شراب ، في
وقوعهما صفة لموضع ، ومقام المبالغة في كتمان السر يقتضى هذه المشاركة ...
ومثله قول المعري :

وحب العيش أعبد كل حر وعلم ساعيا أكل المرار
اشتركت الجملتان : د أعبد كل حر ، ود علم ساعيا أكل المرار ، في
وقوعهما خبرا للمبتدأ د حب العيش ، ولو أسقطنا الجملة الثانية لضاع غرض
المعري ، حيث أراد : أن حب الحياة حبا شديدا والجري وراء متاع الدنيا
قد جعل الحر عبدا واضطر الإنسان إلى أن يحتمل الأذى ، وهذا المعنى
لا يتحقق إلا بالجملتين معا ...

وخذ قوله تعالى : « وَالَّذِينَ تَزْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ . . » ^(١) تجميد الجملتين : « لا يستطيعون نصركم » و « لا أنفسهم ينصرون » ، قد وقعتا خبراً للمبتدأ ، والجمع بينهما يحقق ما نهدف إليه الآية السكينة من تحقير هذه المعبودات ، وهذا لا يتم إلا بالجملتين معاً كما لا يخفى . . . إلى غير ذلك من الشواهد والأمثلة التي يكون هدف المتكلم من وراءها اشتراك الجملتين في الحكم الإعرابي . . كقولك : على يقول ويكتب . . . ألم تعلم أني أحترمك وأقدرك . . . لأن أحسنت وأسات . . . يكفيلك ما قلت وسمعت . . . أحسن أن تنمي عن شيء وتأتي مثله . . . ولا يخفى عليك وجه المناسبة بين الجملتين في كل مأمور من شواهد وأمثلة ، فإذا انعدمت المناسبة بين الجملتين امتنع اقترانهما ، فلا تقول : هو يكتب الشعر ويأكل السمك ، حيث لا مناسبة بين كتابة الشعر وأكل السمك . . . ولهذا عيب قول أبي تمام :

لا والذي هو عالم أن النوى صبر وأن أبا الحسين كريم

سواء أجعل من عطف المفرد على المفرد أي : عطف كرم أبي الحسين على مرارة النوى أم من عطف الجمل أي : عطف جملة : « أن أبا الحسين كريم » على جملة : « أن النوى صبر » ، ووقعهما مفعولاً به لقوله « عالم » . . وقد مر بنا البيت في عطف المفردات ووقفنا على دفاع من حاول الدفاع عن أبي تمام وأن يلتزم وجهاً للمناسبة بين كرم المندوح ومرارة الفراق . . .

وأذكرك هنا بما قلته هناك من أن المناسبة والتلاؤم والتآلف مطلوب بين المفردات وبين الجمل سواء أعطفت أم اقترنت بدون عطف ، فكمما لا يجوز أن تقول : هو يكتب الشعر ويأكل السمك ، فإنه يمتنع أيضاً قولك :

هو يكتب الشعر يأكل السمك ، بدون واو وكذا يمتنع الجمع بين مرارة الفراق وكرم المدوح بلا عطف ... فلا وجه إذا لما صنعه البلاغيون من قصرهم المناسبة على المفردات، والجمل المعطوفة ، لأن المناسبة بين المفردات أو الجمل المطلوبة عند اقترانها بالعطف أو بدون العطف .

هذا وقول البلاغيين : إن قصد التشريك في الحكم الإعرابي عطف ، (١) معناه : جواز العطف وأنه هو الغالب والأكثر ولا يفهم منه وجوب العطف ، لأن مرادهم أنك إذا لم تقصد التشريك في الإعراب يمتنع العطف حتى لا يتوهم خلاف المراد ، ومما يرجح هذا الزعم قوله تعالى : « الرَّحْمَنُ ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ . . » (٢) حيث اشتركت الجمل الثلاث في وقوعها خبرا للمستدأ ، وقد جاءت مفصولة كما ترى ... ومن ذلك قولنا : فلان أعناك بعد فقر . أهرك بعد ذل . كثرك بعد قلة . فعل بك ما لم يفعله أحد بأحد ، فإذا تنكر من إحسانه . . ؟

ومنه قول أبي هلال :

ووجه تشرب ماء النعيم فلو عصر الحسن منه أنعصر
يمر فأمنحه ناظري فينشر وردا عليه الخضر

ومجيء هذه الجمل المشتركة في الحكم الإعرابي منقطعة يشعر بأن كل واحدة منها تنهض بالغرض وحدها من غير أن ينضم إليها غيرها (٣) ...

— وكما قلت — فإن الغالب والأكثر أن تجيء الجمل التي قصد تشريكها في الحكم الإعرابي معطوفة ، على نحو ما مر بنا من شواهد ، بل أحيانا نجد أن هذا العطف واجب قد تعين وأن تركه يوم خلاف المراد كما رأينا في قوله تعالى : « والله يقبض ويبسط ، وقولهم : فلان يعطى ويمنع ويحل ويعقد ، .

(١) انظر الإيضاح ٦٣/٧ . (٢) سورة الرحمن آية ١ - ٤ .

(٣) ارجع إلى دلالات التراكيب ص ٣٠٤ .

وقول الشاعر :

لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم وأن نكف الأذى عنكم ونؤذونا

فترك العطف في مثل هذه الشواهد يوم لإبطال الجملة الأولى والرجوع عنها ، ومن ثم وجب وصلها حتى لا يتوهم خلاف المراد . .

فإذا لم يقصد تشريك الجملة الثانية للأولى في الحكم الإعرابي تعيين فصلهما . لأن الوصل عندئذ يوم خلاف المراد ، نأمل قوله تعالى : « وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ . . »^(١) ، نجد أن جملة : « اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » ، قد فصلت عن جملة : « إِنَّا مَعَكُمْ » ، حيث لم يقصد التشريك بينهما في الحكم الإعرابي ، جملة : « إِنَّا مَعَكُمْ » ، بقول القول ، وجملة : « اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » ، إخبار من الله عز وجل ، ولو وصلت بالأولى لأدى هذا الوصل إلى توهم أنها من «قول المنافقين» . فدفعاً لهذا التوهم تميز الفصل بينهما . . . أما فصل : « إِنَّا مَعَكُمْ » عن « إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ » ، فالكمال الاتصال الآتي بيانه ، وكذا لا يجوز عطف : « اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » على جواب الشرط : « قَالُوا » ، لأن استهزاء الله بهم غير مقيد بوقت خلوعهم إلى شياطينهم . . . ولاحظ الوصل بين جمعتي : « يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » و«يَعْمَهُونَ» في طغيانهم ، لوقوعهما خبراً للفظ الجلالة ، فالعطف لقصد التشريك في الحكم . . .

ومن ذلك قوله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَا يَشْعُرُونَ . . »^(٢) جملة : « أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ » لم يقصد تشريكها في الحكم الإعرابي بجملة : « إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ » ، لأنها ليست من مقولهم بل هي من كلام

(٢) سورة البقرة آية ١١، ١٢ .

(١) سورة البقرة آية ١٤، ١٥ .

رب العزة ، إخبار منه تعالى ، ولذا وجب الفصل بينهما حتى لا يتوهم غير المراد . .

ومثله قوله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ الْقَاسُ قَالُوا : أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا لَهُمُ الْهَمُّ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ » ^(١) فقد فصل : « ألا إنهم هم السفهاء » عن : « أنؤمن كما آمن السفهاء » حتى لا يتوهم أنها من كلام المنافقين : إذ هي من كلام رب العزة ، إخبار منه تعالى ، والوصل بهم أنها من مقول المنافقين ، وهو مالا يخفى فساد . . . ولاحظ في الآيتين الوصل بين جملتي : « إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » وبين جملتي : « إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون » ، والوصل بينهما للتوسط بين السكالمين مع عدم المانع من العطف - كما سنرى في مواضع الوصل

هذا وقصد التشريك في الحكم الإعرابي أو عدم قصده وإن كان ظاهرا بينا في كثير من التراكيب ، إلا أنه قد يدق ويلطف بحيث يحتاج إلى مزيد من التأمل والنظر . . انظر في قوله تعالى : « قُلْنَا وَضَعْنَاهَا قَائِلٌ : رَبِّ إِنِّي وَضَعْنَاهَا أَنْتَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الَّذِي كَرِهَ كَأَلَّا نُنْثَى وَإِنِّي سَمِعْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . . » ^(٢) فقد يقول صاحب النظرة العاجلة إن الجمل : « رب إنني وضعتها أنثى . . » ليس بالذكر كالأنثى ، وإن سميها مريم ، وإن أعيذها ، من مقول مريم ، أما جملة : « والله أعلم بما وضعت » ، فمن كلام الله تعالى وقد جاءت موصولة بمقولات مريم ، ولكن عندما يتأني هذا العاجل ويتأمل يتضح له أن هذه الجملة : « والله أعلم بما وضعت » جملة اعتراضية وليست مبطونة على مقولات مريم ، وهنالك قراءة بضم تاء : « وضعت » ، وعلى هذه القراءة تكون الجملة من

(٢) سورة آل عمران آية ٣٦ .

(١) سورة البقرة آية ١٢ .

مقولات مريم ، ويكون في التركيب التفات من الخطاب في درب ، إلى الغيبة في : ، والله ، ثم التفات ثان إلى الخطاب في : ، وإني أعينها بك . . . ، ووراء هذا الالتفات سر بلاغي دقيق وهو الإشارة إلى بعد المنزلة وعلو المسكنة وكال علمه تعالى ثم إلى قربيه من عبادته فهو أقرب إليهم من جبل الوريد ، ولذا عندما دعت مريم خاطبت : درب إني . . . وإني أعينها بك وذريتها . . . وعندما أخبرت عن علمه ، التفت إلى الغيبة : ، والله أعلم بما وضعت ، ففي هذا الالتفات إنباء ببعدها المنزلة وعلو المسكنة وكال علم الله تبارك وتعالى . . .

وبخلاصة القول أن الجمل التي لها محل من الإعراب إذا قصد إشراكها في الحكم الإعرابي وصلت ، وقد ترد نادرا بلا وصلا . . . وإذا لم يقصد التشريك وجب فصلها ، لأن الوصل عندئذ يوهم خلاف المراد . . . وهذا الحكم يختص بما هو واضح بالجل التي لها محل من الإعراب ، ثم هي تخضع لأحكام فصل ووصل الجمل التي ليس لها محل من الإعراب ، والتي سنتحدث عنها الآن . . .

مواضع الفصل : ذكر البلاغيون أن الفصل بين الجمل ينحصر في خمسة مواضع هي :

١ - كمال الاتصال : وهو أن تتفق الجملتان في الإنشائية أو الخبرية لفظا ومعنى أو معنى فقط ، ويكون بينهما من الاتصال والاتحاد والتلاحم ما يمنع العطف بالواو ، لأن العطف وصل خارجي ، وهذه الجمل قد صار ما بينهما من التلاحم والاتصال والترابط أقوى وأشد من الربط الخارجي ، ولذلك ينبغى أن نقول : ترك العطف بين هذه الجمل لقوة اتصالها وشدة ترابطها ، ولا يقال : فصل بينها ، وترجع قوة اتصال تلك الجمل وشدة ترابطها إلى أمور ثلاثة : ..

الاول : أن تكون الجملة الثانية مؤكدة للأولى تأكيداً لفظياً أو معنوياً

انظر إلى قوله تعالى : « قَسَمَ الْكَافِرِينَ مِنْهُمْ بِدَأْ »^(١) ، تجد أن الجملة الثانية : « أمهم رويدا » ، توافق الجملة الأولى في اللفظ والمعنى وأنها تؤكد لفظي لها ، ولذا صارت الجملة قرينة بين الجملتين فلا تحتاج إلى ربط بالواو ؛ لأن التوكيد والمؤكد كالشيء الواحد ، ومن ثم ترك العطف لعدم صحة عطف الشيء على نفسه ..

وتأمل قوله تعالى : « ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ »^(٢) تجد أن الجملة الأولى : « ذلك الكتاب » ، أفادت : أن القرآن الكريم هو الكتاب الكامل الذي بلغ الغاية القصوى في كمال الهداية وترجع هذه الإفادة إلى تعريف الطرفين : تعريف المسند إليه باسم الإشارة الدال على البعيد ، ذلك ، إشارة إلى بعد المنزلة وعلو المكانة ، وتعريف المسند بالالف واللام « الكتاب » ، جملة « لا ريب فيه » ، تفيد في الريب غنّه وأنه لا يتطرق إليه شك ، وهذا تقرير وناكد لمعنى الجملة الأولى ، إذ لمزم من بلوغ القرآن الكريم درجة الكمال ألا يكون محلا للريب والشك ، فجاءت جملة « لا ريب فيه » مقرونة لهذا المعنى ، ومؤكدة له .. وجملة « هدى للمتقين » ، تفيد بلوغ القرآن في الهداية مباحا لا يدرك كنهه ، حتى كأنه هداية محضة ، وهذا مأخوذ من تنكير « هدى » ، الذي يدل على التعميم ، ومن أنه لم يقل « هاد » ، بل « هدى » ، وهدى خبر لمبتدأ محذوف أى هو هدى ، فهو الهداية نفسها ، ولا يخفى عليك تأكيد هذه الجملة لمعنى الجملة الأولى : « ذلك الكتاب » ، ولذا ترك العطف بين هـه الجمل لأن بينهما اتصال قوى فمى لا تحتاج إلى ربط بالواو ..

وخذ قوله تعالى : « وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ نَالُوا : إِنَّا مَعَكُمْ لَإِنَّمَا

تَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ» (١) ، جملة « إنما نحن مستهزئون » ، مؤكدة لجملة « إنا معكم » ، لأنهم ما دأوا مستهزئين بالإسلام وأهله ، فهم مستهزون في معية شياطينهم ... ولاحظ أن الجملتين قد وقعتا مقولا للقول وهذا يؤكد ما قلناه لك من أن الجمل التي لها محل من الإعراب تخضع لمواضع الفصل والوصل التي تخضع لها الجمل التي ليس لها محل ... وتأمل قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا . . » (٢) ، تجدد أن جملة : « لا يؤمنون » مؤكدة لجملة : « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم » ، لأن معنى الثانية : يستوى عندهم الإنذار وعدمه ، وجملة : ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ... ، تأكيد ثان أبلغ من التوكيد الأول لأن من كان حاله إذا أنذرته حاله إذا لم ينذر ، كان في غاية الجهل وكان مطبوعا على قلبه لا محالة ، ولذا ترك العاطف بين هذه الجمل الثلاث لما بينها من كمال الاتصال .. كما تجد أن جملة : « يخادعون الله والذين آمنوا » مؤكدة لجملة « آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين » . لأن من يضم خلاف ما يظهر فإنه يخادع .. وانظر في قوله تعالى : « وَإِذَا بُتِلَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا وَبُرِّهَ كُفْرًا كَانُوا لَمْ يَسْمَعُوا كَأَن فِي أذُنَيْهِمْ وَقْرًا » (٣) تجد أن جملة « كان في أذنيه وقرا » ، مؤكدة لجملة : « كان لم يسمعها » ، لأن معنى « كان لم يسمعها » : أنه لم يسمعها مصادفة أو قصدا لعدم سماعها ، ومعنى الثانية : أنه لم يسمعها لفساد سمعه ، فلما كانت الثانية مقرررة ومؤكدة للأولى ترك العطف لما بينهما من كمال الاتصال ...

(٢) سورة البقرة الآيات ٦ - ٩ .

(١) سورة البقرة آية ١٤ .

(٣) سورة لقمان آية ٧ .

هذا - وكما ذكرت لك - أن الجملة الثانية المؤكدة للأولى ، إما أن تكون بمثابة التوكيد اللفظي ، وهو ما يكون مضمون الجملة الثانية فيه مؤكداً لمضمون الجملة الأولى لاتفاق مفهوميهما كما رأينا في الآية الكريمة : « فويل للكافرين أنهم لم يؤمنوا » . وكما في الآية الكريمة : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » . الجملة « هدى للمتقين » ، يتفق مفهومها مع جملة : « ذلك الكتاب » . لأن السكال فيهما كمال في الهداية - كما رأينا - ، وإما أن تكون الثانية منزلة من الأولى منزلة التوكيد المعنوي وهو أن يختلف مفهوم الجملتين ، ويكون معنى الثانية مقراً لمعنى الأولى على نحو ما رأينا في الشواهد المذكورة ، وهذا يعني أن الجملة الثانية تتضمن معنى جديداً ، وليكنه يؤكد معنى الأولى . . . تأمل الآية : « كان لم يسمح بها كان في أذنيه وقرا » ، تجد أن الجملة الثانية تحمل معنى جديداً يخالف معنى الأولى ، وليكنه يؤكد ويقرر . . . وتأمل الآية : « ذلك الكتاب لا ريب فيه » ، تجد أن جملة : « لا ريب فيه » ، تحمل معنى جديداً وهو نفي الريب عن القرآن ، وهذا المعنى يؤكد ويقرر معنى الجملة الأولى : « ذلك الكتاب » . وانظر في قوله تعالى : « اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ . . . » (١)

وتأمل شدة التلاحم وقوة الاتصال بين الجمل في هذا القول الكريم ، ثم لاحظ أن كل جملة تحمل معنى جديداً يغاير معنى الأخرى ، وليكنها تصب جميعاً في جهة واحدة ، وتهدف إلى غاية واحدة ، ألا وهي توكيد الوحدة . . . (٢) .

ومن أفوالهم في هذا الصدد قول المتنبي :

وما الدهر إلا من رواق قصائدى إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً

(١) سورة البقرة آية ٢٥٥ . (٢) ارجع إلى دلالات التراكيب ٣١٥ .

فالشطر الثاني لم يعطف على الشطر الأول ، لأنهما قد اتحدتا في المعنى واللفظ ، فلا حاجة إلى وصلهما بالواو لقوة الرابطة وشدة الاتصال بينهما ..
وقول الآخوص :

إذا رمت عنها سلوة قال شافع من الحب ميعاد السلو المقابر
ستبقى لها في مضمرة القلب والحشا
سريرة حب يوم تبلى السرائر

الجملة : « ستبقى لها .. » مؤكدة ومقررة للجملة : « ميعاد السلو المقابر »
ولذا ترك العاطف ، لأن شدة الترابط وكال الاتصال بينهما لا يجوز أن يليه ..

الثاني : أن تكون الجملة الثانية منزلة من الأولى منزلة بدل السكل أو البعض
أو بدل الاشتمال ، من ذلك قوله تعالى : « وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ .
أَمَدَّكُمْ بِأَنْفُسِكُمْ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ »^(١) فصات الجملة الثانية : « أمدكم
بأنفسكم .. » ، عن الأولى : « أمدكم بما تعملون » ، لأن الثانية بمثابة بدل البعض
من الأولى ، حيث إن النعم الأربع المذكورة بعض من النعم التي يعلمونها ،
فبين الجملتين ترابط قوي ، وكال اتصال ، لا يحتاج معه إلى ربط بالواو .. ومثله
قوله تعالى : « يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ »^(٢) .
فقوله : « يفصل الآيات » بدل بعض من قوله : « يدبر الأمر » ، لأن
تدبير الأمر يشمل تفصيل الآيات وغيره .. وخذ قوله تعالى :
« بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ . قَالُوا إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا
لَمَبْعُوثُونَ »^(٣) تجد أن الجملة الثانية بمثابة بدل السكل من الجملة الأولى .. وقوله

(١) - سورة الشعراء آية ١٢٢ - ١٢٤ . (٢) - سورة الرعد آية ٢ .

(٣) - سورة المؤمنون آية ٨٢ ، ٨١ .

عز وجل : « قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . اتَّبِعُوا مَنِ لَّا يُسْأَلُكُمْ أَمْرًا
وَمُكُمْ مُتَعَدُّونَ » (١) ، فصلت الجملة الثانية « اتَّبِعُوا مَنِ لَّا يُسْأَلُكُمْ أَمْرًا »
عن الأولى : « اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ » لأن الثانية بمنزلة بدل الاشتغال من الأولى ،
إذ المزايا من الأولى حمل المخاطبين على اتباع الرسل ، والجملة الثانية أوفى
بهذا ، لأن معناها : لا تخسرون شيئا من دنياكم وتركبون صحة دينكم ، فيكون
لكم حظ من الدنيا وجزاء الأجر في الآخرة .

ولا ينبغي عليك أن الجملة الثانية التي هي بمثابة البدل أوفى بتأدية المعنى
من الأولى بقوله : « أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون ، أوفى بتأدية المعنى
المراد من قوله : « أمدكم بما تعلمون » حيث دلت على المعنى بالتفصيل من
غير إخلال إلى علمهم وهم المعاندون . . . وانظر في قول القائل :

أَقُولُ لَهُ أَرْحَلْ لَا تَقُمْزْ عِنْدَنَا وَإِلَّا فَتَكُنْ فِي السَّرِّ وَالْجَهْرِ مُسْلِمًا
تجد أن قوله : « لَا تَقِيمَنَّ » بدل اشتغال من قوله « أَرْحَلْ » ، وقوله
« لَا تَقِيمَنَّ » أوفى بتأدية المراد ، إذ المقصود : إظهار شدة الكراهة لإقامته
بسبب خلاف سره العلن ، وقوله : « لَا تَقِيمَنَّ » يحقق ذلك ، لأنك إذا قلت :
لَا تَقُمْ عِنْدِي ، لم تقصد كفه عن الإقامة لحسب ، وإنما تقصد إظهار الكراهة
لإقامته .

الأمثلة : أن تكون الجملة الثانية بيانا للجملة الأولى ، كما في قوله تبارك
وتعالى : « فَرَسَّوسَ إِلَى الشَّيْطَانِ قَالَ : يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ
الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى » (٢) في الجملة الأولى : خفاء وإيهام ، وفي الثانية بيان
وإيضاح له ، والبيان والمبين كالشيء الواحد فلا يعطى أحدهما على الآخر
لما بينهما من قوة الترابط وكمال الاتصال . . . وتكون بلاغة هذه السورة في

أن للبيان بعد الإيهام وقعا في النفس وأثرا حسنا ، قالشى . إذا أبهم تطلعت
إليه النفس واشتاتت لبيانه ، فإذا ما جاء البيان صادف نفسا بقطة متطلعة ،
فيتمكن فيها فضل تمكن ...

ومن شواهد كذلك قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؟ » ^(١)
جمله الاستفهام بيان لقوله : « اذكروا نعمة الله عليكم » ... وقوله عز وجل :
« وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا : مَا أَغْنَىٰ
عَنْكُمْ جَعْلُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ » ^(٢) جملة : « قالوا : ما أغنى
عنكم » ، بيان لجمله . « نادى أصحاب الأعراف » .. وانظر في قول لبيد :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجرب
يتآكلون مغالة وخيانة ويعاب قائلهم وإن لم يشغب
تجد أن قوله : « يتآكلون مغالة وخيانة » ، بيان لقوله : « بقيت في خلف
كجلد الأجرب » ...

وخذ قوله تعالى : « وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ
الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ .. » ^(٣) ، تجد أن جملة :
« يدبحون أبناءكم » ، والجمله المعطوفة عليها : « ويستحيون نساءكم » ، بيان
ولإيضاح الجملة : « يسومونكم سوء العذاب » ، ولذا لم يعطفا عليها بالواو
لما بينها من شدة ترابط وقوة تلاحم وكال اتصال ...

ثم انظر في قوله عز وجل : « وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ

(٢) - سورة الأعراف آية ٤٨ .

(١) - سورة فاطر آية ٣ .

(٣) - سورة البقرة آية ٤٩ .

عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدَّبْحُونَ
أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَعْبِدُونَ نِسَاءَكُمْ. وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١) ،
تجد أن الواو في هذه الآية من سورة إبراهيم قد وصات جملة : ، يسومونكم
سوء العذاب ، ، ويذبحون أبناءكم ، وذلك لأن المقام مقام تذكير بنعم الله
تعالى ... ، اذكروا نعمة الله عليكم ... ، وهذا يقتضى تعداد النعم ، لجمل
الإجاء من سوم العذاب نعمة ، وإجاء الأبناء من التذبيح نعمة أخرى ،
وكان التذبيح جنس آخر لأنه أرفى على جنس العذاب وزاد عليه ، ثم جاء
إجاء النساء من الاستحياء نعمة ثالثة ، أما في سورة البقرة فلبس المقام مقام
تذكير بالنعم ، بل هو سرد للقصة وعرض لها وهذا قد اقتضى أن تكون
الجملة الثانية وما عطف عليها : ، يذبحون أبناءكم ويستعبدون نساءكم ، بيانا
وتفسيرا للجملة الأولى : ، يسومونكم سوء العذاب ، وليستا جنسين آخرين
مغايرين لسوم العذاب ...

يقول الزمخشري : ، فإن قلت : في سورة البقرة ، يذبحون ، وفي
الأعراف : ، يقتلون ، وهما : ، ويذبحون ، مع الواو ، فما الفرق ؟ قلت :
الفرق أن التذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيرا للعذاب وبيانا له ، وحيث
أثبت جعل التذبيح لأنه أوفى على جنس العذاب وزاد عليه زيادة ظاهرة كأنه
جنس آخر ... (٢) :

وهذا هو شأن الواو عندما تأتي بين الجمل التي بينها كمال اتصال وقوة
ترابط ، لأن ما فيها من معنى التغاير الذي لا يبرحها ينعكس على هذه الجمل
فيوم أنها معان متباينة ومختلفة ، ووراء ذلك تكون الأمرار والدقائق اللطيفة .
انظر إلى قوله تعالى : ، قَالُوا : إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ . مَا أَنْتَ إِلَّا
بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣) ، ثم إلى قوله عز وجل

(١) سورة إبراهيم آية ٦ . (٢) الكشاف ٢/٣٦٨ .

(٣) سورة الشعراء آية ١٥٣ ، ١٥٤ .

في نفس السورة عن قوم شعيب : « قَالُوا : إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ . وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ . فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ »^(١) ، نجد أن الواو قد ذكرت بين جملتي : « إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ ، » « مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ، » في مقالة أصحاب الأيكة لشعيب ، وتركت في مقالة ثمود لصالح ، ويعمل الزمخشري ذلك بقوله : « فَإِنْ قُلْتَ : هل اختلاف المعنى بإدخال الواو ههنا وتركمها في قصة ثمود ؟ ، قلت : إذا أدخلت فقد قصد معنيان كلاهما منافي الرسالة عندهم : التسخير والبشرية ، وأن الرسول لا يجوز أن يكون مسحراً ولا يجوز أن يكون بشراً ، وإذا تركت الواو فلم يقصد إلا معنى واحد وهو كونه مسحراً ثم قرر بكونه بشراً مثلهم .. »^(٢) . . . وكان أصحاب الأيكة أرادوا أن يعددوا في مقالاتهم الأسباب المنافية للرسالة ، ولذا أضافوا : « وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ، » فصارت الأسباب ثلاثة : كونه مسحراً وكونه بشراً وكونه من الكاذبين ، أما ثمود فكانهم لم يقصدوا تعدد هذه الأسباب ولذلك ذكروا سبباً واحداً وهو كونه مسحراً ثم قرروه بكونه بشراً . . . وخذ قوله تعالى : « وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ »^(٣) .. وقوله عز وجل : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا »^(٤) وتأمل تجد أن جملة : « وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ » ، مؤكدة ومقرزة للجملة قبلها : « نَجَّيْنَا هُودًا .. » ، وكذا جملة : « وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا » ، مؤكدة لقوله : « أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ .. » ، فبين

(١) سورة الشعراء آية ١٨٥ - ١٨٧ . (٢) الكشاف ٣/ ١٢٧ .

(٣) سورة هود آية ٥٨ ، (٤) سورة الاحزاب آية ٧ .

(١٢ - علم المعاني ج ٢)

الجلتين كال اتصال، وعلى الرغم من ذلك لم تترك الواو، بل جىء بها لغرض لطيف وسر دقيق، وهو التنويه بشأن الميثاق، والتفخيم والتهويل من شأن العذاب، ولذا وصف كلا منهما بالغلظ، فالعطف بالواو مع الوصف بالغلظ يوهم أن الميثاق المأخوذ من النبيين صار كأنه ميثاق آخر مغاير للأول، وأن العذاب الذى نجى منه هود ومن معه صار كأنه عذاب آخر غير الأول وفى هذا ما ينسب بعظم الميثاق ويومئ إلى هول العذاب وفظاعته .. وانظر فى قول الشاعر :

أبى إن أهلك فإنى قد بنيت لكم بنية
وجعلتكم أبناء سادا . ت زنادكم ورية

تجد أن جملة : « جعلتكم أبناء سادات » ، بيان لجملة : « بنيت لكم بنية » ، وقد وصلها الشاعر بالواو التى تقتضى المغايرة ، وذلك لتمييز المعنى الذى دخلت عليه الواو فى باب الشرف والسيادة ، وكأنه يريد أن يجعله فوق ما ذكره فى البيت الأول ومتميزا عنه ...

ثم تأمل الآيات الكريمة : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِإَدْرٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ... » (١) .. « فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ ... » (٢) .. « يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ... » (٣) .. « أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » (٤) .. « أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » (٥) فلا يخفى عليك

(٢) - سورة البقرة آية ١٩٨ .

(١) - سورة الحشر آية ١٨ .

(٤) - سورة البعد آية ٥ .

(٣) - سورة آل عمران آية ١٣٠ .

(٥) - سورة البقرة آية ٥ .

بحىء الواو فى هذه الآيات بين جمل بينها قوة ترابط وشدة تلاحم وكال اتصال ، وأن هذا المحيى ينفى بيمان دقيقة وأمر لطيفة ، فتكرار الأمر بالتقوى ، وعطف أحدهما على الآخر يؤذن بأن الأمر الثانى غير الأول ، ووراء ذلك إعلاء لشأن التقوى وحث عليها . وكذا وصل الأمرين بالذكر ، فاذكروا الله . . . واذكروهم . . . ، إعلاء لشأن الذكر وحض عليه ، وكان الأمر الثانى غير الأول . . . وفى عطف الاصطفاة على الاصطفاة : وإن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك . . . إيهام بأنهما متغايران وكان الله اصطفاها أولاً ثم رجع فاصطفاها ثانياً ، وفى هذا مزيد تكريم ، ومثله عطف الفلاح على الهدى . . . ذاك لك على هدى . . . وأولئك هم المفلحون ، وفى آية الرعد أبرزت الواو ثلاث صور متغايرة للذين كفروا ، فى كل صورة منها من البشاعة والشناعة ما يجعلها شيئاً قائماً برأسه ، مستقلاً عن غيره (١) . .

وهكذا يتضح لنا أن محيى الواو بين الجمل التى قد اشتد ترابطها وقوى تلاحمها وكل اتصالها ورائه من الأسرار واللطائف مالا يخفى على المتأمل .
الواعى والناظر البديق . . .

• • •

٢ - كان الانقطاع بلا إيهام : وهو أن يكون بين الجملتين تبين تام وانقطاع كامل ويرجع ذلك إلى اختلافهما فى إنشاء وخبر اللفظ ومعنى ، أو معنى فقط ، أو إلى فقدان المناسبة بينهما . . .

ويجب أن تعلم أن البلاغيين لا يجوزون هذا تفسك الكلام وتناثر جملة وعدم ارتباط أجزائه وتباعد معانيه بحيث لا يضمه سياق ، ولا يجمعه قرآن ، هم لا يقصدون بكال الانقطاع جواز الجمع بين الجمل المتشادة ، لأن هذه الجمل لا يضمها سياق واحد ، ولا يجمعهما قرآن واحد سواء أعطفت

(١) ارجع إلى دلالات التراكيب ص ٣٢٢ وما بعدها . .

أم لم تعطف، وإنما يريدون به فقدان المناسبة الخاصة التي تسوغ المعطف،
وتجاوز الوصل... وسيتضح لك هذا من خلال النصوص والشواهد...

ذكر البلاغيون أن كمال الانقطاع يتحقق في ثلاث صور :

الصورة الأولى : أن تختلف الجملتان خبراً وإنشاءً ، لفظاً ومعنى كما في
قوله تعالى : « وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ، ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . »^(١)
فالجملة الأولى : « لَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ » خبرية لفظاً ومعنى ، والجملة
الثانية : « ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » ، إنشائية لفظاً ومعنى ، والفصل بينها لا يوم
خلاف المقصود ، ولذا وجب الفصل بينهما . . ونظير ذلك قوله تعالى :
« وَأَنْقِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ »^(٢) ، وقوله عز وجل : « بَدِيعُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَتَىٰ يَمُكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً »^(٣) ،
وقوله جل وعلا : « وَالزَّيُّنُونَ وَارْزُقَانُ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ
عَمَلِهِمْ إِذَا أُنْفِرَ وَبَعْدُ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »^(٤) ، فقد
فصل بين الجمل في هذه الآيات الكريمة لاختلافها إنشاءً وخبراً لفظاً ومعنى ،
ولأن الفصل بينها لا يوم خلاف المقصود .. وانظر في قوله تعالى : « وَلَا تَقْتُلُوا
أَوْلَادَكُمْ مِنْ أَمْلَاقٍ تَحْنُ تَرْزُقُكُمْ وَإِبَاهُمْ »^(٥) ، وقوله عز وجل :
« وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ مَكْنُ لَهُمْ »^(٦) ، وقوله تعالى : « وَلَا تُصَلِّ
عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ لَهُمْ كُفَرُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ ... »^(٧) .

(٢) - سورة الحجرات آية ٩ .

(٤) سورة الأنعام آية ٩٩ .

(٦) سورة التوبة آية ١٠٣ .

(١) سورة فصلت آية ٣٤ .

(٣) سورة الأنعام آية ١٠١ .

(٥) سورة الأنعام آية ١٥١ .

(٧) سورة التوبة آية ٨٤ .

تجد أن الجمل الخبرية : د نحن نريدكم . إن صلاتك سكن . . . إنهم كفروا بالله . . . قد فصلت عن الجمل الإنشائية قبلها ، وهذا الفصل إما أن يكون سببه كمال الانقطاع حيث اختلفت الجملتان خبرا وإنشاء لفظا ومعنى ، وإما أن يكون سببه شبه كمال الاتصال الآتي بيانه حيث وقعت الجملة الثانية جوابا لسؤال أنارته الأولى . .

ومن ذلك قول الشاعر :

وقال رائدهم أرسوا نزاولها فكل حتف امرئ يجرى بمقدار

فقد فصل جملة : د نزاولها ، عن جملة : د أرسوا ، لكمال الانقطاع أو لشبه كمال الاتصال ، ومثله قولك : لاندن بن الأسد ياكلك ، برفع د ياكل . .

هذا ونرى كثيرا من الجمل التي اختلفت لإنشاء وخبر لفظا ومعنى قد جاءت موصولة بالواو ، انظر إلى قوله تعالى : « وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِشَقٌ »^(١) ، وقوله عز وجل : « اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى . وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى »^(٢) ، وقوله عز قائل : « فَإِنْ لَمْ تَنْفَعُوا وَلَنْ تَنْفَعُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . . . »^(٣) ، وقوله عز من قائل : « وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ الْخِطَابِ وَمَلَأْنَاكَ نَبَأًا تَخْشَاهُ إِذْ تَسْوَرُوا الْمِحْرَابَ . . . »^(٤) ، تجد أن الواو قد جاءت بين الجمل المختلفة لإنشاء وخبر لفظا ومعنى . . ومن

(٢) - سورة طه آية ٨ ، ٩

(٤) - سورة ص آية ٢٠ ، ٢١ .

(١) سورة الانعام آية ١٢١ .

(٣) سورة البقرة آية ٢٤ ، ٢٥ .

ذلك المثال المشهور : لا تأكل السمك وتشرب اللبن برفع « تشرب ، وقولنا : باسم الله وصل اللهم على نبينا محمد ، إلى غير ذلك . . وهذه الواو قد ذهب النحاة في توجيهها إلى أنها « واو الاستئناف » ، وليست عاطفة للخبر على الإنشاء ، حيث يذكر ابن هشام أن الواو في قوله تعالى : « وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ »^(١) ، وفي قولهم : « لا تأكل السمك وتشرب اللبن » وفي قولك : « دعني ولا أعود » : للاستئناف ، وليست للعطف إذ لو كانت للعطف لزم عطف الخبر على الأمر أو النهي . . .^(٢)

وذهب البلاغيون إلى أنها لعطف القصة على القصة أي لعطف ، مضمون كلام على مضمون كلام آخر . . . يقول الزمخشري في توجيه العطف في قوله تعالى : « أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ . وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا » : « فإن قلت علام عطف هذا الأمر ولم يسبق أمر ولا نهى بصح عطفه عليه ؟ قلت : ليس الذي اعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطلب له مشاكل من أمر أو نهى به عطف عليه ، إنما المعتمد بالعطف هو جملة وصف أبواب المؤمنين ، فهي معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين كما تقول : زيد يماكب بالقميد والإرهاق ، وبشر عمرا بالعفو والإطلاق ،^(٣) وهذا هو معنى الاستئناف الذي ذكره النحاة ، فهو عطف لقصة على قصة ، أو بمعنى آخر : عطف مضمون كلام على مضمون كلام ، أو عطف جمل مسوقة لغرض على جمل مسوقة لغرض آخر ، سواء أ جاءت هذه الواو بين خبر وإنشاء ، كما في الشواهد المذكورة ، أم بين خبرين ، كقوله تعالى : « . . . ثُمَّ مِنْ مُّضَنَّةٍ مُّخْتَلَفَةٍ وَغَيْرِ مُّخْتَلَفٍ لِغَيْبٍ لَّكُمْ وَنُفِرَ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى »^(٤) ، وقوله عز وجل :

(١) سورة البقرة آية ٢٨٢ . (٢) انظر المنى ٢/٣٣ . (٣) الكشاف ١/٢٥٣ . (٤) سورة الحج آية ٥ .

« مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ »^(١)
وكافي قول الشاعر :

على الحكم المأتى يوما إذا قضى قضية ألا يحور ويقصد
أ.م. بين إنشاءين كقوله تعالى : « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ
أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ . وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ
مِنْ دُونِ وَلِيِّ وَلَا شَفِيعٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ »^(٢) وقوله عز وجل : « فَإِذَا
أُطْلِئْتُكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِفَايَةً وَمَوْفُوتًا .
وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَسْكُوتُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَبَالَغُونَ كَمَا
تَأْلَمُونَ . . . »^(٣)

والفاء في ذلك مثل الواو في إفاضة الاستئناف ، والفرق بينهما أن الواو
لمطلق الجمع فهي تفيد جمع قصة إلى قصة ، أي : تضم جملا مسوقة لفرض
إلى جمل مسوقة لفرض آخر ، أما الفاء فترتب قصة على قصة ، أي ترتب
مضمون كلام على مضمون كلام آخر . . .^(٤)

وبخلاصة القول أن الواو عندما تذكر بين الخبر والإنشاء فهي إما واو
الاستئناف التي تفيد حذف الفصـة على الفصـة - كما وضـحنا - ، وإما أن تكون
عاطفة لجملة على جملة ، ويكون في الكلام حذف ، والذي يحدد نوع الواو
أهي عاطفة أم الاستئناف ، إنما هو السياق وقرائن الأحوال .. انظر في

(١) سورة الإعراف آية ١٨٦ .

(٢) سورة الانعام آية ٥١ ، ٥٠ .

(٣) سورة النساء آية ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٤) ارجع إلى دلالات التراكيب ص ٣٤٦ وما بعدها .

قوله تعالى : « وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمَّا وَاتَّخِذُوا »^(١)
 تجد أن الأسر ، اتخذوا ، مقول لقول محذوف والتقدير : وقلنا اتخذوا ،
 فالواو عاطفة بجملة خبرية على أخرى مثلها . . . ومثله قوله تعالى :
 « كَلِمًا أَرَادُوا أَن يَخْرِجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ
 الْحَرِيقِ »^(٢) ، أى : وقيل لهم ذوقوا عذاب الحريق . . . وخذ قوله تعالى :
 « قَالَ : أَرَأَيْبُ أَنْتَ دَنَ آيَاتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَيْتَنِي لَمْ أَتَنَبَّهْكَ لَأَرْجُحَنَّكَ
 وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا »^(٣) ؛ فالأمر « اهجرني » معطوف على محذوف والتقدير :
 فاحذرني واهجرني . . أى أن الواو وصلت الجملة الإنشائية بأخرى مثلها . .
 الصورة الثانية : أن تختلف الجملتان لإنشاء خبرا معنى فقط وتنفقا لفظا ،
 كقولنا : مات فلان رحمه الله ، وقال عمر رضى الله عنه ، لجملة : « رحمه الله » ،
 « رضى الله عنه » ، كل منهما خبرية لفظا وإنشائية معنى ، لأنهما دعائيتان ،
 ولذا فصل بين كل منهما وبين الجملة السابقة لاختلاف الجملتين خبرا وإنشاء
 معنى فقط ، ومن ذلك قول الشاعر :

ملكته حبلى ولكنه ألقاه من زهد على غار
 وقال : إني في الهوى كاذب انتقم الله من الكاذب

لجملة : « انتقم الله . . » جملة دعائية فهي خبرية لفظا وإنشائية معنى ولذا
 فصل بينها وبين جملة : « قال إني في الهوى كاذب » ، ويجوز أن يكون الفصل
 لشبهه كمال الاتصال بتقدير : قلت ، حيث تقع جملة « قلت : انتقم الله من
 الكاذب » جرابا لسؤال أثارته الجملة قبلها . .

هذا ويشترط للفصل ألا يوهم خلاف المراد كما في الأمثلة المذكورة ، فإن
 أوهم خلاف المقصود وجب الوصل كقولك لصديق لك : أشفى أخوك :
 فيجيبك : لا وعافاك الله ، وجب الوصل بين جملتي الجواب ؛ لأن الفصل

(٢) - سورة الحج آية ٢٢ .

(١) سورة البقرة آية ٢٥ ؛ .

(٣) سورة مريم آية ٤٦ .

يوهم خلاف المراد ، وهو أن الصديق يدعو عليك لالك ، وسبأني إيعناح ذلك وبيانه . .

الصورة الثالثة : أن تتفق الجملتان خبراً أو إنشاءً لفظاً ومعنى ولأن ينقد الجامع بينهما ، أى لا توجد المناسبة المعينة الخاصة التى تصحح "عطف" ، وذلك نحو قول أبى العتاهية :

الفقر فيما جاوز الكفافا من اتقى الله رجا وخافا

فقد انفقت الجملتان فى الخبرية لفظاً ومعنى ، ولكن لم توجد المناسبة التى تسوغ عطف الثانية على الأولى . ولذا فصل بينهما ، ومثله قول الآخر :

إنما المرء بأصغريه كل امرئ رهن بما لديه

فلا يوجد الجامع الذى يصحح عطف الجملتين على الرغم من اتفاقهما فى الخبرية لفظاً ومعنى ولذا فصل بينهما فى البيت . . .

ويعنى البلاغيون بالجامع أو التناسب بين الجملتين ، أن يكون المسند إليه فى إحدهما بسبب من المسند إليه فى الأخرى وكذلك المسند ، هذا ما أجمع عليه البلاغيون ، والجمهور يرى أن تتوفر المناسبة أيضاً فى المتعلقات ، وسنفصل القول فى هذا عند حديثنا عن مواضع الوصل ، والذى نريد أن ننبه إليه الآن هو أن البلاغيين لا يعنون بفقدان الجامع جواز الجمع بين جمل شاردة متنافرة ، لايتأتى أن يضمهما سياق واحد ، وأن يعد الفصل بين تلك المتنافرات مبرراً لوضعها فى قران ، وجمعها فى سياق واحد ، بل إن مرادهم بفقدان الجامع : المناسبة الخاصة التى أشرنا إليها ، لا المناسبة العامة التى ينبغى توافرها بين الجمل سواء أعطفت أم لم تعطف ، انظر مثلاً إلى ذلك الجمل : "وَأَلْزَمْنَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ أَنْ يُبَيِّتَ مَعَهُ وَلَدًا" ، واختلاف النقاد فى شعر أبى تمام والضاحك يبطال الصلاة ويشهد الحر صبيها واليهود أعداء العرب ، . . . هذه أنجما ، لا يقال فى سياق واحد هكذا فهى فائدة سراء أفصلت أم وصلت ، ولذا نبه البلاغيون

إلى وحدة السياق وإلى مراعاة النظر ، وتقدم من يقول البيت وأخاه على من يقول البيت وابن عمه ، وذكرنا حسن التخصيص من غرض إلى آخر
فالمناسبة إذاً نوعان ، مناسبة خاصة وهذه إذا فقدت صبح اقتران الجمل ولكنها تكون مفصلة لسكمال الانقطاع وهو فقدان هذا الجامع الخاص ، ومناسبة عامة وهذه لا بد من وجودها بين الجمل الموصولة والمفصلة ، وإلا فسد الكلام وما فقدت فيه المناسبة الخاصة قوله تعالى : « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا »^(١) . فقد فصل بين الذين يؤمنون و الذين كفروا لعدم وجود المناسبة التي تسوغ العطف ، أما المناسبة العامة التي تصحح جميع الجملتين في سياق واحد فهي ، التضاد بينهما ، وهو رابط حتى ومشير لما يتضمنه من التشويق إلى معرفة القصة الثانية ، قصة السلفرة . بعد الوقوف على قصة المؤمنين ونظير الآية قوله تعالى : « طَسَّ . تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ . هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زِينَا لَهُمْ أَشْغَالَهُمْ فَهُمْ يَعْتَهُونَ »^(٢) ، وخذ قوله تعالى : « الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ . الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ »^(٣) ، نجد أن الترابط قوي بين الشمس والقمر بحسبان ، وبين ما قبله ، فسياق الآيات يبرز قدرة الخالق الرحمن الذي خلق الإنسان وعلمه البيان والذي أحكم حركة الشمس والقمر أما المناسبة الخاصة التي تسوغ العطف فهي غير موجودة ولذا فصل بين الشمس والقمر بحسبان ، وبين

(٢) سورة النمل آية ١ - ٥٥

(١) سورة البقرة آية ١ - ٦

(٣) سورة الرحمن آية ١ - ٥٥

ما قبلها . . إلى غير ذلك مما ترى المناسبة الخاصة فيه غير قائمة ، والمناسبة العامة واضحة جليلة . .

هذا - وكما ذكرت - أن الواو إذا وجدت بين جمل بينها كمال انقطاع ، فهي واو الاستئناف التي تفيد عطف القصة على القصة ، سواء أ وقعت تلك الواو بين خبر وإنشاء أم بين خبرين أم بين إنشاءين ، على نحو ما مر بك من شواهد ، وتسكثر هذه الواو الاستئنافية في القصص القرآني ، حيث تعطف بها القصة على القصة ، انظر في قوله تعالى « وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . فَتَوَاتَىٰ بِهِ كُفْرُهُ وَقَالَ : سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . فَآخَذْنَاهُ وَجُذُودَهُ فَجَنَّبْنَاهُمُ فِي الْيَمِّ وَمُوسَىٰ عَلَيْهِمُ الرِّيحُ الْعَقِيمَ . مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّيْرِ . وَفِي ثَمُودَ إِذْ... وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ »^(١) نجد أن الواو قد عطفت أحداث قصة موسى على ما تقدمها من الحديث عن إبراهيم وصفيه ، ثم عطفت قصة عاد وأحداثها على قصة موسى ، ثم ثمود . . . وهكذا . . . وتسمى هذه الواو كما قلنا دوار الاستئناف ، ومثلها دفاء الاستئناف ، وقد مر الفرق بينهما . . . فالاستئناف ثلاثة أنواع : استئناف بالواو أو الفاء ، واستئناف بغير الواو والفاء وهو ما يكون في تلك الجمل التي تتفق لإنشاء أو خبر لفظا ومعنى ولا يوجد بينهما الجامع المسوغ للعطف فتأتي الجملة الثانية وقد استؤنف أي : ابتدئ بها معنى جديد ، واستئناف بياني وهو شبه كمال الاتصال الذي سنتحدث عنه الآن . .

• • •

٣ - شبه كمال الاتصال : ويسمى أيضا بالاستئناف البياني وهو أن تكون .

الجملة الأولى متضمنة لسؤال تقع الجملة الثانية جواباً له كما في قوله تعالى :
« قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَأَيُّسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ »^(١) فالجملة الأولى :
« إنه ليس من أهلك » ، أثارت سؤالاً فخواء : كيف لا يكون من أهلي وهو
ابني ؟ وجاءت الجملة الثانية جواباً لهذا السؤال المثار : « إنه عمل غير صالح » ،
ولا يكون الجملة الثانية جواباً لسؤال تتضمنه الجملة الأولى ، وبما عتق منها ،
كانت مرتبطة بها ارتباطاً وثيقاً ، كما يرتبط الجواب بالسؤال ، ومن ثم ترك
العطف بينهما لأن الجواب لا يعطف على السؤال ، لما بينهما من ترابط وثيق
وصلة قوية . . انظر إلى قوله تعالى : « وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمَّهُ هَاوِيَةٌ
وَمَا أَدْرَاكَ مَا هَيْئَةٌ . نَارٌ حَامِيَةٌ »^(٢) ، وقوله عز وجل : « وَمَا أَدْرَاكَ
مَا الْمَقْبَلَةُ فَكَّرْتَهُ »^(٣) ، وقوله جل وعلا : « قُلْ أَنَا نَبِيُّكُمْ بِشَرٍّ مِنْ
ذَلِكَُمُ النَّارُ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا »^(٤) ، نجد الجواب قد فصل عن
السؤال المصرح به في هذه الآيات الكريمة ، وفصل الجواب عن السؤال
المصرح به ، إما لكمال الاتصال لما بين السؤال والجواب من صلة قوية ،
وإما لكمال الانقطاع . لأن جملة السؤال إنشائية ، وجملة الجواب خبرية
وكما فصل الجواب عن السؤال المصرح به ، فإنه يفصل كذلك عن السؤال
المقدر الذي اقتضته الجملة الأولى وأثارته في ذهن المخاطب وقد ذكر البلاغون
أن سبب الفصل عندئذ هو الاستئناف البياني أي شبه كمال الاتصال ، وليس
لكمال الاتصال الذي مر ، لأن الجواب ليس بياناً للجملة الأولى ، بل لشيء
ينبعث منها وهو السؤال الذي أثارته واقتضته ، وقد سمى الاستئناف هنا
استئنافاً بيانياً وهو غير الاستئناف بالواو أو الفاء أو الاستئناف بالجملة ، أي :
القطع ، لأنه استئناف يوضح ويبين جواب السؤال المثار المنبعث من الجملة

(٢) سورة القارعة آية ٨ - ١١

(٤) سورة الحج آية ٧٢

(١) سورة هود آية ٤٦

(٣) سورة البلد آية ١٢ ، ١٣

الأولى ، فالجملة الثانية ليست منفصلة عن الأولى في الواقع ، ومنقطعة عنها ، بل مبيّنة وموضحة لشيء فيها ، وإذا سميت الثانية مستأنزة استئنافاً بيانياً .. هذا والسؤال المنبعث من الجملة الأولى قد يكون عن السبب العام ... كما في قول الشاعر :

قال لي كيف أنت ؟ قلت عليل سهر دائم وحزن طويل

الجملة : د قلت عليل ، أثارت سؤالاً عن سبب العلة ، تقديره : ما سبب علتك ؟ ، وجاءت الثانية : د سهر دائم وحزن طويل ، جواباً له ، أما جملة : د قلت عليل ، ففصلولة عن السؤال المصريح به قبلها الكمال الاتصال أول كمال الانقطاع ، كما أوضحنا ..

ومن ذلك قول أبي العلاء المبرور :

وقد غرضت من الدنيا فمل زمني

معط حياتي لقر بعد ما غرضنا

جريت دهرى وأهليه فما تركت

لي انتجارب في ود امرى غر ضا^(١)

فقد أشار البيت الأول تساؤلاً عن سبب سأمه وضجره ، في كأن قائله قال له : لم تقول هذا ويحك ؟ وما الذي جعلك تطوى عن الحياة إلى هذا الحد كشحك ؟ ، فأجاب البيت الثاني هذا التساؤل المنبعث من البيت الأول : د جريت دهرى وأهليه .. ، ولذا أصل أو قل : ترك العطف بينهما لما بين السؤال والجواب من اتصال وثيق ، وترايط قوى .. وخذ قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا ﴾

(١) غرض : بكسر الراء : مل وسئم وضجر وبلتحمها : حاجة ، والقر : الغاف . وما غر ضا : لم يضجر الحياة بعد كما ضجرت ..

إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ»^(١) ، فقد فصّلت الجملتان : « سيجزيهم بما كانوا يفترون » ، ، ، سيجزيهم وصفهم . . . عما قبلهما أشبهه كمال الاتصال ، حيث وقعت كل منهما جوابا لسؤال اقتضته الجمل قبلها ، وكانت سائلا سأل : لم هذه الافتراءات ولم تلك الأوصاف الجائرة ؟ هل سيجزون على ذلك ؟

لجاءت الإجابة : « سيجزيهم بما كانوا يفترون . . سيجزيهم وصفهم » . وواضح أن السؤال المنار في الآيتين عن السبب الخاص . . . وقد يكون السؤال المنبعث من الجملة الأولى عن غير السبب . . كما في قوله تعالى : « قُلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا : سَلَامًا قَالَ : سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ . فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِمِجَلِّ سَمِينَ . فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ : أَلَا تَأْكُلُونَ . فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ »^(٢) ، فقد فصّلت الجمل : « قال : سلام » « قل : أَلَا تَأْكُلُونَ » ، ، قالوا : لا تخف ، عما قبلها لأنها أجوبة لما تضمنته تلك الجمل من أسئلة أثرت في ذهن السامع ، وكأنه سأل فإذا قال إبراهيم ؟ فأجيب : قال : سلام . . . قال : أَلَا تَأْكُلُونَ ، وماذا قالت الملائكة ؟ قالوا لا نخف وبشروه . . . ومثل هذا كل ما تراه في التنزيل من لفظ ، قال ، مفعولا عما قبله ، غير معطوف عليه بماطف . . . ومن أمثالهم في هذا الصدد ، قول الشاعر :

زعم العواذل أني في غمرة صدقوا ولـكن غمرة لا تنجلي^(٣)
فالجمل الأولى : « زعم العواذل أني في غمرة » ، حركت السامع وأثارت في ذهنه سؤالا : أصدقوا في ذلك الزعم أم كذبا ؟ ، فأخرج الكلام بخبره

(١) سورة الأنعام آية ١٣٨ ، ١٣٩ (٢) سورة الذاريات آية ٢٤-٢٨

(٣) الغمرة : الشدة . وتنجلي : تنكشف وتزول . .

لو كان ذلك قد قيل له ، ففصل جملة : « صدقوا ... » ، ومثله قول جندب
ابن عمار :

زعم العواذل أن ناقة جندب
بجنوب خبت عريت واجمت
كذب العواذل لو رأين مناخنا
بالقادية فلن : لج وذلت (١)

فقد فصل البيت الثاني عن الأول لوقوعه جوابا لسؤال فحواه أصدقن
أم كذبن في زعمن ؟ ، وتلاحظ أن واو الجماعة في البيت الأول في قوله
« صدقوا » ، قد عادت إلى لفظ « العواذل » ، إما على أنه جمع عاذل جمعا
سماعيا مثل فارس : فوارس .. أو على أنه جمع عاذلة بمعنى جماعة عاذلة من
الذكور .. أما في بيت جندب فقد عاد إليه ضمير النسوة : رأين وقلن ، على
أنه جمع عاذلة أى جمع مؤنث ... كما تلاحظ أن الجملة المستأنفة أى : جملة
الجواب في بيت جندب قد وضع فيها الظاهر موضع المضمَر ، فازداد بهذا
أمر الاستئناف تأكيداً ، من حيث وضعه وضعا لا يحتاج فيه إلى ما قبله ،
وأتى به مأنى ما ليس قبله كلام ... ومثله - وقد مر بك - قول الشاعر :

فقل للشامتين بنا أفيقوا . سياتى الشامتون كما لقينا

فلم يقل « سيقوا » بل وضع الظاهر موضع المضمَر ليزداد الاستئناف
تأكيداً .. ومن الشواهد أيضا قول أبي تمام :

ليس الحجاب بمقص عندك لى أملا
إن السماء ترجى حين تحجب

(١) عريت واجمت : أهملت وأزِيل عنها رحلها فاستراحت . لج وذلت : اشتد في
السير فأُثِمب ناله ...

فكان سائلا سألته : كيف لا يحول الحجاب بينك وبين تحقيق آمالك
ومآربك ؟ فأجاب : إن السماء ترجى حين تحتجب ..

وقول الآخر :

يرى البخيل سبيل المال واحدة إن الكريم يرى في ماله سبلا
وكان المخاطب عندما سمع الشطر الأول سأل ، وما رأى الكريم في ماله؟
فأجاب : إن الكريم يرى في ماله سبلا .. وقول الآخر :
فغناها وهي لك الفداء إن غنا الإبل الحدا

فعندما قال الشاعر : غناها وهي لك الفداء ، توهم أن سائلا سألته : وما غنا
الإبل ؟ أغناؤها الحدا ؟ أم أنك تقصد شيئا آخر غير الحدا ؟ ، فأجاب : إن
غنا الإبل الحدا .

وترجع بلاغة هذا الأسلوب إلى ما يفيد من إثارة المخاطب وتحريك
ذهنه ، فهذا السؤال المنبعث من الجملة الأولى ، قد انبعث في ذهن المخاطب
أو في ذهن المتكلم الذي أدرك أن الجملة ينبعث منها هذا السؤال ، وأن
المخاطب ينتظر جوابا له وبيانا فبعد ما يأتي البيان ويرد الجواب يقع في النفس
أحسن موقع وأفضل . ولذا يقول المبرد عند حديثه عن بيت امرئ القيس :
كان قلوب الطير رطبا وبابسا لدى ركرها العناب والحشف البالي
فهذا مفهوم المعنى ، فإن اعترض معترض فقال : فملا فصل فقال : كأنه
رطبا العناب وكأنه بابسا الحشف البالي ؟ قبل له : العربي الفصيح الفطن يرى
بالقول مفهوما ، ويرى ما بعد ذلك من التكرير عيا .^(١) ...
ولما قال خالف الأحمر لبشار وقد استمع لبيته :

(١) انظر الكامل ج ٢ ص ٣٦ .

بكرًا صاحبي قبل الهجير إن ذاك النجاح في التيسير

« لو قلت يا أبا معاذ : بكرًا فالنجاح ، كان أحسن » ، فقال بشار : إنما بذيتها أعرابية وحشية .. ولوقلت : بكرًا فالنجاح ، كان من كلام المولدين ... ومراده أن التكرار ، أى تكرار فعل الأمر أفاد التأكيد بوجه ظاهر لادقة فيه ، أما ما تضمنه فقد أفاد التوكيد بوجه خفي دقيق ، مرجعه إلى انبعث السؤال من الجملة الأولى وإجابة الجملة الثانية عنه ... وقد أجمل القزويني سر بلاغة هذا الأسلوب في قوله : « وتزيل السؤال بالفجوى منزلة الواقع لا يصار إليه إلا لجهات لطيفة : إما لتذنيه السامع على موقعه ، أو لإغوائه أن يسأل ، أو لتلا بسمع منه شيء ، أو لتلا ينقطع كلامك بكلامه ، أو للقصد إلى تكثير المعنى بتقليل اللفظ وهو تقدير السؤال وترك العاطف ، أو لغير ذلك مما ينخرط في هذا السلك . » (١)

هذا ومن الاستئناف ما يأتي بإعادة اسم ما استأنف عنه كقولك : أحسنت إلى زيد ، زيد حقيق بالإحسان ، ومنه ما يبني على صفة . كقولك : أحسنت إلى زيد ، صديقك القديم أهل لذلك ، وهذا أبلغ لانعطائه على بيان سبب الإحسان .. وقد تأتي الجملة المستأنفة أى جملة الجواب بلا حذف شيء منها ، كما في قول المتنبي :

وما عفت الرياح له علا عفا من حسدا بهم وساقا
وكما في قول الوليد بن يزيد الأموي :

عرفت المنزل الخالي عفا من بعد أحوال
عفا كل حنان عسوف الويل هطال (٢)

(١) الإيضاح ٧٩/٢ .

(٢) عفا : درس والمراد بالأحوال : الأحوال التى سددتها بأحبابه وسكانه .
والحنان : المحب وعسوف الويل : هديد المطر .

لما نفى المتنبي العفاء عن الرياح ، ولما ذكر الوليد عفاء المنزل كان مظنة أن يسأل عن الفاعل من هو ؟ أو ما هو ؟ فأجابا عن ذلك : عفاء من ، حمدا بهم وساقا . . عفاء كل حنان ، ولم يحذف شيء من جملة الجواب ، إذ لو حذف الفعل فقبل : من حمدا بهم . . كل حنان ، لما دل دلها عليه . و ذكر جملة الاستئناف كاملة بلا حذف يجعلها أشد انفصالا وأنهم استقلالاً عن الجملة الأولى التي انبعث منها السؤال . .

وقد يحذف صدر الاستئناف لقيام قرينة عليه ، ويكثر هذا عند ذكر الشعراء للذبار والأطلال ، وكذا عند المدح أو الفخر أو الرثاء أو الهجاء ، حيث يقطع الكلام ويستأنف معنى جديد . .
من ذلك قول الشاعر :

اعتاد قلبك من ليلى عوائده وهاج أهواءك المكنونة الطلل
ربع قواء أذاع المهرات به وكل حيران سار ماؤه خضل^(١)

لما ذكر أن الطلل قد هاج أهواءه المكنونة ، اشتاقت النفس إلى معرفة خبر هذا الطلل وصفته ، وكانت سألته : ما خير هذا الطلل ؟ وما صفته ؟ ، فاستأنف الشاعر حديثاً عنه ، وبنى الكلام على حذف صدر الاستئناف ، المستند إليه ، فقال : ربع قواء أذاع المهرات به . .

ومثله قول ذى الرمة :

إلى لوائح من أطلال أخوية كأنها خلل موشية تشب
دار لمة إذ مى نساخدا ولا يرى مثلها عجم ولا عرب^(٢)

(١) المهرات : السحاب وكذا الحيران والاسارى . أذاع به : ذهب . والخلل : الكثير . والقواء : الموحش . .

(٢) اللوائح : ما تبين ولاح . . وأخوية : بيوت مجتمعة واحدها حواء . . والخلل : بطائن أجفان السيف واحدها : خلعة . وموشية : منقرشة ، وقشب : جدد

استأنف مبدئاً شأن الأطلال ، وحذف صدر الاستئناف ، إذ المراد :
تلك دار لمة .. ومنه في المديح قول الشاعر :

هم حلوا من الشرف المعلى ومن حسب العشرة حيث شاءوا
بناة مكارم وأساءة كَلَمْ دماؤهم من الكَلْب الشفاء^(١)

وقول الآخر :

سأشكر عمرا إن تراخت منية ، أيادي لم تمنن وإن هي جلت
قى غير محبوب الغنى عن صدقة ولا مظهر الشكوى إذا الفعل زلت
وقوله :

أضأت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه
نجوم سما. كلها انقض كوكب بدا كوكب تأوى إليه كواكب^(٢)

إلى غير ذلك مما يقطع فيه الشعراء كلامهم ويستأنفون معاذ أخرى
في حذفون عندئذ صدر الاستئناف لدلالة الدليل عليه .. فإن قلت : ألا يؤدي
حذف صدر الاستئناف إلى احتياج جملة الاستئناف إلى ما قبلها ، وعندئذ
لا يكون اتصالها تاما واستقلالها كاملا ؟ .. قلت : ليس كل حذف يؤدي
إلى الاحتياج وعدم الاستقلال ، بل إن الحذف ، في الشيء المذكور ، قد
يساعد على استقلال الجمل المستأنفة وعدم احتياجها إلى ما قبلها ويتضح لك
هذا عندما تقدر المحذوف فتقول : ذلك ربع فواء ... تلك دار مروة ...
... ناة مكارم هو قى غير محبوب الغنى .. هم نجوم سما .. إذ تجد أن
اسم الإشارة والضمير قد جعل تلك الجمل مرتبطة بما قبلها محتاجة إليه ،
أما الحذف فيجعلها مستقلة عنه .. ولاحظ أن هناك فرقا بين هذه الأمثلة

(١) الكلب : الجرح . والكلب : داء يصيب الإنسان إذا عضه كلب ..

(٢) الجزع : خرز فيه بباش وسواد ..

وبين يتي المتني والوليد، إذ الحذف بقي يتي المتني والوليد يؤدي إلى الغموض واللبس لعدم وجود دليل يدل على المحذوف، وإقرأ : وما عفت الرياح له محلاً من حداثهم . عفا من بعد أحزان كل حنان عذوب الويل . . . نجد المعنى لا يستقيم عند الحذف، ولو فرضت استقامته فستجد أن جملة الاستئناف محتاجة إلى ما قبلها . . أما حذف صدر الاستئناف في الشواهد المذكورة، فقد ساعد على استقلالها وعدم احتياجها إلى ما قبلها، كما وضع لك . . .
وتما حذف فيه صدر الاستئناف من أي الذكر الحكيم قوله تعالى : وَيُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ . رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ . . . بقراءة يُسَبِّحُ مجيئاً للمفعول، وكان سائلاً : من يسبح ؟ فأجيب : رجال يحذف صدر الاستئناف وهو هنا المستند . .
ومن ذلك أسلوب نعم وبئس مثل نعم الرجل خالد، وبئس رجلاً عمرو، على اعتبار أن المخصوص بالمدح أو الذم خبر مبتدأ محذوف، وكان سائلاً : من المدحود ومن المذموم ؟ فأجيب : المدحود خالد والمذموم عمرو .

وقد يحذف الاستئناف كله ويقوم ما يدل عليه مقامه، كقول الجاهلي :

زعمتم أن إخوتكم قریش لهم إلف وإيس لكم إلف

فقد أثار صدر البيت سؤالاً تقديره : أكد بنا أم صدقنا ؟ فأجيب : كذبتم في زعمكم، وقد حذف هذا الجواب، وأقيم قوله : لهم إلف وإيس لكم إلف مقامه لدلالته عليه، ويجوز اعتبار قوله : لهم إلف وإيس لكم إلف، جواباً لسؤال انتضاء الجواب المحذوف، وكأنه لما قيل : كذبتم، قالوا : لم كذبنا ؟ قال : لهم إلف . وإيس لكم إلف، فيكون في البيت على هذا استثنافان . ويجوز أن يكون الفصل في البيت أشبه كل الانقطاع الآتي
بيانه . .

وقد يختلف الاستئناف كله لدلالة السياق عليه كقوله تعالى :
 « وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ . وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ
 لِلْمَاهِدُونَ »^(١) . . أى : نعم الماهدون نحن ، وقوله عز وجل : « إِنَّا وَجَدْنَاهُ
 صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ »^(٢) ، أى : نعم العبد أوب . .

هذا وقد تأتي الجملة الواقعة موقع الجواب بالفاء أو الواو ، وتسمى
 الفاء فاء الاستئناف وكذا الواو تسمى واو الاستئناف ، ولكن الاستئناف
 بهما يختلف عن الاستئناف البياني ؛ لأن الاستئناف بالواو يؤذن باستقلال
 الكلام وانفصاله ، إذ يكون المراد عطف القصة على القصة أو عطف جمل
 مسوقة لغرض على جمل مسوقة لغرض آخر ، كما مر بك . . ومن ذلك
 قوله تعالى : « يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا
 مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِعُّوا أَنْتُمْ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ
 الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ
 اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الْأَيْلِ وَالْأَمَارِ .. »^(٣) :

حيث جاءت الآية الثانية بدون الواو ، فأفاد ذلك أنها متولدة عن الآية
 الأولى ، إذ وقعت جوابا لسؤال تضمنته ، وجاءت الآية الثالثة بالواو فأذنت
 بالاستقلال ، وصار الكلام معها من قبيل عطف القصة على القصة . .
 ومن ذلك قول الشاعر :

أرى بصرى عن كل يوم وإيلة
 بكل وخطوى عن مدى الخطو يقصر
 ومن يصحب الأيام تسعين حجة يغيره والدهر لا يتغير

(٢) سورة ص الآية ٤٤

(١) سورة الداريات الآية ٤٧ ، ٤٨

(٣) سورة سبأ آية ٣١ ، ٣٣ .

حيث جاء البيت الثاني مستأنفا بالوار التي تؤذن بالاستقلال .
 • الاستئناف بالفاء يجعل الكلام مرتباً ببعضه على بعض ، وليس متولداً
 ببعضه من بعض . انظر إلى قول أبي تمام :
 لانه كرى عطل الكريم من الغنى فالسبل حرب للسكان العالى

نجد أن الفاء قد جمعت الكلام مرتباً ببعضه على بعض ... وخـذ
 قوله تعالى : « قَالَتَا : لَا نَسْبِقُ حَتَّى يَصْدِرَ الرَّعْدُ وَابُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى
 لَهُمَا ثَمَرٌ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ : رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ .
 فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِخْيَاءٍ ... » (١) ، نجد أن هذه الفاءات :
 « فسقى لهما .. فقال رب .. فجاءته إحداهما .. » ، قد جمعت الكلام مرتباً
 ببعضه على بعض ..

أما الاستئناف البياني فالكلام فيه يتولد ببعضه من بعض ، إذ ينبعث من
 الجملة الأولى سؤال وتقع الثانية جواباً له ، فالثانية مرتبطة بالأولى ارتباط
 الجواب بالسؤال وهو ارتباط داخلي وثيق ، وليس ارتباطاً لفظياً ظاهراً ،
 كما في الاستئناف بالفاء ، ولا استقلالاً وتبايناً كما في الاستئناف بالوار ..

٤ - شبه كال الانقطاع : وقد عرفوه بقولهم : أن تكون الجملة مسبوقة
 بجملةتين يصح وصلها بالأولى منهما لوجود المناسبة التي تسوغ الوصل ،
 ولا يصح عطفها على الثانية ، فيترك العطف دفعا لتوهم العطف على الثانية ،
 وتصبح الجملة الثالثة بمنزلة المنقطعة عن الأولى ، بهذا الحائل ...
 من ذلك قول الشاعر :

وتنان سلمى أنى أبغى بها بدلا أراها في الضلال نهم
 فتد فصل جملة : « أراها في الضلال ... » عن الجملة الأولى : « تظن

سلى . . . ، لأن عطفها عليها يؤهم أنها معطوفة على جملة : . . . أبغى بها
يدلاً ، فتكون بهذا من مظهرات سلى ، وهى من كلام الشاعر ، لا من
مظهراتها ، فدفعنا لهذا التوهم وجب الفصل . . ومثله قول الآخر :

يقولون : لاني أحمل الضيم عندهم
أعوذ بربي أن يضاه نظيري

فصل جملة : د أعوذ بربي ، عن جملة : ، يقولون ، مع جـ واز عطفها
عليها ، حتى لا يتوهم عطفها على جملة : د أحمل الضيم . . . ، فتكون من
مقوهم وهى ليست منه ، بل هى من كلام الشاعر .

ويمكن أن يكون من هذا الموضع قول الجاسى :

زعمتم أن إخوانكم قریش لهم ألف وليس لكم إلا ألف

فيمكن فصل جملة : د لهم ألف . . . ، عن جملة : د زعمتم ، دفعا لتوهم
عطفها على جملة : د أن إخوانكم قریش ، ؛ إذ هى ليست من زعمهم بل من
كلام الجاسى . . وانظر فى قوله تعالى : « وَإِذَا خَلَا إِلَى شَٰئِطَانِيهِمْ قَالُوا :
إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ »^(١) ، فقد مر بك
امتناع عطف جملة : د الله يستهزئ بهم ، على جملة : د إنا معكم ، أو على
جملة : د قالوا ، ، أما عطفها على جملة الشرط وجوابه : د إذا خلوا إلى
شياطينهم قالوا . ، بخلاف ، ولكن يمنع منه توهم عطفها على إحدى الجملتين
المدكورتين . . وكذا القول فى الآيات الكريمة : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا
فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . إِلَّا لَأَنسِفُ هُمُ الْمُسِءُونَ وَالسَّكِينُ
لَا يَشْمُرُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا : أَنُؤْمِنُ كَمَا
آمَنَ السُّفَهَاءُ إِلَّا لَأَنسِفُ هُمُ السُّفَهَاءُ . . »^(٢) ؛ ولا يخفى عليك أنه يمكن رد

سبب الفصل في هذه الشواهد إلى شبه كمال الاتصال كما نبه كثير من البلاغيين وبذا يلغى هذا الموضع من مر صرح الفصل .

هـ - الفصل لعدم الاشتراك في القيد : أو كما عرفت به بعض البلاغيين بالتوسط بين السكاليين مع رجوع المانع من العطف وهو عدم الاشتراك في الحكم . . وقد استشهدوا لهذا بقوله تعالى « وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا : إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ . » (١) ، فقد فصل جملة : « اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » عن جملة : « قَالُوا » ، لأن قولهم مقيد بوقت خلوعهم إلى شياطينهم أما استهزاء الله بهم فدايم في كل آن ، وليس مقيد بحد الوقت ، ولذا وجب الفصل لعدم الاشتراك في القيد . . . وأما فصل هذه الجملة : « اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » عن جملة : « إِنَّا مَعَكُمْ » ، فلعدم قصد التشريك في الحكم الإعرابي . كما مر بك في الجمل التي لها محل من الإعراب . . . بقى أن أذكر كمالاً في نهيتك إليه من أن الجمل التي لها محل من الإعراب تخضع لما تخضع له الجمل التي لا محل لها من الإعراب من مواضع الفصل المذكورة ، وانظر مثلاً في قوله تبارك وتعالى : « وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ، قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ، إِنَّا نَنظُرُهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » (٢) ، نجد أن الجمل الثلاث : « امرأه العزيز ترأود . . . » ، « قد شغفها حباً . . . » ، « إنا ننظرها في ضلال مبين . . . » قد وقعت مقولا لقول النسوة فلها من الإعراب محل ، وقد فصل بينها كمال الاتصال ، إذ أثارت الجملة الأولى سهواً فحوادثاً مسبب تلك المرادة ، فجاء التعليل : « قد شغفها حباً » ، وكذا تضمنت الثانية سؤالاً تقديرية : « وما رأيك » ، فأجيب بالجملة الثالثة : « إنا ننظرها في ضلال مبين . . . » ، وارجع إلى ما سبقناه من شواهد في مواضع الفصل المذكورة ليتضح لك أن الجمل جميعها سواء في تلك المواضع ، وأنت لا تستطيع أن تقرر هذه المواضع على الجمل التي لا محل لها من الإعراب . .

(١) سورة البقرة آية ١٤ ، ١٥ . (٢) سورة يوسف آية ٣٠ .

وهذا نكون قد فرغنا من مواضع اتصال بين الجمل وننتقل الآن إلى
مواضع الوصل ...

• • •

مواضع الوصل بين الجمل : - وقفنا - فيما سبق - على أن الجمل التي لها محل
من الإعراب ، يوصل بينها إذا قصد التشير بك في الحكم الإعرابي ، ووجدت
المناسبة المسوغة للعطف ، ولم يكن هنالك مانع يمنع من الوصل .
وقد ذكر البلاغيون موضعين آخرين الموصل بين الجمل وهما :

١ - التوسط بين الكلمتين ، والمراد بالكلماتين : كمال الاتصال وكمال
الانقطاع ، وقد عرفوه بقولهم : أن تتفق الجملتان خبراً أو إنشأً لفظاً
ومعنى ، أو معنى فقط ، فمثال اتفاقهما في الخبرية لفظاً ومعنى قوله تعالى :
« إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ » (١) ،
وقوله عز وجل : « قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ مُتَوَكِّلِ الْمُلْكِ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ
الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُزِيلُ مَنْ تَشَاءُ وَتُزِيلُ مَنْ تَشَاءُ بِإِذْنِكَ اتَّخِذْ لَكَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » . تولييع الأئيل في النهار وتولييع الأئيل
وتنزع الخي من التمي وتنزع الخي من الخي وترزق من
تشاء بغير حساب » (٢) ، فقد اتفقت الجملتان : « إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ
» ، « إِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ » في الخبرية لفظاً ومعنى ، ووجدت المناسبة
المسوغة للعطف ، ولم يمنع من العطف مانع ، ولذا وصل بينهما كما نرى .
وكذا القول في الآيتين : « قُلِ اللَّهُمَّ ... » ، ولا يخفى عليك ما يفيد به الجمع بين
الجمل في الآيتين ، من إبراز قدرة الله عز وجل في أسى ما نيا ، وتأمل :
تؤتي الملك من تشاء وتنزع وتنزع وتؤتي من تشاء وتنزل ... تولج الليل في النهار

وتولج النهار في الليل ... وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب ... لا يقدر على تلك الأضداد إلا الخالق القادر المهيمن ذو السلطان والملك ... ومثال ما اتفقت فيه الجملتان في الإنشائية لفظاً ومعنى قوله تعالى : « يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ »^(١) ، فقد اتفقت الجملتان : خذوا زينتكم .. كلوا .. اشربوا . لا تسرفوا ، في الإنشائية لفظاً ومعنى ، ومن ثم وصل بينهما . . . ومما اتفقت فيه الجملتان في الإنشائية معنى ، قوله تعالى : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْأَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا »^(٢) ، ففي الآية ثلاث جمل ، الأولى : لا تعبدون إلا الله ، والثانية حذف فيها فعل الأمر وتقديرها : وأحسنوا بالوالدين إحساناً ، والثالثة : وقولوا للناس حسناً . والجملتان الثانية والثالثة إنشائيتان لفظاً ومعنى كما ترى ، أما الأولى خبرية لفظاً ، إنشائية معنى ، لأنها تعنى « انتهى أى : لا تعبدوا إلا الله » ، وبهذا يكون اتفاق الجمل الثلاث في الإنشائية ، في المعنى فقط دون اللفظ . . . ومما اتفقت فيه الجملتان في الخبرية معنى قوله تعالى : « قَالَ : إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيٌّ بِمَا تُشْرِكُونَ »^(٣) ، في جملة : « واشهدوا ... » إنشائية لفظاً خبرية معنى ، إذ المراد : إني أشهد الله وأشهدكم ، وبهذا يكون اتفاق الجملتين في الخبرية معنى لا لفظاً . . . وإنما عادت مثل هذه الجمل ، توسطاً بين الكمالين ، لا اتفاقاً في الخبرية أو الإنشائية مع وجود المناسبة المسوغة للوصول ، فليست من قبيل كمال الانقطاع الذي عرفته . كما أنها ليست من قبيل كمال الاتصال لعدم وجود الروابط والصلات القوية بينها والتي عرفت في صيور كمال الاتصال ، ولذا سمي البلاغيون هذا بالموضع بالترسط بين الكمالين .

(٢) سورة البقرة آية ٨٣ .

(١) سورة الأعراف آية ٣١ .

(٣) سورة هود آية ٥٤ .

٢ - كمال الانقطاع مع الإيهام : كقولك : أنا جرح : أتدري هذه البلمعة ؟
 فيجيبك : لا يوافقك الله ، وقر لك : تطديق لك المعنى ، والدلك ؟ فيجيب :
 لا يوافقك الله به ، وقر لك : أتاب العاصي الذي تجانبك لا وينهيه إله من فليبين
 الجملة بين كائني كمال انقطاع : لأن جملة لا يوافقك الله به ، لا يوافقك الله به ،
 والجمل : ما فاك الله - لطف الله به ، فلهذا الله من خبرية (الخطاب) لا يوافقك الله به ،
 وكمال الانقطاع : كما درست : يوجب الفصل بين الجملتين ، لأن
 الفصل هنا يوم خلاف المراد ، إذ يقوم أن الجواب يدعو بعدم العافية وعدم
 اللطف وعدم الهداية ، وأنه قد أجاب بجملة واحدة منفية ، ساطت فيها ، لا ،
 على ما بعدها وليس بجملة ، قد فاعل هذا الإيهام يجب الوصل بين الجملتين ،
 ولذلك إذا اندفع هذا الإيهام بأن يسكت المتكلم قليلا بعد النطق بالحرف
 لا ، أو يذكر الجملة المنفية كاملة ، فيقول : لا أيها ، ثم يذكر الجملة
 اللغائية لا عافاك الله ، عندئذ يجب الفصل ، إذ لا إيهام . . .

الجامع أو التناسب بين الجملتين : عرفت أن اتفاق الجملتين في الخبرية
 أو الإنشائية يوجب الوصل بينهما إذا وجدت المناسبة أو الجامع المسوغ
 للوصل ، وكذا عند قصد التشريك في الحكم الإعرابي ، فإراد البلاغيين
 بهذا الجامع أو بتلك المناسبة ؟ يريد البلاغيون بذلك : أن يكون المسند إليه
 في الجملة الأولى بسبب من المسند إليه في الحالة الثانية ، وكذا المسند
 فيهما : يقول عبد القاهر ، واعلم أنه يجب أن يكون المحدث عنه في إحدى
 الجملتين بسبب من المحدث عنه في الأخرى ، كذلك ينبغي أن يكون
 الخبر عن الثاني مما يجري مجرى الشبيه والمظير أو النقيض للخبر الأول
 غلوا قلت : زيد طويل القامة وعمره شاعر ، كان خافا ، لأنه لا مشاكلة
 تولا تعلق بين طول القامة وبين الشعر ، وإنما الواجب أن يقال : زيد كاتب
 وعمره شاعر ، وزيد طويل القامة وعمره قصير ، وجملة الأمر أنها - يقصد
 الواو - لا تجزى حتى يكون المعنى في هذه الجملة لفظا لمعنى في الأخرى ومضاماله ،
 مثل أن زيد راعرا إذا كانا أخوين أو نظيرين أو مشبكي الأحوال على الجملة ،

كانت الحال التي يكون عليها أحدهما من قيام أو قعود أو ما شاكل ذلك مصحوبة في النفس إلى الحال التي عليها الآخر من غير شك ، وكذا السبيل إلى والمعاني في ذلك كالأشخاص ، فإنما قلت مثلاً : العلم حسن والجهل قبيح ، لأن كون العلم حسناً مضموم في المقول إلى كون الجهل قبيحاً ، وعلم أنه إذا كان المخبر عنه في الجملتين واحداً كقولنا : هو يقول ويفعل ويضرب وينمى ويسىء ويحسن ويحل ويعقد وأشبه ذلك ، ازداد معنى الجمع في الواو قوة وظهوراً وكان الأمر حينئذ صريحاً .. (١)

وقد اختلف البلاغيون في المتعلقات ، دل بذلك ، ان يتبين فيها تناسب أيضاً ؟ والبصواب أنه لا يعتبر فيه ذلك إلا إذا كانت مقصودة بالذات ومرادة في الجملتين ، كقوله تعالى : « يَا قَوْمِ مَالِي أَذْءُكُمْ إِلَى النَّجَاتِ وَتَذْءُونَنِي إِلَى النَّارِ » (٢) . . وكافي قول الشاعر :

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد

هذا وقد تكون المناسبة بين الجمل دقيقة خفية وعندئذ يحتاج إلى تأمل السياق ومعرفة قرائن الأحوال به . . انظر إلى قوله تعالى : « أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ » (٣) فيمد أن المناسبة بين الإبل والسماء والجبال والأرض ، لا تتضح لك إلا بالتأمل وإطالة النظر ، إذ عند التأمل تعرف أن أهل الوب تكون عنايتهم مصروفة إلى الإبل ، حيث ياتفنون بها في جل معاشهم وانتفاعهم بها لا يحصل إلا بأن ترعى وتشرب وذلك يكون بنزول المطر ، فيكثر ثقل وجوهم في السماء . ثم لا بد لهم من ما يرى يتحصنون به ولا شيء لهم في ذلك كالجبال ، ثم لا غنى لهم لتعذر طول مكثهم في منزل عن التنقل من أرض إلى سواها . . وهذا يتضح لك أن الإبل والسماء والجبال والأرض متناسبة في ذهن البدوي وأخيلة أهل الوب . .

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٣٢، ٢٣٣ . (٢) سورة غافر آية ٤١ .

(٣) سورة النازية آية ١٧-٢٠ .

تجا أنه قد يتحد كل من المسند والمسند إليه ولا تجد مسوغاً للوصل على نحو ما ترى في قولك : انظر إلى غزارة علم عمرو ... وانظر إلى هذا القطع في ثوبك، فمثل هاتين الجملتين لا يجمعهما سياق واحد لا منفصلتين ولا موصولتين، على الرغم من اتحاد المسند والمسند إليه في كل منهما ... وقد يختلف كل منهما في الجملتين وتوجد المناسبة المسوغة للوصل، على نحو ما ترى في قوله عز وجل : « فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِمْ قَالُوا إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُكُمْ فَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ قُلُوبًا مَلِئَتْ غَرَضًا » (١) فالمسند إليه فيهما : « الغم » وإخوة يوسف، يختلفان لا تناسب بينهما، وكذلك المسندان : « المس والمجىء »، وعدم الرعم من هذا وصل بين الجملتين لوجود المسوغ للوصل وهو ان المس سبب في المجىء ...

محسنات الوصل : ومن محسنات الوصل أن تتناسب الجملتان في الاسمية والفعلية، وفي المضى والمضارعة، وفي الأثر والنتى، وفي الإطلاق والتقييد... انظر إلى قوله تعالى : « إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ » (٢) تجد تناسب الجملتين في الاسمية ... ومنه قول الشاعر :

أسود إذا ما أبدت الحرب ناهيا وفي سائر الدهر الغيوث المواطرا

ومن تناسبهما في المضى قوله تعالى : « ... فَأَوَّاكُمُ وَأَيَّدَكُمُ بِتَهْنِئَةٍ وَرَزَقَكُمُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (٣) ... وقول الشاعر :

أعطيت حق تركت الريح حاضرة وجدت حق كأن الغيث لم يها

ومن تناسبهما في المضارعة قوله تعالى : « قُلِ الْآلِهَةُ مَالِكٌ لِلَّذِينَ يُؤْتُونَ

(٢) سورة الانعام آية ١٣ ، ١٤ .

(١) سورة يوسف آية ٨٨ .

(٣) سورة الأنفال آية ٢٦ .

لِلْمَلِكِ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ بِمَنْ تَشَاءُ...»^(١) .. وقول الشاعر :
 تروح ونغدو لحاجتنا وحاجة من عاش لانهضى

ومن تناسبهما في الأمر واللهى قوله تعالى : « وَكُلُوا وَاشْرَبُوا
 وَلَا تُسْرِفُوا »^(٢) ، وقوله عز وجل : « يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ
 وَأِنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْنِ عَلَى مَا آصَأَبَكَ إِنْ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ
 وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
 كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضِرْ مِنْ صَوْتِكَ إِنْ أَنْسَرَ
 الْأَصْوَاتَ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ... »^(٣)

ومن تناسبها في التقييد قول الشاعر :

دنوت تراضعا وعلوت مجدا فشاأناك انحدار وارتفاع

ولما يعد التناسب فيما ذكر من محسنات الوصل ما لم يدع داع إلى المخالفة،
 فلو دعا داع إلى المخالفة كان الحسن في تلك المخالفة التي دعا إليها هذا الداعي
 واقتضاها المقام ، انظر في قوله عز وجل : « إِنْ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ
 خَادِعُهُمْ... »^(٤) .

فقد آثر التعبير بالمضارع ، يخادعون ، ليفيد أن خداع المنافقين حادث
 متجدد ، وبالأسم ، خادعهم ، ليفيد أن فعل الله ثابت ودائم في جميع الأحوال،
 وفي هذا زيادة في التذكيل والتحذيب .. ومن ذلك قوله تعالى :
 « فَقَرِيعًا كَذَّبْتُمْ وَقَرِيعًا نَفَتُمْ »^(٥) ... يقول الزمخشري في بيان السر

(٢) سورة الأعراف آية ٣١ .

(١) سورة آل عمران آية ٢٦ .

(٤) سورة الداء آية ١٤٢ .

(٣) سورة لقمان آية ١٧-١٩ .

(٥) سورة البقرة آية ٨٧ .

البلاغي للمخالفة في الآية : ، فإن قلت : هلا قبل وفريقا قتلتم ؟ قلت : هراء ، وجهين أن تراد الحال الماضية ، لأن الأمر قطعي فأيديهم استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب ، وأن يراد : وفريقا تقتلونهم بعد لأنكم تحرمون حول قتل محمد صلى الله عليه وسلم لولا أنني أعصمه منكم .. (١) ، وبهذا يتضح لك أن المقام قد يقتضي عدم تناسب الجمليتين فيما ذكر ، وعندئذ يكون الحسن فيها اقتضاه المقام ودعا إليه الحال .

فروق في الجملة الحالية : سر بك جواز مجيء الواو بين الصفة وموصوفها وبين الحال وصاحبها سواء أكانت الصفة مفردة أم جملة وسواء أكانت الحال كذلك مفردة أم جملة ، وعرفت ما يمكن وراء مجيء الواو أو تركها من دقائق وأسرار .. ونريد هنا أن نفصل لك القول في الحال عندما تأتي جملة ، متى تقترن جملة الحال هذه بالواو ، ومتى تمتنع الواو ، ومتى يجوز الإتيان بالواو ويجوز تركها ، وقبل أن نفصل لك القول في تلك الجمل الحالية فننبهك إلى ما ذكرناه آنفاً من أن الواو لما فيها من معنى المخاطبة فهي تؤذن بالاستقلال ، وكأن القائل عندما يقول : جاء زيد وغلّاه يسعى بين يديه ، قد أخبر إخبارين ، أخبر بمجيء زيد ثم بحاله عند المجيء .. وهذا من شأنه أن يؤكد جملة الحال وأن يفيد شدة لصوقها بصاحبها .. أما إذا قال القائل : جاء زيد وغلّاه يسعى بين يديه ، فهو يخبر خبراً واحداً ، يخبر عن مجيء هذه حاله وتلك هيئته .. تأمل قول عبد القاهر : ، وإذا قد عرفت هذا فاعلم أن كل جملة وقت حالاً ثم امتنعت من الواو فذاك لأجل أنك عمدت إلى الفعل الواقع في صدرها فضممته إلى الفعل الأول في إثبات واحد ، وكل جملة جاءت حالاً ثم اقتضت الواو فذاك لأنك مستأنف بها خبراً وغير قاصد إلى أن تضمها إلى الفعل الأول في الإثبات . تفسير هذا أنك إذا قلت جاءني زيد يسرع كان بمنزلة قولك : جاءني زيد مسرعاً في أنك تثبت مجيئاً فيه لإسراع

وتصل أحد المعنيين بالآخر ، وتجعل الكلام خبراً واحداً وتريد أن تقول
جاءني كذلك ، وجاءني بهذه الهيئة ، وهكذا قوله :

وقد علوت قتود الرجل يسفني يوم قديديمة الجوزاء مسموم^(١)

كأنه قال : وقد علوت قتود الرجل بارزاً للشمس ضاحياً ، وكذلك
قوله :

متى أرى الصبح قد لاحت مخالبه والبلبل قد مزقت عنه السراويل

لأنه في معنى : متى أرى الصبح بادياً لانحاً بيناً متجلياً ، وعلى هذا
القياس أبداً ... وإذا قلت : جاءني وغلامه يسمى بين يديه ورأيت زيدا وسيفه
على كتفه ، كان المعنى على أنك بدأت فأنبت المجيء والرؤية ، ثم استأنفت
خبراً وابتدأت إثباتاً ثانياً لسمى الغلام بين يديه ولشكون السيف على كتفه ،
ولما كان المعنى على استئناف الإثبات احتيج إلى ما يربط الجملة الثانية بالأولى
لجئ بالواو كما جئ بها في قولك : زيد منطلق وعمره ذاهب ، والعلم حسن
والجمل قبيح ، وتسميتنا لها واو الحال ، لا يخرجها عن أن تكون مجتلية
لضم جملة إلى جملة^(٢) . وإياك أن يلتبس عليك الأمر فتظن أن جملة الحال
قد انفصلت بهذه الواو عن صاحبها وتباعدت عنه ، إن الأمر على عكس هذا ؛
لأن هذه الواو قد قربت الحال من صاحبها وأبرزتها جليلة واضحة شديدة
الاتصاق به ، مؤكدة الانسحاب إليه - كما وضحت لك - وإذ قد هرقت ذلك
فاعلم أنت الجملة الحالية قد يجب اقترانها بالواو وقد يمتنع وقد يجوز ...
ولإليك البيان .

(١) القتود بضم القاف جمع قند وهو خشب لرحل الممودة . وسفنه : لونه بجره
فغير لونه ، وسفنه النار كذلك . وقديديمة : لسيف فدام ظرف مكان . والجوزاء :
من منازل الشمس . ويوم مسموم : هبت فيه ربيع السموم بكثرة وهي ربيع حارة . .
(٢) دلائل الإعجاز ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

إذا كانت الحال جملة فعلية فعلها مضارع مثبت غير مقرون بقد امتنع
اقتنائها بالواو كما في قوله تعالى : « وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ
بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا »^(١). وقوله عز وجل : « وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ »^(٢). وقوله جل وعلا :
« وَتَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ »^(٣). وقوله عز من قائل : « وَسَيُجَنَّبُهَا
الْأُنثَىٰ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ »^(٤). ومنه قول الشاعر :

وقد علوت قنود الرحل يسفعي يوم قد يديمة الجوزاء مسموم
وقول الآخر :

ولقد أغتدى يداقع ركني أحوذي ذوميمة إضريح^(٥)
أما ما جاء من نحو قول العرب : قت وأصك عينه ، وقول عبد الله
ابن همام السلولي :

فلما خشيت أظافيرهم نجوت وأرهنهم مالكا
وقول هنترة العبسي :

علقتها عرضا وأقتل قومها زعما لعمر أيلك أيس بمزعم

ف قيل : إن ما في المثال شاذ وما في البيتين ضرورة ، وقيل لأنه على حذف
المبتدأ والتقدير : قت وأذا أصك .. نجوت وأذا أرهنهم .. علقتها عرضا
وأنا أقتل .. وقال عبد القاهر : ليست الواو للحال بل هي للعطف والفعل
المضارع في تأويل الماضي والمعنى : قت ومسكت .. نجوت ورهنت ..
علقت وقتلت ..

(١) سورة الكهف الآية ٢٨ . (٢) سورة المذثر الآية ٦ .

(٣) سورة الأنعام الآية ١١٠ . (٤) سورة الليل الآية ١٧ ، ١٨ .

(٥) الأحوذي : السريغ في السفر وفي غيره ، وصف للرس ، والإضم ينج : الفرس

المجود ، الواح الأيان الشديد المدو ، وذو ممة : ذرايونة وسهولة في السير ..

وإن كان المضارع مقرونا بقد وجب اقتران الجملة بالواو كما قوله تعالى :
« وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ وَقَدْ نَزَّلْنَا رَسُولَ
اللَّهِ إِلَيْكُمْ » (١) ، وكقولك : لِمَ لَمْ تستعد وقد ترحل غدا ..

وإن كان المضارع منفصلا جاز أمرا : اقتران الجملة بالواو ، وترك الواو ،
والمضارع المنفى يظل مضارعا إذا كان المنفى بغير لم ولما ، أما المنفى بلم ولما
فهو ماضى معنى ؛ لأن لم ولما يقلبان إلى الماضى ، وهو أى المنفى بلم ولما مجوز .
فيه الأمران أيضا .. فما جاء بالواو قوله تعالى : « فَاسْتَقِمْ وَلَا تَقْنَبْ مَكَانَ » (٢) ،
فى قراءة من قرأ بتخفيف الخون ، وكقولهم : كنت ولا أخشى بالذنب ، ،
أى : لا أخوف به ... وكقولهم : يصيب ولا يدرى ويقول ولا يفعل ...
وكقول مسكين الدارمى :

أَكْسَبَتْهُ الْوَرَقُ الْبَيْضُ أَبَا وَهَدَّ كَانَ وَلَا يَدْعَى ثَاب

ولقول مالك بن ربيع وكان قد جنى جناية فطلبه مصعب بن الزبير :

بَغَانِي مَصْعَبُ وَبَغَرُ أَبِيهِ قَايِنُ أَحْمَدُ عَنْهُمْ لَا أَحْمَدُ
أَفَادُوا مِنْ دَمِي وَتَوَعَّدُونِي وَكَنْتُ وَمَا يَنْهَنِي الْوَعِيدُ

فكان فى هذه الشواهد تامة بمعنى : وجد وقد اقترنت الجملة الحالية بالواو
كما ترى وفعلها مضارع منفى .. وما جاء بغير الواو قوله تعالى : « وَمَا لَنَا
لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ » (٣) وقوله عز وجل : « وَمَا لَكُمْ لَا تُنْفَكِلُونَ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ » (٤) وقول الشاعر :

لَا تَلْقَى لَأَرْنَى غَيْرَى بِنَظَرَةٍ تَنْسَى السِّلَاحَ وَتَعْرِفُ جَبْهَةَ الْأَسَدِ

(١) سورة الصف آية ٥ . (٢) سورة يونس آية ٨٩ .

(٣) سورة المائدة آية ٨٤ . (٤) سورة النساء آية ٧٥ .

وقول الآخر :

أول أنت قوما لا ارتفاع قبيلة دخلوا السماء دخلتها لا أحجب

وقوله :

عهدتك ما تصبو وفيك شبيبة فما بالك بعد الشيب صبا متيا

وكذلك إذا كانت الجملة الحالية جملة فعلية فعلها ماض لفظا أو معنى جاء الأمران أيضا اقترانها بالواو ، وعدم اقترانها ، والماضي لفظا لا يقع حالا إلا وهو مقرون بقدر ظاهرة أو مقدره ، والماضي معنى هو المضارع المنقبط لم أو لما - كما ذكرت - . فما جاء بالواو قوله تعالى : « أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ » (١) ، وقوله عز وجل : « أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا » (٢) ، وقول امرئ القيس أبتغاني وقد شغقت فرأذاها كما شغف المشوأة الرجل الطاللي وقوله أيضا :

فجئت وقد نضت نفوس ثيابها لدى الستر إلا لبسة المتفضل

فالجملة الحالية كما ترى فعلها ماض لفظا وقد اقترن بالواو . وما جاء فعلها ماضيا معنى وقد اقترن بالواو أيضا قوله تعالى : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ » (٣) ، وقوله عز وجل : « أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَرْيِيًّا » (٤) .

وقول كعب بن زهير :

لأناخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب وإن كثرت في الأقاويل

وقوله عز من قائل : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِبْكُمْ

(٢) سورة مريم آية ٨٠ .

(٤) سورة دريم آية ٢٠ .

(١) سورة ال عمران آية ٤٠ .

(٣) سورة الأنعام آية ٩٣ .

مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ . . .^(١) . . . وما جاء بلا واو قوله تعالى :
« أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ هُدُورُهُمْ »^(٢) . . . وقول الشاعر :

وإني لتعروني إذ ذاك مرة كما انتفض العصفور بلله القطر
وقول الآخر :

متى أرى الصبح قد لاحت مخايله والليل قد مزقت عنه السراويل
وكقوله تعالى : « فَأَتَقَالِبُوا يَنفَعْتُمْ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسُّهُمْ سُوءٌ »^(٣)
وقوله عز وجل : « وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَنَظَرِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا . . . »^(٤)
وقول زهير :

كأن فتات العهن في كل منزل نزلن به حب الفنا لم يحطم^(٥)
وإذا كانت جملة الحال اسمية فالأولى أن تأتي بالواو كقولك جاء زيد
وعمر وأمامه ، وأتاني وسيفه في يده . وكقول امرئ القيس :
أبتلني والمشرقي مضاجعي ومسفونة زرق كأنياب أغوال
وقوله أيضا :

ليالي يدعوني الهوى فأجيبه وأعين من أهوى إلى روان^(٦)
وقد يأتي بدون الواو كقولك : كلمته غره إلى في ، ورجع عوده على يديه .
وقول الشاعر :

ولولا جنان الليل ما آب عامر إلى جعفر سرباله لم يمزق
فإن كان المبتدأ في الجملة الحالية ضمير صاحب الحال وجبت الواو

- (١) سورة البقرة آية ٢١٤ . (٢) سورة النساء آية ٩٠ .
(٣) آل عمران آية ١٧٤ . (٤) سورة الأحزاب آية ٢٥ .
(٥) الفتات : اسم لما انثت وتقطع من الشيء . والعهن : للصوف المسبوغ .
واللهنا : عنب الثعلب . . .
(٦) روان : جمع رانية أى : مديعات للنظر .

ولا تصلح جملة الحال بدونها البتة ، كقولك : جاء زيد وهو راكب ودخلت عليه وهو على الحديث .. فلا يجوز أن تقول : « جاء زيد وهو راكب » ، ولا دخلت عليه وهو على الحديث ، ومن ذلك قوله تعالى : « فَلَا تَجْمَعُوا لَهُ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ »^(١) ؛ وقوله جل وعلا : « وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ .. »^(٢)

وإن كان الخبر في الجملة الحالية ظرفا أو جارا ويجرورا وقدم على المبتدأ كثر فيها أن تجيء بغير الواو كقولك : قدم المقاتل على كتفه سيف وأقبل في يده سوط ، وقول بشار :

إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها خرجت مع البازي على سواد^(٣)
وقول الآخر :

فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفعاً في رأس غمدان داراً منك محلاً^(٤)

ويقل مجيئها عندئذ بالواو كقولك : جاء وعليه ثوب ، ومر وفي يده سيف وقد جاءت في النظم الكريم بالواو وبدونها ...

قال تعالى : « وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرَبَةٍ إِلَّا وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ مَعْلُومٌ »^(٥) ، وقال عز قائله : « وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرَبَةٍ إِلَّا لَمْ يُنْذِرُونَا »^(٦) ، وقد مر بك السر البلاغي السكامن وراء ذكر الواو وتركها في الأيتين السريعتين .. وما يجيء بالواو في الأكثر ، ثم يأتي بغير الواو في مواضع فيلطف مكانه ، الجملة قد دخلتها ليس . تقول : أتاني وإس عليه ثوب ، ورأيت وليس معه

(١) سورة البقرة آية ٢٢ . (٢) سورة البقرة آية ١٨٧ .

(٣) للبازي ويقال له أيضا للباز : ضرب من الصقور وعلى سواد : أى بقية من الليل .

(٤) غمدان بضم اللين : حصن بسماء ومحال : أبنه سهلة يحل للناس بها كثيراً ،

والبيت لأمية بن أبي الصامت في مدح سيف بن ذى يزن . .

(٥) سورة الحجر آية ٤ . (٦) سورة الشعراء آية ٢٠٨ .

شيء ... هذا هو الكثير المستعمل ، وقد جاءت بدون الواو لحسن موقعها ولطف ، كما في قول الاعرابي :

لنا فتي مـحبذا الإفتاء تعرفه الأرسان والدلاء
إذا جرى في كفه الرشاء خلى القلب ليس فيه ماء (١)

وقد تجد أن الجملة الاسمية جاءت بغير واو لحسنت ، ثم تنظر وتامل فتجد أن سبب الحسن دخول حرف عـ في المبتدأ ، كما في قول الفرزدق :

فقلت عسى أن تبصريني كأنما بني حواري الأسود الحوار (٢)

فإنه لولا دخول د كان ، عـ في المبتدأ لم يحسن الكلام إلا بالواو بأن يقال : عسى أن تبصريني وبني حواري الأسود ..

وشبيه بهذا أن ترى الجملة قد جاءت حالا عقب مفرد فلطف مكانها وحسن ، ولو أردت أن تجعلها حالا من غير أن يتقدمها هذا المفرد لم يحسن ، كما في قول ابن الرومي :

والله يبقيك لنا سالما برداك تبجيل وتعظيم

ف قوله : د برداك تبجيل ، في موضع حال ثانية ، ولو لم أترك أسقطت سالما ، من البيت فقلت : والله يبقيك برداك تبجيل وتعظيم لم يكن شيئا (٣) ..

وقد تجد الجملة الحالية جملة اسمية والمبتدأ فيها ضمير يعود إلى صاحب الحال وعلى الرغم من هذا تمتنع الواو بلاغة ، كما في قوله تعالى :

(١) الأرسان : جمع رسن وهو الجبل . والرشاء : جبل الدلو . والقلب : البئر .. وخلى القلب : تركه .

(٢) الحوارد : المنضاب مفرد حارد .

(٣) انظر دلائل الإعجاز ص ٢٢٢ .

« وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ » (١) ،
بجملته : « هم قائلون » ، حال ثانية وقد صدرت بضدير يعود إلى صاحبها ،
فحقها أن تكون بالواو ، ولكن الواو امتنعت هنا ، وامتناعها لسر
بلاغى وهو كراهة أن يتوالى حرفا عطف وهما « او والواو » ، فى اللفظ ،
فلما استقبح تواليهما امتنعت واو الحال ..

• • •

الفصل الرابع

الإيجاز والإطناب

لكل مقام مقال ، والبلاغة كما عرفها البلاغون ، مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، فالحال قد تقتضى الإيجاز فى القول وطى الكلمات وعندئذ تكون البلاغة فى أن يوجز المتكلم ويختصر كلامه ، وقد تقتضى الإطناب وإطالة القول وعندئذ تكون البلاغة فى الإسهاب وإشباع القول وإطالة الكلام .. ولذا قال الأعرابي عندما سئل عن البلاغة : « البلاغة : الإيجاز فى غير عجز والإطناب فى غير خطل » ، وسأل معاوية صحار العبدى ، ما تمدون البلاغة فيكم ؟ فقال صحار : الإيجاز . قال معاوية : وما الإيجاز ؟ فأجاب : أن تجيب فلا تبطل ، وتقول فلا تقطى (١) . .

وقال عبد الله بن المقفع : « البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة ، فمنها ما يكون فى السكوت ومنها ما يكون فى الاستماع ومنها ما يكون فى الإشارة ومنها ما يكون فى الاحتجاج ومنها ما يكون جواباً ومنها ما يكون شعراً ومنها ما يكون سجعاً وخطباً ومنها ما يكون رسائل ، فعمامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة ، فأما الخطب بين السماطين وفى إصلاح ذات البين ، فالإكثار فى غير خطل والإطالة فى غير إملال ، وليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى إذا سمعت صدره عرفت قافيته ، فقل له : فإن مل السامع الإطالة التى ذكرت أنها حق ذلك المواقف ؟ ، قال : إذا أعطيت كل مقام حقه ، وقت بالذى يجب من سياسته ذلك المقام ، وأرضيت من

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ٩٦ .

يعرف حقوق الكلام ، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو ، فإنه لا يرضيهما شيء ، وأما الجاهل فلست منه وأيس منك ، ورضا جميع الناس شيء لا تناله ، وقد كان يقال : رضا الناس شيء لا ينال . . . (١) . . . وقد امتدحوا الإيجاز كثيرا فقالوا : البلاغة إجماع اللفظ وإشباع المعنى . . البلاغة لمحة دالة . . البلاغة كلمة تكشف عن البقية . . ولعل السبب في هذا يرجع إلى أمة العرب ، وإلى أنهم أمة صافية الذهن ، دقيقة الحس ، سريعة الفهم ، فالعربي تمكينه الإشارة وتغنيه اللمحة ، وغير العربي يحتاج إلى الإطالة وإشباع القول ، وبهذا عل الجاحظ إيجاز القرآن الكريم عند خطاب العرب والأعراب ، والبسط والإطالة عند خطاب بني إسرائيل . (٢) وهذا ما يفسر لنا أيضا سر السؤال الذي وجه إلى ابن المقفع في قوله المذكور والذي تدرك منه رائحة الاعتراض على مدح الإطناب في موضعه وفي مقامه الذي اقتضاه : فإن من السامع الإطالة التي ذكرت أنها حق ذلك الموقف . . .

وبهذا يتضح لك أن الإيجاز مقامات تقتضيه ، ومواضع تلائمه ، كالحكم والأمثال ، كما أن الإطناب مقامات تقتضيه ، ومواضع تلائمه ، كالمدح والفخر والوعظ ، ولا يحسن فيه الإيجاز لا يحسن فيه الإطناب ، وكذلك ما يحسن فيه الإطناب لا يحسن فيه الإيجاز ، ومن مقامات الإيجاز مقامات الحذف التي عرفتها في باب المسند إليه والمسند ومتعلقات الفعل ، كما أن من مقامات الإطناب تلك المقامات التي وقعت عليها عند دراستك لذكر المسند والمسند إليه ومتعلقات الفعل (٣) . .

• • •

الإيجاز : معناه وأنواعه : وقد عرفوا الإيجاز بأنه : اندراج المعاني المتكاثرة تحت اللفظ القليل . . أو عرض المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة مع الإبانة والإفصاح ليسهل تعلقها بالذهن وتذكرها عند الحاجة إليها في المناسبات المختلفة . . وهو نوعان :

(١) البيان والتبيين ١/ ١١٥ . (٢) انظر الحيوان ١/ ٩٣ .
(٣) ارجع إلى الجزء الأول من هذا الكتاب .

١ - إيجاز قصر . ٢ - إيجاز حذف .

فإيجاز القصر هو الدلالة على المعاني الكثيرة بالفاظ قليلة ، أى : تضمين العبارات القليلة القصيرة معانى كثيرة غريبة ، دون أن يكون فى تراكيبها لفظ محذوف . . . كفى قوله تعالى : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ »^(١) ، فقد جمع فى هذه الآية السكريمة جميع مكارم الاخلاق ؛ لأن فى « العفو » الصفح والإغضاء ومسامحة من أساء والرفق فى كل الأمور ، وفى الأمر بالعرف ، صلة الأرحام ومنع اللسان عن الكذب والغيبة ، وغض الطرف عن كل محرم ، والقيام بمتطلبات الدعوة إلى الله عز وجل ، وفى الإعراض عن الجاهل : الصبر والحلم وكظم الغيظ . . . فهذه ألفاظ قليلة وقد فاضت معانيها إلى الغاية ، وزادت عن الحد إلى غير نهاية . . . ومن ذلك قوله تعالى : « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ »^(٢) فقد دلت هذه الجملة من الآية السكريمة على استقصاء جميع الأشياء والشئون ، حتى روى أن ابن عمر رضى الله عنهما قرأها فقال : « من بقى له شيء فليطلبه » . . . ومنه قوله عز وجل : « أُولَئِكَ لَهُمْ لَاؤْمِنُ »^(٣) ، فهذه الجملة يدخل تحتها كل أمر محبوب ويفتقنها كل صنوف المنكره . . . وقوله تعالى : « انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا »^(٤) ، فذلك ثلاث كلمات حوت معانى غريبة ، إذ شملت الأمر بالنفير العام للجهاد ، وقطعت جميع الحبيج والذرائع المعوقة عن الجهاد . . . وقوله عز وجل : « أَخْرِجْ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا »^(٥) ، فقد دلت هذه الآية السكريمة على جميع ما أخرج من الأرض قوتاً ومتاعاً للناس ولدواب من عشب وشجر وحطب ولباس ونار وماء وغير ذلك . . . وانظر إلى قوله عز من قائل فى وصف

(٢) سورة الأعراف آية ٥٤ .

(٤) سورة التوبة آية ٤١ .

(١) سورة الأعراف آية ١٩٩ .

(٣) سورة الأنعام آية ٨٢ .

(٥) سورة النازعات آية ٣١ .

انتهاء الطومان : « وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلظَّالِمِينَ » (١)
 فقد قصت القصة مستوعبة بحيث لم يخل بشيء منها في أوجز عبارة وأخصر قول .. ومن المشهور في هذا الباب قوله تعالى : « وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ » (٢) ، إذ المراد به أن الإنسان إذا علم أنه متى قتل قتل كان ذلك داعيا قويا له إلى أن يكف عن القتل ولا يقدم عليه فأوجب ذلك حياة الناس ، فانظر كيف اندرجت المعاني المتكاثرة تحت هذه الألفاظ القليلة .. وقد كان أوجز كلام قيل في هذا المعنى ، قول العرب : « القتل أنفى للقتل » ، ولكن الآية الكريمة بنظمها الدقيق المدهج ، وبلاغتها السامية ، فاقت هذا القول من وجوه متعددة أهمها :

- ١ - فيها قالوه تكرار ، والنظم الكريم لا يكرر فيه ..
- ٢ - ليس كل قتل نافيا للقتل ، إذ لا ينفي القتل القتل إلا إذا كان على حكم القصاص ، وهذا ما تفيد به الآية الكريمة دون القول المذكور .
- ٣ - في الآية طباق لطيف بين القصاص والحياة .. والضدي يظهر حسنة الضد ..
- ٤ - الآية جعلت القصاص كالأصل للحياة وذلك بدخول الحرف « في » عليه ، وفي ذلك مالا يخفى من المبالغة الجميلة والتخييل العجيب ، إذ جعل لـ الغناء محلا للحياة ..

- ٥ - الآية الكريمة أو جز من القول المذكور .
- ٦ - في تنكير كلمة « حياة » ، إفادة للتعظيم والتنويع ، فهي حياة عظيمة نادرة ، تمتاز عن حياة البشر وكأنها حياة مستقلة خاصة ، إذ إن من هم بالقتل إنما يعلم أنه سيقبض منه فإنه يرتدع وينزجر ويكف عن القتل فيسلم صاحبه فيسلم هو فيحيا ويحيا صاحبه .. تلك حياة عظيمة فريدة ..

٧ - نخلو الآية الكريمة من لفظ «القتل» المشعر بالوحشة ، وإشارتها إلى تحقيق العدل بالفظ القصاص ...

ومن شواهد إيجاز القصر أيضا قوله تعالى : « مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمٍّ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ »^(١) ، أى : لا شفاعة ولا طاعة . فليس المراد تنفى طاعة الشفيع بمعنى أن الشفيع يوجد ولكن لا يطاع ، بل المراد أنه لا شفاعة أصلا .. ومنه قول امرئ القيس :

على لاحب لا يهتدى بمناره إذا سافه العود النباطى جرجرا^(٢)

أى : لا منارة ولا اهتداء .. وقول أوس بن حجر :

لا يفزع الأرنب أهوالها ولا ترى انصب بها بنجر^(٣)

أى : لا أرنب ولا فزع ، ولا نصب ولا انجحار .. ففى هذه الشواهد قد اتفقت القيد والمقيد معا . والتنفى موجه إلى القيد فقط ، ولا ينفى عليك ما فى هذا من إيجاز .. وانظر إلى قول الشريف الرضى :

مالوا إلى شعب الرجال وأسندوا

أيدى الطعان إلى قلوب تحفق^(٤)

فإنه لما أراد أن يصف هؤلاء القوم بالشجاعة فى أثناء وصفهم بالغرام غير عن ذلك بقوله : وأسندوا أيدى الطعان إلى قلوب تحفق ..

(١) سورة غافر آية ٢٨ .

(٢) اللاحب : الطريق : والمنار : لعلامة تجعل على الطريق . وسافه : ضمه ، والعود : الجبل المسور والنباطى : الضخم وجرجر : ضج ورغا ، وإنما يرغو الجمل لمعرفة يمد الطريق ومشقة السير فيه ..

(٣) بنجر : يدخل بنجره .. يصف منافزة بأنها غير مطروقة لئلا ..

(٤) شعب الرجال بضم الشين : خشبها ، وميلهم إليها إشارة إلى ركوبهم عليها ورحيلهم لاعتقال وتخفق : تضطرب أمراق الآحية ..

وقول أبي تمام :

وظلمت نفسك طالبا لإنصافها فوجبت من مظلومة لم تظلم
أراد : أكرهتها على تحمل الصعاب والمشاق فأنصفتها بذلك إذا وجبت لها
مجدا عريقا وذكرنا حسنا ، فصارت بهذا الصنيع مظلومة لم تظلم ..

وقول الآخر :

وإن هو لم يحمل عن النفس ضيغها فليس إلى حسن الثناء سبيل
فقد جمع في البيت الصفات الحميدة من شجاعة وسماحة ومروءة ونجدة
وإغائه ملهوف وغير ذلك ؛ لأن هذه الصفات من ضيغ النفس ، إذ تجدد بحملها
مشقة وعناء ..

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد أوتي جوامع الكلم ، والكلام
الجامع هو الذي تتكاثر معانيه وتقل ألفاظه ، ومن جوامع كلمه عليه الصلاة
والسلام : « لا ضرر ولا ضرار » ، « إنكم لتسكثرون عند الفزع وتقلون عند
الطمع » ، « إن الله لا يمل حتى تموتوا » ، « المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء
وعودوا كل جسم ما اعتاد » ، فتلک الألفاظ قليلة حوت معاني كثيرة يطول بك
القول لو وصفها والإحاطة بها .. ومن إيجاز الكتاب ، ما كتبه عمرو بن مسعدة
إلى المأمون بشأن رجل يهمله أمره إذ قال في كتابه : « كتابي إليك كتاب
واثق بمن كتب إليه معنى بمن كتب له ، ولن يضيع بين الثقة والعناية حامله » ..

وما كتبه إليه أيضا يحثه على تهجيل أرزاق الجند : « كتابي إلى
أمير المؤمنين ، ومن قبلي من قواده وسائر أجناده في الانقياد والطاعة على
أحسن ما يكون جند تأخرت أرزاقهم ، وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم ،
فاختلت لذلك أحوالهم والتأثت معه أمورهم » ولا يخفى عليك ما في الكتابين
من معان غزيرة صيغت في عبارات قليلة وألفاظ موجزة ، وهذا هو شأن
إيجاز القصر الذي يجري مجرى الأمثال في الجمع بين الإيجاز والجمال والقوة ..

انظر إلى : كتبه جعفر بن يحيى البرمكي ووقع به في كتاب رجل شكاً إليه بعض عماله : « قد كثر شاكروك وقال شاكروك فأما اعتدلت وإما اعتزلت .. »

• • •

أما إيجاز الحذف ، فقد عرفه البلاغيون بأنه : التمهيد عن المعاني الكثيرة في عبارة قليلة وذلك بحذف شيء من التركيب مع عدم الإخلال بتلك المعاني .. ولا بد في كل حذف من وجود أمرين : داع يدعو إليه ، وقربة تدل على المحذوف ونرشد إليه وتمينه .. والمحذوف إما أن يكون جزء كلمة ، أو كلمة أو جملة أو أكثر من جملة .. وإليك بيان ذلك :

حذف جزء الكلمة : كما في قوله تعالى : « أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا »^(١) ، فالأصل : ولم أكن بغياً وقد حذفت النون تخفيفاً .. وقوله عز وجل : « وَنَادَوْا بِمَا مَالٍ لِّيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ : إِنَّا نَسْكُم مَّا كُنْتُمْ نَادُونَ »^(٢) ، في قراءة من قرأ بترخيم المنادي ، والأصل : يا مالك ، فحذفت السكاف إشارة إلى ما هم فيه من ألم وعذاب وضيق وحزن .. ومنه قول لبيد :

• درس المناسبات فإبان •

أراد : درس المنازل .. ومنه قول علقمة بن عبدة :

كان لإبريقهم ظبي على شرف مقدم بسبا الك : ان ملثوم

أراد : بسباب السكتان .. وقول الحارث الجرمي :

قوى هم قتلوا أمهم أخى فإذا رميت بصيبي سهمي

أراد : يا أميمة ، فحذف حرف النداء ، ورخم المنادي فحذف منه

(٢) سورة الزخرف آية ٧٧ •

(١) سورة مريم آية ٢٠ •

التام . . . وارجع إلى باب المسند إليه في الجزء الأول من هذا الكتاب لتقف على الأسرار البلاغية السكاملة وراء الحذف في هذه الشواهد . .

حذف الكلمة : وله صور كثيرة أهمها :

١ — حذف الحروف ، كحذف همزة الاستفهام في قوله تعالى : « مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَعْدَنُ مِنْ رَبِّهِمْ كَعْنٌ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ »^(١) ، إذ المراد : أمثل الجنة التي وعد المتقون كن هو خالد في النار . . . فحذفت الهمزة وفي حذفها زيادة تصوير لعناد المعاندين ومكابرة المكابرين الذين يسوون بين الحق والباطل وبين من يتمسك بالبينة ومن يتبع هواه . . يقول الزمخشري : « فإن قلت ، : ما معنى قوله تعالى : « مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وعد المتقون فيها أنهار . . كعن هو خالد في النار ، ؟ ، قلت : هو كلام في صورة الإثبات ومعنى النفي والإنكار ، لانطوائه تحت حكم كلام مصدر بحرف الإنكار ودخوله في حيزه وانخراطه في سلكه وهو قوله تعالى : « أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَبْتَغٍ مِنْ رَبِّهِ كَعْنٌ رَبُّنَ لَهُ سُوءٌ قَوْلٍ » ، فكأنه قيل : أمثل الجنة كن هو خالد في النار ؟ ، أى : كمثال جزاء من هو خالد في النار ، فإن قلت : فلم عرى من حرف الإنكار وما فائدة التعرية ؟ قلت : تعريته من حرف الإنكار فيها زيادة تصوير لمكابرة من يسوى بين المتمسك بالبينة والتابع لهواه ، وأنه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة التي تجرى فيها تلك الأنهار ، وبين النار التي يسقى أهلها الحميم . . »^(٢) . ومنه قوله تعالى : « وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَى أَنْ يَتَذَكَّرَ

بني إسرائيل^(١) ، إذ المراد : أو تلك نعمة .. ؟ وقوله عز وجل :
 « وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ
 إِمَامًا قَالَ : وَمِنْ ذُرِّيَّتِي »^(٢) ، أى : أو من ذرئتي ؟ .. لحذف الهمزة
 في الموضعين^(٣) .. وحذف « لا » إلغائية كما في قوله تعالى : « قَالُوا : تَأْتِيهِمْ
 تَنْفَاطُ كُرُيُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ رِجَالًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ »^(٤) ،
 أى : لا تنفأ .. وحذف حرف النداء كما في الآية السكينة : « يُوَسِّفُ
 أَعْرَضَ تَنْ هَذَا .. »^(٥) .. وكافي البيت :

قوى هم قتلوا أمهم أخى فإذا رميت يصيبني سهمى

إذ المراد : يا يوسف أعرض .. يا أميمة . فحذف حرف النداء^(٦) .

٢ - حذف المستند إليه أو المستند أو أحد متعلقات الفعل كالمفعول
 والحال والجار والمجرور ، على نحو ما مر بك في تلك الأبواب .

٣ - حذف المضاف ، كما في قوله تعالى : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا
 وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا »^(٧) ، أى أمل القرية وأصحاب العير ، لحذف المضاف
 في الموضعين ، وحذفه يشير إلى شهرة السرقة وذيوعها وكأنهم يريدون : أن
 أمر سرقة قد اشتهر وذاع إلى حد أنك لو سألت الجادات لأجابت ،
 ولو سألت الحيوانات انطلقت وأخبرت .. ومنه قوله تعالى :
 « وَمِثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمِثْلِ الَّذِي بَنَعَ بِمَالٍ يَسْمُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ »^(٨)

(١) سورة الشعراء آية ٢٢ . (٢) سورة البقرة آية ١٢٤ .

(٣) ارجع إلى أسرار هذا الحذف في رسالتنا الحذف في ضوء أساليب القرآن .

(٤) سورة يوسف آية ٨٥ (٥) سورة يوسف آية ٢٩ .

(٦) ارجع إلى باب المستند إليه في الجزء الأول من هذا الكتاب

(٧) سورة يوسف آية ٨٢ . (٨) سورة البقرة آية ١٧١ .

(١٦١) - علم الثاني ح ٢

إذ المراد . ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي يذوق بما لا يسمع ، فحذف المضاف وهو داعي ، رفعا لشأنه وتزيها له عن أن يقرن في اللفظ بهذا الذي يذوق بما لا يسمع وأن يضاف إلى الذين كفروا . . وحذف المضاف يقع كثيرا في النظم الكريم على نحو ما ترى في الآيات الكريمة : « وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ » ، أى : في سبيل الله « وَحَرِّمْنَا عَلَيْهِمُ طَيِّبَاتٍ يَلَتَ لَهُنَّ » أى : تداول طيبات . « لَئِنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ » ، أى : راحة الله ونعيم اليوم الآخر . « إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا » ، أى : من مذابه وقد ظهرت هذه الإضافات في الآية الكريمة « وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ يَحْذَرُ » . ومعه قوله عز وجل : « فَذَلِكَ الَّذِي كُنْتُمْ تُفِرُّونَ » أى : في مرادته .

٤ - حذف المضاف إليه : كما في قوله تعالى : « وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَيْنَاهُمَا بِبَشِيرٍ » ^(١) ، أى : بمشرا ليل ، وقوله تعالى : « اللَّهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ » ^(٢) ، أى : من قبل الغاب ومن بعده .

٥ - حذف الموصوف : كما في قوله تعالى . « وَعِنْدَهُمْ قَادِرَاتُ الطُّرُفِ أَنْزَابٌ » ^(٣) ، أى : حور قادرات الطرف . وقوله عز وجل : « إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ » ^(٤) ، أى : وعمل عملا صالحا فاكتمنى بالصفة عن الموصوف في الآيتين لتدبوع الصفة وشهرتها .

٦ - حذف الصفة : كما في قوله تعالى : « أُمَّا السَّانِفَةُ فَسَكَّاتٌ لَمَّسَ كَيْنَ يَمْلِكُونَ فِي الْبَحْرِ تَارَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ لَكِ بَأْخُذٌ كُلٌّ »

(١) سورة الأعراف آية ١٤٢ . (٢) سورة الروم آية ٤ .

(٣) سورة ص آية ٥٢ . (٤) سورة مريم آية ٦٠ .

سَفِينَةٍ غَصْبًا^(١)، أى : يأخذ كل سفينة ممالحة ، بدلا من قوله : « فأردت أن أعيها .. » ، والحذف هنا يرحى بجبروت هذا الملك وإفساده وشدة ظلمه ، فغصبه ليس قاصراً على المالح من السفن ، بل يتجاوز إلى غير الصالح ، فغايته هى الغصب والاستيلاء ، فالحذف فى الآية يصور مدى ظلمان الملك وشدة ظلمه ..

٧ — حذف القسم : كقوله تعالى : « كَإِنِّى لَمِّنْ بَيْنَهُمُ الْغَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ • وَالَّذِينَ جِئُوا فِى الْمَدِينَةِ لِيُتَغَرَّبُنَّكَ بِهِنَّ لَمَّا لَمْ يُجَازُوا وَكَانَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا »^(٢) ؛ أى : والله لئن لم ينقه .. وقوله عز وجل : « وَآلِىنَّ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لِيُسْجَنَ وَلَيْسَكُنَا مِنَ الصَّادِقِينَ »^(٣) أى : والله لئن لم يفعل ، لحذف القسم فى الموضعين .

٨ — حذف جواب القسم : كقوله تعالى : « وَالنَّجْوَى وَلِأَلْ عَشْرِ وَالشَّفِيعِ وَالْوَتْرِ وَالْأَنْبِيَاءِ إِذَا يَسَّرَ لَكِ فَاذْكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ »^(٤) ؛ فقد حذف جواب القسم لوضوحه وبمائه ، وتقديره : لا يهثن .

٩ — حذف الشرط : كقوله تعالى : « قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ »^(٥) ، وقوله عز وجل : « فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا »^(٦) والتقدير : فإن تتبعونى يحبك الله . فإن تتبعوا هدى صراطاً سويًا .

١٠ — حذف جواب الشرط : كقوله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ أَعْلَمْ تَرْتَضُونَ »^(٧) ، أى : أعرضوا ،

(٢) سورة الاحزاب آية ٦٠ .

(٣) سورة المجر آية ٥-١ .

(٤) سورة مريم آية ٤٣ .

(١) سورة السجدة آية ٧١ .

(٣) سورة يوسف آية ٣٢ .

(٥) سورة آل عمران آية ٣١ .

(٧) سورة يس آية ٤٥ .

بدايل قوله بعده : « وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ » وهذا الحذف يشير إلى أنه كان ينبغي لهم أن يستجيبوا ويقبلوا النصيح فيحذروا ويتقوا ، وما كان ينبغي لهم الإعراض والتولى ؛ وكان طيه من اللفظ ينبغي بضرورة التخلي عنه وإسقاطه من الأذهان والمسايرة إلى قبول الهداية والحق . . ومنه قوله تعالى : « وَسَيَقُولُ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى اللَّهِ تَزُورًا حَقِّي إِذَا جَاءَهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ خَيْرُكُمْ فَأَدْخَلُوها خَالِدِينَ »^(١) ؛ والتقدير : حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها سعدوا وحصلوا على النعم المقيم الذي لا يحيط به الوصف . . . وبلاغة حذف الجواب هنا تمكن في أن النفس تذهب في تقدير الجواب المحذوف كل مذهب ، وفي الدلالة على أنه شيء لا يحيط به الوصف ولا تدفع له العبارة . . وتأمل ما وراء هذه الراود وفتحت ، من تكريم ونشريف طوؤ لاء الذين اتقوا ، فقد فتحت لهم أبواب الجنة قبل أن يأتوها تذكريما لهم وتعظيما لشأنهم ، ثم انظر إلى وصف الذين كفروا : « وَسَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ زُورًا حَقِّي إِذَا جَاءَهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا »^(٢) نجد أن « فتحت ، قد جاءت بدون واو فهي جواب « إذا » ، ويجبها بدون الواو يشير إلى شدة مراجعتهم بالعذاب ، فأبواب جهنم مخلقة لا تفتح إلا عند وصولهم إليها « إذا جاءوها فتحت أبوابها » حتى توأجههم بصنوف العذاب وألوان الآلام . . . أما أبواب الجنة فتفتح قبل مجيء الذين اتقوا ونجوز قبل وصولهم وتعد ، تذكر بما لهم وتعظيما « خَيْرَاتٍ عَدَنَ مُفْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ »^(٣) . . ومنه قوله تعالى : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ »^(٤) . . وقوله جل وعلا :

(١) - سورة الزمر آية ٧٣ . : (٢) سورة الزمر آية ٧٤ . . . (٣) :

(٤) سورة السجدة آية ٩٣ . (٣) سورة ص آية ٥٠

« وَتَوَّ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى الْغَارِ »^(١). والتقدير : رأيت أمراً عظيماً وشيئاً عظيماً لا يحيط به الوصف ، فقد حذف الجواب هنا قصداً إلى إزادة الترهيل والتفطيم . . ومنه قوله تعالى : « وَتَوَّ أَنْ قُرْآنًا نُفِثَ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلَّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً »^(٢) ، والتقدير : لو أن قرآناً أوتي تلك القوة الخارقة لكان هذا القرآن ، لحذف جواب « لو » هنا يشير إلى وضوحه وظهوره وانصراف الأذهان إليه بمجرد التلفظ بجملة الشرط . .

١١ - حذف جواب الاستفهام : كافي قوله تعالى : « وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ؟ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ »^(٣) ، فحذف جواب الاستفهام وتقديره : « لا يرانا من أحد » بدليل قوله : « ثم انصرفوا » ، لأنهم لم ينصرفوا إلا بعد تأكدهم من أنه لا أحد يراهم ، والحذف هنا يشير إلى حذرهم ومبلغ حيطتهم وكان الجواب كان همساً في الأذان وليس أصواتاً مسموعة .

١٢ - حذف المعلوم : كافي الآية الكريمة : « لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا »^(٤) ، أي : لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ومن أنفق من بعده وقاتل ، فحذف المعلوم لدلالة ما بعده عليه .

حذف الجملة : والمراد بالجملة ، الجملة التامة التي تفيد معنى مستقلاً ولا تكون جزءاً من كلام آخر ، ولهذا لا يدخل فيها حذف المعلوم

(٢) سورة الرعد آية ٣١ .

(٤) سورة الحديد آية ١٠ .

(١) سورة الانعام آية ٢٧ .

(٣) سورة التوبة آية ١٢٧ .

وحذف الأجوبة : جواب القسم وجواب الشرط وجواب الاستفهام ؛ لأنها وإن كانت جميعه فهي لا تستقل بالإفادة ، بل هي . رء من كلام آخر ومن أجل هذا عدناها من قبيل حذف الكلمة .. ومن حذف الجمله قوله تعالى : « وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ذُقْنَاكَ اضْرِبْ بِصَخَاكَ الْكَافِرَ » (١) فحذفت جمله : ضرب ، فحذفنا يشير إلى سرعة إجابة موسى - عليه السلام - وامتناله لأمر ربه .. ومنه قوله تعالى : « لَيُحِقَّ الْحَقُّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ » (٢) ، والمعنى : فعل بما فعل من كسر قوة أهل الشرك، ليحق الحق ويبطل الباطل .. وقوله جل وعلا : « وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » (٣) ، فحذفت جمله الحال والتقدير : وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل وهما يقولان : ربنا قل منا .. وهذا الحذف يصور لنا المشهد حيا بارزا ، مشاهدا وكأنك تراه الآن ، وتشاهد إبراهيم وإسماعيل وهما يدعوان بهذا الدعاء ، فكم في الانتقال هنا من الخبر إلى الدعاء من إعجاز في بارز يكن وراء طي جمله الحال (٤) ..

ومنه قول أبي الطيب :

أنى الزمان بنوه فى شيبته فسرهم وأتيناها على الهرم
أى : وأتيناها على الهرم فساءتا ، والحذف فى البيت بذيء بما فى نفس
الشاعر من ضيق وألم لإدبار الدهر عنه وعدم تحقيق ما يصير إليه من
مجد وآمال ..

(١) سورة البقرة آية ٦٠ (٥) - سورة الأنفال آية ٨ .

(٢) سورة البقرة آية ١٢٧ .

(٤) انظر التصدير الذى فى القرآن ص ٥٩ .

هذه أكثر من جملة : كما في قوله تعالى : « وَذَكَرَ الَّذِي نَجَّا مِنْهُمْ مَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أَنْبَأُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ . يُوسُفُ أَيُّهَا الصَّادِقُ الْأَعْدَى فِي سَبْعِ بَنَاتٍ »^(١) . والتقدير : فأرسلون إلى يوسف لأسمعه به الرؤيا فأرسلوه إليه فأتاه وقال له : يوسف أسألك الصدوق أفتنا . . . ومثله قوله تعالى : « فَخَلَقْنَا أَزْوَاجًا مِمَّنْ أَنْبَأُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ »^(٢) ، والتقدير : فأرسلهم فبلغهم الرسالة . كذبوهما فدمرناهم . . . ويكثر هذا الحذف في النظم القرآني ولا سيما في ميدان القصص حيث يستغنى عن التفصيلات الجزئية التي تعرف من السياق وتهمهم من قرائن الأحوال ، ففي تخطيطها وصول إلى العناصر الجوهرية في القصة وإبرازها جمالية واضحة ، وفي تخطيطها أيضا حث للمخاطب وتحريك لمشاعره وإثارة لذهنه ، إذ يفهم تلك المشاهد المطوية ويقف عليها من خلال تأمله وتدبره أحداث القصة ووقوفه عليها سباقها وقرائن أحوالها . .

قرائن الحذف : ولا يد في الحذف من قرينة تدل على المحذوف ، ترشد إليه وتعينه ، وإلا كان الحذف عبثا وضربا من الحذيان إذ يؤدي عندئذ إلى اللبس والإشكال وعدم فهم المراد . . . وقرائن الحذف قد تكون لغوية ، كما في قوله تعالى : « وَاللَّائِي يَلِيْنَنَ مِنَ الْمَحْضِرِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضُنْ وَأُولَاتُ الْأُنْثَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ »^(٣) ، فقد حذف خبر اللاتي لم يحضن ، ؛ لدلالة خبر اللاتي يسن عليه وتعيينه له ، والتقدير : واللاتي لم يحضن فعدتهن ثلاثة أشهر كذلك . . . ومن ذلك قوله جل وعلا : « وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ

(٢) سورة الفرقان آية ٣٦ .

(١) سورة يوسف آية ٤٥ ، ٤٦ .

(٣) سورة الطلاق آية ٤ .

رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ» (١) ، فقد حذف جواب الشرط وتقديره : وإن يكذبوك فاصبر . ودلت عليه القرينة اللفظية وهي : « فقد لذبت رسل من قبلك ، فهذه الجملة ليست هي جواب الشرط وإنما هي صلة لجواب الشرط المحذوف ، وفيها تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم كقول لا يحزن لإعراضهم واثم كذبهم . . .

ومما قواه تعالى : « لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلْ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا » (٢) فقد دل المذكور : « من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، على المحذوف والتقدير : لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقابل ومن أنفق من بعده وقاتل . . . هذا ولا يشترط في المحذوف أن يكون من جنس المذكور ، بل الذي ينبغي مراعاته أن يدل المذكور على المحذوف دلالة واضحة بيّنة ، ولذا لا أرى عيباً في بيت عروة بن الورد :

عجبت لهم إذ يقتلون نفوسهم ومقتلهم عند الوغى كان أعزرا
إذ حذف الجار والمجرور من القتل الأول لدلالة « عند الرعى » عليه
دلالة بنية ظاهرة ، والتقدير : إذ يقتلون نفوسهم في السلم . . . ولا في قول
الحارث بن حلزة :

والعيش خير في ظلال النوك من عيش كذا
أراد : والعيش الناعم في ظلال الحق خير من العيش الشاق في ظلال
المقل ، حذف « الناعم » لدلالة « كذا » عليه ، وحذف المقل لدلالة « كذا »
عليه . . . ولا في قول الآخر :

أعاذل عاجل ما أشتى أحب من الأكث الريث
أراد : عاجل ما أشتى مع القلة أحب من الأكث المبطيء ، فحذف « لفظ

والقلة ، ، لدلالة قوله : « إلا كثر ، عليه ، .. وبرى كثير من البلاغيين أن المحذوف ينبغي أن يكون من جنس المذكور ولذا عدوا الحذف ، في الآيات المذكورة ، مخلا بالمعنى ومفسدا له ، لأن المذكور ليس من جنس المحذوف ، فهو غير واف في الدلالة عليه ، ولا أرى - كما بينت - إخلالا في الآيات ، بل أرى أن القرينة اللفظية فيها قد دلت على المحذوف دلالة واضحة وافية . وهذا هو ما ينبغي أن نعتمد به وبمول عليه ، ولا يشترط في القرينة اللفظية أن تكون من جنس ما حذف ، ..

انظر إلى قول المتنبي السابق :

أنى الزمان بنوه فى شبابه فسرهم وأنباه على الحرم

تجد أن قوله : « فسرهم ، قد دل على المحذوف وتقديره : فسادنا ، دلالة واضحة بيغة وهو ليس من جنسه كما ترى .. وخسنا قوله تعالى : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا أَنْفُسَهُمْ » (١) إذ المعنى : والله أعلم .. أمرناهم بالطاعة ففسقوا ، فقد حذف الطاعة ، لدلالة قوله : « ففسقوا ، عليها وهو ليس من جنسها ..

وبهذا يتضح لك أن القرينة اللفظية لا يشترط فيها أن تكون من جنس المحذوف ، بل يشترط أن تكون واضحة الدلالة عليه سواء أكانت من جنسه أم من غير جنسه (٢) ..

وقد تكون القرينة معنوية ، تفهم من السياق وقرائن الأحوال دون أن يصريح في العبارة بما يدل على المحذوف .. كما فى قوله جل وعلا :

(١) سورة الإسراء آية ١٦ .

(٢) ارجع إلى الحذف فى ضوء أساليب القرآن .

وَجَاءَ رَبُّكَ وَاللَّيْلُ سَوْبًا^(١) ، قاله في - والله أعلم - وجاء أمر ربك ، لأن العزل لا يجوز بحسب الرب ، بل الذي يأتي هو أمره أو عذابه أو بأسه ومحو ذلك ، ومثله قوله تعالى : « حَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِنْ الْغَمَامِ^(٢) ، أَمْ : هل ينظرون إلا أن يأتيهم عذاب الله أو أمره . ومن ذلك قوله تعالى : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْسِنَتُهُمُ وَالْدِّمُ وَلَحْمُهُمُ الْخَازِرَةُ^(٣) ،

أى : حرم عليهم تناول هذه الأشياء ؛ لأن التحريم يتعلق بالأفعال لا بالذرات وكذا القول في الآيات الكريمة : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ^(٤) ، أى : كاحمن ، « قَالَتْ فَذَا بَكْنُ الَّذِي لُتْنِي فِيهِ^(٥) أى : فى حبه أو مرادته ، وسياق الآيات الكريمة ينطق بالمحذوف . « وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْبَايِنَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا مِنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا^(٦) ، ولا يعد هذا من قبل القرينة للفظامة . لأنه ليس مذكورا فى نفس الآية ، والمخاطب يحتاج إلى مراجعة جاء بلة للسياق وتدبره حتى يقف على المحذوف . ومن ذلك قوله تعالى : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا^(٧) ، أى : سل أهل القرية التى كنا فيها وأصحاب العير . . . لأن السؤال لا يوجه إلا إلى ذوى العقول والتمييز . . وقوله عز قائلًا : « قَالُوا : أَوَلَمْ نَقْتُلْ قَتْلًا لَا تَبْعًا كُمْ^(٨) ، أى : لو علم أن المسكان مكان قتال ، لأنهم كانوا أخبر الناس بالحرب وفتنوا القتال فكيف يقولون : إنهم لا يعرفونها ؟ لا بد إذا من حذف قدره المفسرون بقولهم : مكان قتال . . ومنها قولك لمن أعرس : بالرفاء والبهين ، ففسدت الحال علم المحذوف

- | | |
|------------------------|---------------------------|
| (١) سورة الفجر آية ٢٢ | (٢) سورة البقرة آية ٢١٠ |
| (٣) سورة المائدة آية ٣ | (٤) سورة النساء آية ٣٣ |
| (٥) سورة يوسف آية ٣٢ | (٦) سورة يوسف آية ٣٠ |
| (٧) سورة يوسف آية ٨٢ | (٨) سورة آل عمران آية ١٦٧ |

وتقديره : بالرفاء والبعثين أعربت .. إلى غير ذلك من القرآن التي تدل على المحذوف وترشد إليه ...

• • •

الإطناب .. معناه وأنواعه : والإطناب في اللغة : «صدر أطنب ، يقال : أطنب في كلامه ، إذا بالغ فيه وطول ذيوله . وفي عرف البلاغيين : معناه : زيادة اللفظ على المعنى لفائدة ، أو عرض المعنى في عبارة زائدة بحيث تحقق الزيادة فائدة ، كما في قوله عز وجل : « رَبُّ إِيَّيْ وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَمَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا » (١) ، فقد أراد ذكرها - عليه السلام - أن يخبر بكبره وقدم سنه ، لجمل الألفاظ زائدة على المعنى لفائدة وهي : إظهار ضعفه ، وتأكيد الوهن ، لأنك لو قلت : رب إني قد كبرت ، أفاد ذلك الإخبار بتقدم العمر فقط ، دون ظهور الضعف ، إذ قد تكون مع تقدم سنك قويا نشيطا ، أما الآيات فقد أخبرت عن هذا المعنى : تقدم السن ، بهن المقام ، واشتغال الشيب ، لنظام : «نما بجانب تقدم سنه ، فالزيادة في الألفاظ - كما ترى - إنما هي لفائدة .. ومنه قوله عز وجل : « وَمَا تِلْكَ بَيِّنَاتٌ لِّمَا مُوسَى قَالَ : «صَاحِبِ أَتَوَكَّا عَلَيْهِمْ وَأَغْشَاهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا آَرْبُ أُخْرَى » (٢) ، فقد كان يكفي في الجواب أن يقول موسى - عليه السلام - : عصا ، ولكنه أطنب وفصل فأضاف العصا إليه وذكر وظائفها بعضها مفصلة : « أتوكا عليها وأغشاهَا عَلَى غَنَمِي » ، وبعضها مجملا : « لِي فِيهَا آَرْبُ أُخْرَى » ، ولعله كان يطمع في أن يسأل عن هذه المآرب فيجيب عنها وهذا يمتد الحديث ويطول ؛ لأنه في مقام رب العزة ، وهو مقام يحلو فيه الإطناب ، لأنه مقام تعظيم وتشريف ، فالزيادة في الجواب - كما ترى - تحقق فائدة ..

(١) سورة مريم آية ٤ :

(٢) سورة طه آية ١٧ ، ١٨ :

فإذا لم تحقق الزيادة فائدة في الكلام كانت تطويلاً أو حشواً ، وذلك أنها إذا كانت غير متعينة ، كالمترادفين مثل : الكذب والمين ، والنأى والبعد ، وأقوى وأقفر ، ونوم ونعاس ، وحظ ونصيب . . سميت الزيادة تطويلاً . . من ذلك قول عدي بن الرقاع :

وقد ددت الأديم لراشييه وألقى قولها كذباً وميناً (١)

قال كذب والمين بمعنى واحد ولا يتغير المعنى بإسقاط أحدهما . . وقول عنتره :

حييت من ضلل تقادم عهد أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

فأقوى وأقفر بمعنى واحد ، ولا يتغير المعنى بإسقاط أيهما شئت . . . وكقول الخطيئة :

نالت أمانة لا تجزع فقات لها إن العزاء وإن الصبر قد غلبا
هلا التست لنا إن كنت صادقة مالا نعيش به في الناس أو نشباً (٢)

فالعزاء والصبر بمعنى واحد وكذا المال والنشب . . وكقول الآخر :

ألا حبذا هند وأرض بها هند وهند أتى بن دونها النأى والبعد

فالنأى والبعد بمعنى واحد ، وإذا أسقطت إحدى الكلمتين لا يتغير المعنى ، أي أنه لم يتعين أي الكلمتين هو الزائد . . .

هذا والحكم بزيادة كلمة من الكلمات وخلوها عن الفائدة مرتبط بالمقام والحال التي قيلت في جوهر الكلمة ، وعندما تتأمل الآيات المذكورة لا تستطيع أن

(١) قد ددت : قطعت ، والماعل المستمر يعود إلى الزباء ملكة تدمر ولا ديم : الجلد والزاهشان : عرقان في باطن للذراع والضمير المضاف إليه يعود بلذيمة بن الأبرش ملك الحيرة وقسمتها مشهورة . .

(٢) للنشب بفتح النون والشين : المال الأصيل وبطابق أيضاً على المقار ، يقال : نشب ونشبة وماشبة .

تحكم بزيادة إحدى الكلمتين كما قال البلاغيون؛ لأن المقام في الآيات يقتضى التأكيد، ومن شأن الترادف أن يفيد التأكيد، ثم إن الكلمات المترادفة لا تفيد معنى واحداً، بل ذكر كثير من العلماء أن كل لفظ من الألفاظ المترادفة له ظلال جانبية وإفادات جزئية تختلف عن الآخر . . . ولذا لا نستطيع القول بأن أحد اللفظين المترادفين في الآيات المذكورة زائد، بل إنه يؤكد الآخر والمقام - كما ذكرت - قد اقتضيه هذا التأكيد . . .

وإذا كانت الزيادة متميزة سميت حشواً، والحشو نوعان :

١ - حشو يفسد به المعنى كقول المتنبي :

ولا فضل فيها للشجاعة والندى وصبر النمل لولا لقاء شهب (١) .

فكلمة : والندى، في البيت حشو أفسد المعنى، إذ المراد لا فضل في الحياة للشجاعة والصبر والندى لولا الموت واعتقاد الشجاع والصابر والجواد أهم ملاقو الموت، وهذا صحيح بالنسبة للشجاعة والصبر؛ فاسد بالنسبة للندى، إذ الشجاع لو علم أنه يخلد لن يصيبه الموت، إسكان إقدامه وشجاعته لا فضل فيهما، لأنه أقبل على البطولة وهو على يقين بأن الموت لن يصيبه، وكذا الصابر عندما يعلم أنه لن يموت، يكون خبره لا فضل فيه، وإنما تظهر مزية الشجاعة والصبر عندما يعلم صاحبهما أن الموت أمامه ثم يقبل أو يصبر فعندئذ يكون الإقدام مزية وللصبر فضل . . .

أما الندى فتظهر مزيته ويبدو فضله إذا علم صاحبه أنه يخلد وإن يموت، لأن عليه بأن الموت لن يلقاه، يدعوه إلى الإمساك وادخار المال كي ينتفع به إذ هو يخلد، فإذا جاد به عندئذ ظهر لجوده فضل وبدت له مزية، أما إذا علم أن الموت أمامه وسيلاقاه لا محالة، فهذا يدعو إلى البذل والعطاء،

(١) شهب يفتح الشين : عام جلس للنية وهي الموت وقد جر بالكسرة من أجل الروى لأنه مما لا ينصرف خبره بالفتح .

ولا فضل للندي عندئذ ، إذ يقول لو عرتب في بذل المال وإتفاهه : كيف
لا أبذل مالا أبقي له ولا أبق بأفنى سأتمتع به ؟ ولذا يقول طرفة بن العبد :
ألا أينذا اللاتمي أحضر الوغى وأن أشهد الذات هل أنت مخلدى
فإن كنت لا تستطيع دفع منبى فدعنى أبادرها بما ملكك يدى
ويقول مهيبار الديلمى :

فكل إن أكلت وأطعم أخاك فلا الزاد بقى ولا الآكل

فالشجاعة والصبر لولا الموت لم يحمدا ، والندي بالضد ، ولذا كانت كلمة
الندي في البيت حشواً مفسداً للمعنى ، وقد اعتذر للشاعر بأنه يريد بذل النفس
لأبذل المال ، على حد قول مسلم بن الوليد :

يجود بالنفس إن ضن الجواد بها

والجود بالنفس أقصى غاية الجود

ورد هذا الاعتذار بأن لفظ الندي ، لا يكاد يستعمل في بذل النفس
وإن استعمل فعلى وجه الإضافة ، أما طلقاً فلا ينبغي إلا بذل المال .

٢ - حشو لا يفسد به المعنى ، كما في قول زهير :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله واستغنى عن علم ما في غد عمى

فكلمة د قبله ، مستغنى عنها فهي حشو ، ولكن ذكرها لا يفسد المعنى
ومثله قول الآخر في رثاء أخ له :

ذرت أخى فعاودنى صدام الرأس والوصب

فلفظ الرأس في البيت حشو لا فائدة فيه ، لأن الصدام لا يكون إلا في
الرأس ، وإيس . يفسد للمعنى ، ويؤخذ على الشاعر أيضاً ، أن مقام الرثاء
لا يناسبه ذكر الصدام وألم الرأس ، بل الملائم له ، ألم القلب واحتراقه ..
ومنه قول أبى عدى العجلي الأماوى :

نحن الرؤوس وما الرؤوس إذا سميت
في المجد الأقوام كالآذنان

ف قوله : د الأقوام ، حشو لا فائدة فيه وهو خير مفسد للمعنى .
وقول البوصيري :

أمن تذكر جيران بنى سلم موزجت دمعاً جرى من مقلة بدم^(١)

ف قوله : د من مقلة ، حشو لا فائدة فيه ، لأن الدمع لا يجري إلا من العين ، وهو حشو غير مفسد للمعنى .. وقول المتنبي :

وخفوق قلب لو رأيت لهيبه يا جفني لرأيت فيه جهنم

ف قوله : د يا جفني ، حشو غير مفسد للمعنى ، وقد استحسنته البعض لإفادته معنى لطيفاً حيث طابق الشاعر بينه وبين د جهنم ..

هذا - وكما ذكرت لك - ينبغي أنت تعلم أن الحكم بزيادة كلمة وعدم فائدتها ، تابع للمقام والحال التي قيلت في جوها الكلمة ، ولا نستطيع أن نقطع بعدم الفائدة إلا إذا أحاطت بالسياق وعرفت قرائن أحواله ، وعندما تتأمل الآيات المذكورة والتي استشهد بها البلاغيون للحشو غير المفسد يتضح لك أن تلك الكلمات التي حكموا بزيادتها وحشوها ، قد أفادت معنى اقتضاه المقام .. تأمل : د دمعاً جرى من مقلة .. د وأعلم علم اليوم والأمس قبله .. د عار دني صداع الرأس .. د وما الرؤوس إذا سميت في المجد للأقوام .. د تجد أن تلك الكلمات : د مقلة ، قبله ، الرأس ، الأقوام ، قد أفادت تأكيداً اقتضاه المقام ، وهذا التأكيد لا يفاد بطيهاً ، ولذا لا نوافق البلاغيين في قولهم بأنها حشو ولا فائدة فيها .. ونحن نقول : دقته بغمي ورأيت به بمعنى وسميته بأذني ووطأته بقدمي ، ولا يقول أحد إن تلك الكلمات :

(١) ذو سلم : مكان على طريق البصرة إلى مكة ..

بعضى ، بعضى بأذى ، بدمى ، زائدة ، لأنها أفادت ناكيداً اقتضاه المقام ،
واقرأ قوله عز وجل : « إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنَنِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَنفَادِكُمْ
مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَخْسَبُونَهُ هَيْئًا وَهُوَ يَدَّبُّهُ اللَّهُ عَظِيمٌ » (١) ، وقوله
تعالى : « مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قُلُوبَيْنِ فِي جَوْفٍ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ
الَّذِينَ تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ
قَوْلُكُمْ بِأَنفَادِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ » (٢) ، وقوله
جل وعلا : « فَذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ
فَفَخَّرَ عَلَيْهِمْ السَّمَاءُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَنَامَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَتَّى لَا يَشْعُرُونَ » (٣) .

تجد أن التاني لا يكون إلا بالاسنة ، والقول لا يكون إلا من الفهم ،
والقلب لا يكون إلا بالجوف ، والسقف لا يكون إلا من فرق ، ولا يقول
قائل : إن هذه الالفاظ زائدة وليس وراءها فائدة ، لأن المقام قد اقتضاها
والمعنى قد تطلبها ، فالآية الأولى مسوقة الرد على أهل الإنكار ما قالوه
وخاضوا فيه ، فقد رموا بفاحشة الزنا إلى من هي ظاهرة العفاف والستر وهذا
افتراء عظيم وإثم كبير ، فالمقام إذا يقتضى أن يسجل عليهم ما خاضوا فيه ،
وأنه قد خرج من أفواههم وانبعثت به ألسنتهم ، ليكون في ذلك مبالغة في
الإنكار والرد .. وقل مثل هذا في الآية الثانية فهي مسوقة لإنكار الظهار
والإنكار التسوية بين الأبناء والأدعياء وإفادة أن من يفعل هذا فيسوى
بين الزوجة والام في التحريم وبين ابنه ومولاه في الحقوق يكون كن يجمع
قلبين في جوف واحد ، وقد اقتضى هذا أن يؤكد الكلام بذكر الجوف ..
وتأمل إشار التعبير بلفظ « لرجل » ، وما يكن وراءه من شدة المبالغة في
الإنكار ، وذلك أن المرأة قد يتصور وجود قلبين في جوفها ، أما الرجل
فلا يمكن أن يتصور وجود قلبين في جوفه بخال من الأحوال ..

(٢) سورة الأحزاب آية ٤ :

(١) سورة النور آية ١٥ .

(٣) سورة النحل آية ٢٦ .

والآية الثالثة مسوقة للتخريف والترهيب وهذا يقتضى تأكيد ما حل بمن
مكروا قبلهم ، فقد أتى الله بنبيائهم من القواعد نذر عليهم السقف من فوقهم
وأتمام العذاب من حيث لا يشعرون ، فكلمة د من فوقهم ، أفادت من
التوبيخ والتخريف ما لا يفيد طمأنينة . . .

وبهذا يتضح لك أن الأمر يحتاج إلى مراجعة دقيقة للسياق والوقوف
على قرائن أدبائه . فالنظرة السريعة العاجلة تجعلك تظن أن الكلمة رائدة
ولامعنى لها في النظم فهي حيوية ، ولكن عند التأمل ومراجعة السياق مراجعة
دقيقة واعية يظهر لك أن المقام قد اقتضاه وأن هنالك معنى . وفقاً يمكن
وراءها ولو طويت لما أيد ذلك المعنى .

، ، ،

أنواع الإطناب وما يمكن وراءها من دقائق بلاغية :

ويقع الإطناب في الكلام على أنواع مختلفة أهمها مايلي :

١ - الإيضاح بعد الإبهام : وهو أن يحمل المعنى ويهيم ثم يفصل ويبين
فيبدو في صورتين مختلفتين ، وعندئذ يقع في النفس أطيب موقع ويتمكن
لديها أفضل تمكن ، لأن المعنى إذا أتى على سبيل الإجمال والإبهام تطلعت
النفس وتشوقت إلى معرفته على سبيل التفصيل واليضاح ، فعندما يأتي هذا
التفصيل وذاك الإيضاح ، يكون أشد وقفاً وأقوى أثراً ؛ لأنه جاء والنفس
عنده تبحث وإليه تتطلع وهم يقولون : إن الشيء إذا قيل بعد طلب ومشقة
وبحث وتفتيح ، يكون أوقع في النفس وأشد تأثيراً ، ويحدث لها بالوقوف
عليه لذة وممتعة . . . من ذلك قوله تعالى : « وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنْ دَايِرَ
حَوْلَ لَاءَ مَقْطُوعٍ مُصْبِحِينَ » (١) فقد أبهرت الآيه مائة من به إلى لوط - عليه

(١) سورة الحجر آية ٦٦

السلام - ذلك الأمر ، ثم فصلته ، بينته : « أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين » ، ففي الإبهام إضاءة للمخاطب وتحريك لذكرك فيطلع إلى إيضاح ما أبهم ، وعندئذ يأتي الإيضاح فيقرر المعنى في ذهن المخاطب ويقع وقعه ، وفي هذا تفخيم وتحويل للعذاب الذي حل بهم ، لأنه ذكر مرتين ، مرة على طريق الإجمال والإبهام ومرة على طريق التفصيل والإيضاح ، والشئ إذا ذكر مرتين كان آكد في الذهن وأشد تعلقاً والتصاقاً بالنفس . ومنه قوله تعالى « قَوْسُوسَ إِيَّاهِ الشَّيْطَانُ قَالَ : يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ غُلَّادٍ وَمَلَكَ لَا يُبَيِّنُ » (١) ، ذكرت الوسوسة مجلة ثم فصلت بما بعدها وعندما أجملت اشتاقت النفس وتطلعت إلى معرفتها والوقوف عليها . فلما جاء البيان وقع في النفس موقفاً حسناً وكذا القول في قوله تعالى : « أَمَدُّكُمْ بِمَا نَعْلَمُونَ أَمَدُّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنِينَ وَجَنَاتٍ وَعُيُونٍ » (٢) ، ذكر ما أمدم به مجلاً فتطلعت النفس إلى معرفته ، ثم فصل وبين فوقع في الأتيس موقعه . . . وقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيَكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ » (٣) ، أجملت التجارة التي تنجي من العذاب ، ثم فصلت وبينت . . . ومن الإيضاح بعد الإبهام باب نعم وبئس نحو : نعم الرجل زيد وبئس الصديق عمرو ، وذلك على جمل كل من ، زيد وعمرو ، خبراً لمبتدأ محذوف ، أو مبتدأ محذوف الخبر ، فهو يكون الأسلوب مكروفاً من جملتين إحداهما مبيضة وتفسر الأخرى ، أما على جمل كل من ، زيد وعمرو ، مبتدأ والجملة قبله خبر ، فليس مما نحن فيه ؛ لأن الأسلوب عندئذ يتكون من جملة واحدة . . . ومنه التوشيع وهو أن يؤنى

(١) سورة طه آية ١٢٠ . (٢) سورة الشعراء آية ١٣٢ - ١٣٤ .

(٣) سورة النصف آية ١١٠ ، ١١١ .

في عجز الكلام غالباً ثمثني مفسر باحسين أحد صامه طوف على الآخر ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « يشب ابن آدم وتشب معه خصلتان الحرص وطول الأمل . » وقوله عليه الصلاة والسلام : « الحمر من هاتين الشجرتين : النخلة والعنب » ، وقول عبد الله بن المعتز :

سقتني في ليل شبيهه بشعرها شديدة خديها نغير رقيب
فازلت في ليلين : شعر وظلمة وشمين : من خمر ووجه حبيب

وقد يكون المثنى في أول الكلام ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « ههنا وههنا لا يشبعان : طالب علم وطالب مال » ، وقد لا يكون مثنى بل جمعا ، كما في قول ابن رهيبة :

ثلاثة تشرق الدنيا بهمجتها

شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر

٣ - ذكر الخصاص بعد العام أو العام بعد الخاص : فمن الأول قوله تعالى : « تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ . . »^(١) فالروح وهو جبريل عليه السلام ، قد ذكر مرتين ، مرة مندرجاً تحت العام وهو الملائكة ومرة وحده ، وكأنه جنس آخر غير جنس الملائكة المعطوف عليهم ، وهذا تكريم له وتعظيم لشأنه ، وفي الآية لطنا ب طريقة ذكر الخاص بعد العام والغرض منه التنويه بشأن الخاص حيث يذكر مرتين . .
فمنه قوله عز وجل : « حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى »^(٢) ، فالصلاة الوسطى داخلية في عموم الصلوات ، وقد بخصت بالذكر بعد العام تذكيراً إلى مزياتها وزيادة فضلها . . وقوله جل وعلا : « وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ . . »^(٣) ،

(٢) - سورة البقرة آية ٢٣٨ .

(١) - سورة النحل آية ٤ .

(٣) - سورة آل عمران آية ١٠٤ .

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخلان في عموم الدعوة إلى الخير ،
ولكنهما خصا بالذكر بعد العام إشارة إلى مكاتهما من الشرف والفضل . .
ومن الثاني قوله تعالى : « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِإِن دَخَلْتُ بَيْتِي مُؤْمِنًا
وَاللَّهُ مُتَعِنٌ وَالْمُؤْمِنَاتِ . . »^(١) ، فالمؤمنون والمؤمنات لفظان عامان يدخل
فيهما من ذكر قبل : لي ولو الذي ولما دخل بيتي مؤمنا ، والسرا البلاغى
الكامن وراء ذكر العام بعد الخاص هو العناية بشأن الخاص لذكره
مرتين ، مرة بلفظه ، ومرة مندرجا تحت العام . .

٣ - التكرار : ويأتى لأغراض كثيرة ، منها إبراز المعنى وتقريره في
النفوس ، كإتي قوله تعالى : « كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ »^(٢)
فقد أكد الإنذار بتكراره ليكون أبلغ تحذيرا ، وأشد تحذيفا ، وفي
العطف بالحرف « ثم » ، ما ينبىء بأن الإنذار الثانى أقوى وأشد من الإنذار
الأول ، حيث نزل بعد المرتبة منزلة البعد الزمنى فمطف بثم ، وفي هذا دلالة
على التدرج فى الارتقاء . . ومن ذلك قوله جل وسلا : « فَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ
يُسْرًا إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا »^(٣) ، فقد أفاد التكرار تأكيد المعنى وتقريره في
النفوس . . ومنها استعماله المخاطب وترغيبه في قبول النصيح والإرشاد ، كما في
قوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَخْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ
يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْغَايَةُ الَّتِي كُنْتُمْ تُكَادُونَ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ »^(٤) ؛
ففى تكرار « يا قوم » ، استعماله لأنفسهم وترغيب لهم فى قبول الحق والاهتداء ،
وراء حرف النداء « يا » ، الموضوع لنداء البعيد تعظيم لهم وتشريف ورفع
لمنازلهم ، وفى إضافة القوم إليه « يا قوم » ، ما يبدد كل شك ويزيل كل
ارتباب فى نصحه وإخلاصه لهم . . ومنها التذكير بنعم الله التى لا تحصى

(٢) سورة النكاث آية ٣ ، ٤ .

(٤) سورة غافر آية ٣٨ ، ٣٩ .

(١) سورة نوح آية ٢٨ .

(٢) سورة الشرح آية ٥ ، ٦ .

ولاتمد ، كما في قوله تعالى : « قَبَائِىْٓ آلَآءِ رَبِّكُمْ كَذَّبْتُمْ ^(١) » ، فقد ذكر
جل وعلا نعمه نعمة بعد نعمة في هذه السورة الكريمة ، وعقب كل نعمة بهذا
الاستفهام الذى يفيد التنبية الى نعمه الكثيرة والتذكير بها ، فإن قيل قد عقب
بهذا الاستفهام ما ليس بنعمة كما في قوله تعالى : « يُرْسَلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِلٌ
مِّنْ نَّارٍ وَنَحَاسٍ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ^(٢) » ، وقوله جل وعلا : « هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي
كُذِّبَ بِهَا الْمُجْرِمُونَ . يُطَوَّفُونَ فِيهَا بَيْنَ أُتُمٍ وَبَنَاتٍ أَصْنَانٍ ^(٣) » ، قلت :
العذاب وجهنم وإن لم يكونا من آلاء الله تعالى ، فإن ذكرهما ووصفهما على
طريق الزجر عن المعاصى والترغيب فى الطاعات ، يعد من الآلاء والنعم ،
لأن التحذير من المعصية والزجر عنها نعمة منه تعالى ، إذ ينجم عن التحذير
والزجر ابتعاد المؤمن عن المعاصى وعدم اقترابه منها ^(٤) . . .

ومن أغراض التكرار المبالغة فى التحذير والتنبير ، كما في قوله تعالى :
« وَيَلُوكُمُ الْيَوْمَئِذٍ الْكَذَّبِينَ ^(٥) » ؛ فقد كررت هذه الآية الكريمة فى سورة
المرسلات عقب جملة من القصص والتذكير بنعمه تعالى حيث أعقب كل قصة
بهذا الوعيد « وَيَلُوكُمُ الْيَوْمَئِذٍ الْكَذَّبِينَ » ، وفى هذا ما فيه من التنفير والتحذير . .
ومنها الحث على التذكر والتدبر وأخذ العظة والعبرة كما فى قوله تعالى :
« وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّدِّكِرٍ ^(٦) » حيث كررت هذه
الآية فى سورة القمر عقب كل قصة من قصص الأمم السابقة التى كذبت
وأعرضت عن رسل ربها ، فقد أخبرت عنهم السورة الكريمة وأبرزت نوع
العذاب الذى حاق بكل أمة ، وأنبئت كل قصة هذه الآية الكريمة : « وَلَقَدْ
يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّدِّكِرٍ » ، حثا على العظة والاعتبار والتأمل

(١) سورة الرحمن آية ١٢ . (٢) سورة الرحمن آية ٣٥ .

(٣) سورة الرحمن آية ٤٣ ، ٤٤ . (٤) انظر الإيضاح ١٢٧/٢ .

(٥) سورة المرسلات آية ١٥ . (٦) سورة القمر آية ١٧ .

والتدبر .. ومنها أن يكرر اللفظ اطول في الكلام كما في قوله تعالى :
 « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا
 إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَنَفُورٌ رَحِيمٌ » (١) ، وقوله جل وعلا : « ثُمَّ إِنَّ
 رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوءَ بِجَهَنَّمَ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ
 رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَنَفُورٌ رَحِيمٌ » (٢) ، فقد كرر : « إِنَّ رَبَّكَ »
 في الآيتين المكرمتين لطول الكلام بين اسم إن ربك ، وبين خبرها
 « لَنَفُورٌ » ، وفيه أيضا تأكيد لمعنى الربوبية وإبراز لمعنى « الرب » المتفضل
 بالإينعام والمغفرة .

٤ — الإيغال : وهو ختم الكلام شعرا أو نثرا بما يفيد فائدة يتم المعنى
 بدونها ، كما في قول الخنساء :

وإن صخرنا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار (٣)

فقولها : « في رأسه نار » ، إيظاب ، لأنها شبيهت أخاها « صخر » ، بالعلم
 وهو الجبل المرتفع المعروف ووجه التشبيه هو الاهتمام بكل ، وقد تم التشبيه
 عند قولها : « كأنه علم » ، فختمت البيت بما يفيد قوة المبالغة في التشبيه ،
 إذا النار في رأس الجبل تزيد وضوحا وانكشافا وهذا أدعى لنظام الهداية
 وكالها .. ومثله قول ذى الرمة :

قف العيس في أطلال مية فابال

رسوما كأخلاق الرداء المسلم

(١) سورة النحل آية ١١٠ .

(٢) سورة النحل آية ١١٩ .

(٣) تأني : تمتدى والهداة : الذين يهتدون للناس وإذا كانت الهداة تأني به فمن

باب أدلى المهتدون بهم ..

أظن الذى يجدى عليك سؤالها دموعا كتبذير الجمان المفصل (١)
فقد تم التشبيه في البيت الاول عند قوله : د رسوما كأخلاق الرداء ،
وفي الثانى عند قوله : د دموعا ' كتبذير الجمان ، فاختم البيت بما يفيد زيادة
المبالغة في التشبيه وهو قوله : د المسلسل والمفصل ، ..

ومنه قول امرئ القيس :

كان عيون الوحش حول خبائنا ، وأرحلنا الجزع الذى لم يشق (٢)

حيث تم له التشبيه عند قوله : د الجزع ، فاختم البيت بما يفيد تحقيق
التشبيه ؛ لأن الجزع إذا كان غير مثقوب كان أشبه بعيون الوحش ، وقوله :
د الذى لم يشق لإغفال أفاد تحقيق التشبيه وجعله دقيقا تماما ومثله قوله أيضا :
حملت ردينيا كان سنانها سنا طب لم يتصل بدخان (٣)

حيث أتى على التشبيه عند قوله : د كان سنانها سنا طب ، ثم اختتم البيت
بإغفال أفاد دقة التشبيه وزيادة تحقيقه ، وهو قوله : لم يتصل بدخان ؛ لأن
سنان الرمح أكثر شبا بضوء اللهب الذى لم يتصل بدخان . وقول زهير
ابن أبى سلمى :

(١) اللبس : الإبل يحاط بها صم - واد حفيف ، ردها : أعيس . والأطال :
جمع طال وهو ما شخص من آثار الديار بخلاف الرسوم . والأخلاق جمع خلق وهو
وهو البالى . والمسلسل : الردى اللبس . ويجدى : يطفى ويبيد . ومالد الوصول محذوف
وللتقدير يجدى به . والتبذير : التفرق . والجمان المنسل : الأواؤ المنظم ..
(٢) الوحش : المراد به الظباء لاقى يسيدونها ويرمون أعينها حول خبائهم .
والخباء : ما كان من وبر أو صوف لاشر وقام على عمودين أو ثلاثة ، وما نزل ؛
البيت . والأرحل جمع رحل وهو المنزل والمأوى . والجزع : خرز فيه بياض رسواد
على شكل دوائر .

(٣) الردينى : رمح ملسوب إلى ردينية وهى امرأة كانت تقوم الرماح . وسنا
اللهب : ضروء . وسنان الرمح : حديدته ، وجمها : أسنة ، وسميت بذلك
لصعالتها وملاستها ..

كان فتات المعين في كل منزل نزان به حب الفنا لم يحطم^(١)
فقد اتى على التشبيه بقوله : حب الفنا ، ، ثم اختتم البيت بما يعيد دقة
التشبيه وزيادة تحقهقه ، لأن حب الفنا أحمر الظاهر أبيض الباطن فهو لا يشبه
الصوف الأحمر إلا إذا لم يحطم ، فقوله : لم يحطم ، لإيغال حسن .
ومنه قول الأعشى :

كناطح صخرة يوما ليفلقها فلم بضرها وأوهى قرنه الوعل^(٢)

حيث تم له المعنى بقوله : « وأوهى قرنه » ، ثم اختتم البيت بإيغال حسن
وهو قوله ، الوعل ، ؛ لأن الوعل ينحط من قمة الجبل على قرنه فلا يضره ..

ومن الإيغال في العظم الكرم قوله تعالى : « وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ
رَجُلٌ يَسْتَعِي قَالَ : يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ
أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ . . »^(٣) ، فقوله جل وعلا : « وهم مهتدون » لإيغال
إذ المعنى قد تم بدونه لاعتداء الرسل قطعاً ، والقرض منه زيادة الترغيب والحث
على اتباعهم والانتداء بهم . . وقوله تعالى : « فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ
لَشَدِيدٌ يُعَذِّبُ مَا أَنْتُمْ تَفْعَلُونَ »^(٤) ، فقوله : « مثل ما أنكم تفعلون ، »
لإيغال أفاد زيادة التوكيد والمبالغة التي اقتضاها المقام .

٥ - التذييل : وهو تعقيب الجملة بجملة أخرى تشتمل على معناها لإفادة
التوكيد ، ويختلف التذييل عن الإيغال السابق من عدة جهات وهي :

(١) الدنات : اسم لما انثت وتقطع من الشيء . والمعنى : الصوف المصبوغ .
والفنا : غيب اللعلب ، شبه فتات الصوف المصبوغ الذي زينت به الحوادج بحب الفنا
في حين أنه قبل محطيمه ؛ لأنه إذا حطم تزول حرته . .

(٢) الوعل : نيس الجبل . وجمعه : وعل ووعال ووعل ، والآنثى : وعلة .

(٣) سورة يس ٢٠ ، ٢١ . (٤) سورة الذاريات آية ٢٣ .

- ١ - أن الإيغال يكون بالجملة وبغير الجملة، كما رأيت في شواهد ، أما التذييل فلا يكون إلا بجملة ، كما سترى ..
- ٢ - الإيغال يفيد التوكيد وغيره من الأغراض التي يأتي لها ، أما التذييل فهو للتوكيد خاصة...
- ٣ - التذييل يكون في آخر الكلام وفي أثنائه ، أما الإيغال فلا يكون إلا في آخر الكلام .

والتذييل ضربان : تذييل يحرى بحرى المثل وتذييل لا يحرى بحرى المثل ، فالأول هو أن يقصد بالجملة الثانية حكم مستقل عما قبله ، بمعنى أن جملة التذييل تفيد معنى يمكن استقلالها بإفادته عما قبلها ، كما في قوله تعالى :
 « وَقُلْ جَاءَ الْخَلْقُ وَذَهَبَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا . » (١) ،
 فقوله : « إن الباطل كان زهوقا » ، تذييل أتى به لتأكيد الجملة قبله ، وجرى بحرى المثل بمعنى أن الجملة الثانية مستقلة معناها عن الجملة الأولى ، وجارئة على الألسنة كما تجرى الأمثال التي كثر استعمالها ونشأ ، فهي لا تحتاج في إفادة معناها إلى الجملة السابقة .. ومن هذا يضرب قول النابغة الذبياني :

واست بمسئق أخا لا لعله على شعث أى الرجال الممذب (٢)

فقوله : « أى الرجال الممذب » ؟ تذييل جرى بحرى المثل ، حيث جرى على الألسنة مستقلا عما قبله .. ومثله قول المطيئة :

تزور فتى يعطى على الحمد ماله ومن يعطى أتمان المسكارم بحمد

فالشطر الثانى تذييل للشطر الأول ، خرج مخرج المثل ..

(١) سورة الإسراء آية ٨١ .

(٢) لا تله : لا تغمه . والشعث فى الأصل انشار شعر الرأس وتغيره . فكثير أوساخه والمراد به هنا العيب على سبيل الاستعارة ، والاستهزام فى البيت استهزام لإنسكارى بمعنى لا يوجد . . .

والثاني وهو التذيل الذي لم يجر مجرى المثل ، فهو ما لا يستعمل معناه ، بل يعوقف على ما قبله ، كما قوله تعالى : « فَأَعْرِضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ مَتَلًا الْعَرِيمَ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِهِ أَكْلٍ سَخِطٍ وَأُنْزِلَ رِيشُهُ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ . ذَلِكَ جَزَاءُكَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهُمْ فِي نَجَازِي إِلَّا الْكَافُورَ . . . » (١) ، فقوله : « وهل نجازي إلا الكفور » ، تذيل غير جار مجرى المثل ، لأن معناه لا يفهم إلا بما قبله . . . ومنه قول الخاسي :

فدعوا نزال فكانت أول نازل وعلام أركبه إذا لم أنزل

فقوله : « وعلام أركبه إذا لم أنزل » ، تذيل غير جار مجرى المثل لأن معناه متوقف على ما قبله . . ومثله قول ابن نباتة السعدي :
لم يبق جردك لي شئاً أو لمه تركتني أصحاب الدنيا بلا أمل

وقد اجتمع التذيلان في قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُنْفِقُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَداً عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزُّرِّ أَنْ يَكُونَ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ . . » (٢) ، فقوله : « وعداً عليه حقاً » ، تذيل غير جار مجرى المثل لاحتياجه في فهم معناه إلى ما قبله ، وقوله « ومن أوفى بعهده من الله » ، تذيل خرج المثل السائر لتحقيق وتأكيد ما تقدمه ، فهو تذيل ثان للتذيل الأول . . وكذا اجتمع الضربان في قوله تعالى : « وَمَا جَعَلْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مِنْ قَبْلِكَ نُفْلًا أَنْزِلْهُ مِنَ السَّمَاءِ فِي لَيْلٍ قَبْلَ الْوَعْدِ . . » (٣) ، فقوله : « أنزل من السماء » ، تذيل غير جار مجرى المثل

(٢) - سورة التوبة آية ١١١ .

(١) - سورة سبا ١٦ ، ١٧ .

(٣) - سورة الأنبياء آية ٥٤ ، ٥٥ .

لذا يتوقف فهم معناه على ما قبله ، وقوله : وكل نفس ذائقة الموت ، تذييل
جرى مجرى المثل ، لجريانه على الألسنة وعدم توقف فهم معناه على ما قبله .
٦ - التكميل : ويسمى أيضاً بالاحتراس وهو أن يؤتى في كلام يوم
خلاف المقصود بما يدفع ذلك التوهم ، كما في قول طرفة بن العبد :

فسقى ديارك - غير مفسدها - صوب الربيع وديمة نهري

فقوله : د غير مفسدها ، احتراص عن المطر المسترسل الذي يسبب
الخراب والدمار ، لأن الديمة هي المطر المسترسل ، وتسمى بمعنى نسيل . والمطر
إذا كثر وزاد عن حده سبب الخراب والدمار ، فدفع الشاعر هذا التوهم
بقوله : د غير مفسدها ، ، ومن أجل هذا عيب قول الشاعر :

ألا يا أسلمى بإدارى على البلى ولا زال منهلاً بحر عاتك القطر

وقيل : لا عيب في البيت ، لأن الدعاء قرينة على عدم إرادة الضر ،
وللشاعر أن يكتب بالدعاء فلا يحترس ، وألا يكتب به فيضم إياه الاحتراص .
ومنه قول عبد الله بن المعتز في وصف الخيل :

وخيل طواها السير حتى كأنها أنابيب سر من قنا الخط ذليل
صبيها عليها - ظالمين - سياطنا فطارت بها أيدٍ سراع وأرجل

فقوله : د ظالمين ، احتراص ، حيث دفع به ما قد يتوهم من أنها كانت
بطيئة في المشي ، ثقيلة في السير ، لا تجرى وتسرع إلا بالضرب واستعمال
السياط ، وهذا خلاف المقصود ، لأن المقام مقام مدح ومنه قول الخماص :

رهنت يدي بالعجز عن شكر بره وما فوق شكرى للشكور مزيد

فالشطر الثاني من البيت احتراص ، لأنه لما صرح في الشطر الأول بعجزه
عن شكر بره ، ربما يتوهم متوهم أنه لم يقم بشيء من الشكر ، فدفع هذا التوهم
بالشطر الثاني أفاد أن شكره ليس للشكور وهو المبالغ في الشكر زيادة عليه .

ومنه قول كعب بن سعد الغنوي من تصديقه له في رثاء أخيه أبي المغوار :

حليم إذا ما الحلم زين أهله مع الحلم في عين العدو مهيب

فإنه لو اقتصر على وصفه بالحلم لأوهم أن حلمه عن عجز ، ولذا احتس بقوله : « إذا ما الحلم زين أهله ، فأزال هذا الوهم ، ثم أكد الاحتراس بذلك التذييل : « مع الحلم في عين العدو مهيب » .
ومنه قول السموءل بن عاديا :

وما مات منا سيد في فراشه ولا طل منا حيث كان قتيل^(١)

فقد وصف قومه بشمول القتل لإيائهم وأنه لم يموت واحد منهم على فراشه ، وهذا الوصف يؤهم ضعفهم وقلة شجاعتهم ، فأزال هذا الوهم بالشطر الثاني الذي وصفهم بالافتقار من قائلهم . .

ومنه قول المتنبي :

أشد من الرياح الهوج بطشاً وأسرع في النهدي منها هبوباً
فإنه لو اقتصر على وصفه بشدة البطش ، لأوهم ذلك أنه عنيف كله ، ولا لطف عنده ، فأزال هذا الوهم بوصفه بالسباحة والندي . ولم يتجاوز في الوصفين صفة الريح التي شبهه بها .

ومما جاء من هذا النوع في النظم الكرم قوله تعالى : « لَا يَسْتَوِي الْكَافِرُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ - قَبْرُ أُولَى الضَّرَرِ - وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ . . »^(٢) ، فتوله جل وعلا : « غير أولى الضرر » ، احتراس يدفع توهم أن القامد بمذر داخل في مفهوم عدم الاستواء المذكور . . وقوله تعالى : « وَأَدْخِلْ بَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ . . »^(٣)

(١) طل : بمعنى أهدر دمه ولم يقتل له . .

(٢) سورة النساء آية ٩٥ . (٣) سورة النمل آية ١٢ .

فقوله : د من غير سوء ، احتراص من نحو اليهو واليرص . . .
هذا ولا يخفى عليك بالنظر في الشواهد المذكورة ان الاحتراص قد
يتوسط الكلام ، وقد يقع في آخره .

٧ - التميم : وهو أن يؤثر في كلام لا يرم خلاف المقصود بفضله
مثل المفعول أو الحال أو الجار والمجرور ، ونحو ذلك مما ليس بجملة مستقلة ،
ولا ركنا من أركان الكلام ، وذلك لإفادة نكتة بلاغية كما في قوله تعالى :
« وَيُطْعِمُونَ الطَّامَ عَلَى حُبِّ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا »^(١)
وقوله جل وعلا : « وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى . . »^(٢)
وقوله عز وجل : « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ . . »^(٣) ، فإن
قوله عز من قائل : د على حبه ، د مما تحبون ، فضلة ، وتركها لا يجعل
الكلام موهما خلاف المقصود ، وقد أتى بها في النظم الكريم لنكتة بلاغية
وهي إفادة المبالغة في مدح هؤلاء الذين يؤثرون على أنفسهم ويطعمون
وينفقون مالا قد أحبوه وطعاما قد اشتهروه وأرادوه . . وقيل إن الضمير
في قوله : د على حبه ، . لله عز وجل لا للمال ، أى : على حب الله ، وعندئذ
فلا إطناب في الآيتين ، لأن الاتفاق لا يمدح شرعا إلا إذا كان ابتغاء
وجه الله ، لا لربا ، ونحوه ، فالجار والمجرور د على حبه ، صار عندئذ مرادا ،
لا زائدا على أصل الكلام .

ومنه قول زهير :

من يلقى يرما على علاته هرما يلقى السباحة منه والندى خلقا^(٤)

(١) سورة الإنسان آية ٨ (٢) سورة البقرة آية ١٧٧ .

(٣) سورة آل عمران آية ٩٢ .

(٤) على علاته : العلات جمع علا والمراد بها ما ينوبه من الله ذات اليد والعموز

والاحتياج . .

فقوله : د على علاقته ، تتميم حسن أفاد المبالغة في المديح ..
وقول الآخر :

إني على ماترين من كبرى أعرف من أين تؤكل الكتف

يريد أنه داهية ، لأن الكتف تؤكل من أسفلها ويشق أكلها من أعلاها ،
ولذا يكنى عن الداهية بقوطم : يعرف من أين تؤكل الكتف ، ويضرب هذا
القول مثلاً الإنسان الذي يعرف مداخل الأمور ، وكيف يصل إلى المكذوبات
داخل الإنسان ، فقول الشاعر : د على ماترين من كبرى ، تتميم جميل أهد
به المبالغة فيها وصف به نفسه .

وبتضح لك عما سبق أن التتيم يختلف عن الإيغال من جهتين :

١ - التتيم مفيد بكونه فضلة ، والإيغال لا يتقيد بهدا ..

٢ - التتيم يكون في وسط الكلام وفي آخره ، أما الإيغال فلا يكون
إلا في آخر الكلام .. كما يختلف التتيم عن التكميل من جهتين أيضاً :

١ - التكميل يدفع به توهم غير المراد ، والتتيم لا يدفع به لهما وإلما
يؤتى به لندسته بلاغية أخرى ..

٢ - التتيم مفيد بكونه فضلة ، والتكميل لا يتقيد بذلك ..

٨ - الاعتراض : وهو أن يؤتى في أثناء الكلام الواحد أو بين كلامين
متصلين في المعنى بأن يكون ثانيهما تأكيداً لاولها أو بياناً له أو بدلاً أو معطوفاً ،
بجملة أو أكثر لا عمل لها من الإعراب لندكتة سوى دفع الإيهام ، وذلك كالتنزيه
في قوله تعالى : « وَنَجِّنَا لَكُمْ مِنَ الظَّالِمِينَ » - سُبْحَانَكَ - وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ^(١)
لجملة وسبحانه ، جملة اعتراضية والغرض منها : تنزيهه تعالى عن المحاذ

البينات ... ود سبحانه ، جملة ؛ لأنها واقعة موقع المصدر الذي هو التزنية والمعنى : أنزهه تنزيها . . . وكألة مظلم في قوله جل وعلا : « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ أَكْفَرُ أَنْ كَرِيمٌ » .^(١) فقد اعترض بين القسم وجوابه بقوله : « وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » ، وداخل هذا الاعتراض اعتراض آخر بين الصفة والموصوف وهو « لو تعلمون » ، وقد أريد بالاعتراضين تعظيم القسم وتفخيم أمره ، وفي ذلك تعظيم للقسم عليه وهو القرآن الكريم ، وتفويه برفعة شأنه .

وكالتقرير في قوله تعالى : « قَالُوا : تَأْتِيهِمْ أَقْدَرُ عَلَيْهِمْ مَا جِئْتَنَا بِالْقُرْآنِ فِي الْأَرْضِ . . . »^(٢) فجلة « لقد علمتم » جملة معترضة بين القسم والجواب لتقرير علم المخاطبين بالبراءة من الفساد والبعث عن تهمة السرقة . . . وكالدعاء في قول الشاعر :

إن الثمانين - وبلغتها - قد أحوجت سمى إلى ترحان .

يظهر الشاعر بتقديم سنه وضعف سمه حتى قد صار يحتاج إلى من يكرر له القول ليسمع ، وجملة : « وبلغتها » جملة معترضة أريد بها الدعاء للمخاطب بطول العمر ، وإثارة عطفه على الشاعر .

وكالتصريح بما هو المقصود في قول كثير عزة :

لو أن الباخلين - وأنت منهم - رأوك لعلموا الناس المطالا

فقوله : « وأنت منهم » جملة اعتراضية أريد بها التصريح بما هو مقصود من ذمها ، وتأكيده بصراف الذم إليها .
والتنبيه كما في قول الشاعر :

واعلم - فعلم المرء ينفعه - أن سوف يأتي كل ما قدرا

لجملة : دفعلم المرء بنفعه ، جملة معترضة ، الغرض منها التنبيه على فضل العلم ونفعه لصاحبه . . ومثله قول الآخر :
فلا هجره يبدو - وفي اليأس راحة -
ولا وصله يبدو لنا فنسكارمه

لجملة : ، وفي اليأس راحة ، ، اعتراضية ، أريد بها التنبيه إلى سبب طلبة الحجر ، وذلك لأن طالب حجر الحبيب وتمنى وقوعه أمر فيه غرابة ، فبين الشاعر بالجملة الاعتراضية أنه لم يتمن هذا إلا بعد اليأس وانقطاع الأمل من وصله : ، وفي اليأس راحة ، .
وكالاستعطاف في قول المتنبي :

ونخفوق قلب لو رأيت لهيبه - يا جنتي - لرأت فيه جهنم

فقوله : ، يا جنتي ، جملة اعتراضية ، لأنها بمعنى : أدع ، والغرض منها الاستعطاف والاستلطاف وما جاء بأكثر من جملة قوله تعالى : « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ - سَخَاتِهُ أُمُّهُ وَهَذَا عَلَى وَهْنٍ وَفِعَالُهُ فِي عَامَيْنِ - أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْاَصِيرِ . » ^(١) فقوله : « أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ » تفسير لقوله : « وصينا » ، وقوله « سَخَاتِهُ أُمُّهُ وَهَذَا عَلَى وَهْنٍ وَفِعَالُهُ فِي عَامَيْنِ » اعتراض بينهما ، وقد أريد به تأكيد التوصية بالأم والتذكير بحقها العظيم على الأبناء لما عانتها وقاسته من آلام . . . وقوله عز وجل : « قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِنْ الذَّكَرُ كَلَّا لَأُنْثَىٰ ، وَلَئِنْ سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ . . » ^(٢) ، فقوله جل وعلا : « وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ » وليس الذكر كالأُنثى ، اعتراض وقع بين قولي امرأة عمران يفيد تأكيد ما أخبرت به . . . وقوله تعالى : « فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ »

الله . إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين . نساؤكم حرث لكم .
فأتوا حرثكم أنى شئتم . . (١) ، فتوله : ، نساؤكم حرث لكم ، بيان
لقوله : فأتوهن من حيث أمركم الله ، وقد اعترض بينهما بقوله عز وجل :
« إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » ، والغرض من هذا الاعتراض :
الترغيب فيما أمر الله به والتنبيه عما نهى عنه ، إذ الغرض الأصلي في الإتيان
هو طلب الذيل ، لا قضاء الشهوة ، فلا تأتوهن إلا من حيث يتأتى من
الإتيان لتحقيق هذا الغرض ، وفي الاعتراض بما ذكر ترغيب في الأمر وتنفيذ
من النهي .

هذا ويتضح لك من الشواهد المذكورة أن الاعتراض قد يأتي بغیر
الواو والفاء ، وقد يأتي بإحدىهما فتسمى - الواو أو الفاء ، عندئذ واو
الاعتراض أو فاء الاعتراض ، وتختلف واو الاعتراض . عن
واو العطف أو الحال ، والتمييز بين تلك الواوات ، قد يكون بيننا
واضحاً وقد يدق ويغمض بحيث يحتاج إلى مزيد من التأمل والتدبر ،
انظر إلى قوله تعالى : « وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ
مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ » . ثُمَّ اتَّخَذْتُمْ عِجْلًا مِنْ بَعْدِهِ أَنْتُمْ ظَالِمُونَ . (٢) ، نجد أن الواو
في قوله : ، وأنتم ظالمون ، صالحة لأن تكون واو الحال ولأن تكون
اعتراضية ، لأنه إذا قصد تقييد الاتخاذ بالجملة ، كانت الواو حالية والمعنى :
ثم اتخذتم العجل حال كونكم ظالمين بإتخاذهم ، وإذا قصد استقلال جملة :
« أنتم ظالمون » عن الاتخاذ ، كانت الواو اعتراضية والمعنى : ، ثم اتخذتم
العجل وأنتم قوم عادىكم الظلم ، فتسكون جملة اعتراضية أتى بها تأكيداً للظلم
ولم يقصد بها الارتباط بالاتخاذ المذكور . . . ولذا نجد أن تمييز واو
الحال ومثلها واو العطف ، من واو الاعتراض ، قد يدق ويغمض بحيث
يحتاج منك إلى مزيد من التأمل ومراجعة السياق .

(١) سورة البقرة آية ٢١٢ ، ٢٢٣ . (٢) سورة البقرة آية ٥١ ، ٥٢ .

وعما ينبغي أن تقف عليه وتعلمه ، أن الإطناب ليس مقصودا على ذلك
 الأنواع التي ذكرناها ، بل قد يقع بعضها ، فن مقاماته : مقامات الذكر
 التي مرت بك في أحوال المسند والمسنود إليه ومتعلقات الفعل . ومنها ما يكون
 بالإفاضة في جواب الاستفهام حيث يقتضى المقام الإطناب وامتداد القول ،
 كما رأينا في قوله تعالى : « وَمَا تِلْكَ بَيِّنَاتُكَ يَا مُوسَى . قَالَ : هِيَ عَصَايَ
 أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأُشْفَى بِهَا عَلَى غَفْسِي وَلِي فِيهَا مَنَآرِبُ أُخْرَى » . (١) .
 وكما في قوله تعالى : « وَانْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ . إِذْ قَالَ لِأَيُّهَا وَقَوْمِي :
 مَا تَعْبُدُونَ . قَالُوا : تَعْبُدُونَ أَصْنَامًا تَفْظَلُ لَهَا عَآكِفِينَ » . (٢) ، فقد كان
 يكفي أن يقال في الجواب . « أصناما » ، ولكنهم أطنبوا فذكروا كلمة :
 « تعبد » ، ثم أضافوا : « فنظّل لها عاكفين » ، ليظهروا ابتهاجهم بمبادتها ،
 وافتخارهم بالمراظفة على تلك العبادة ، ويريدون بهذا الإطناب أن يزداد
 غيظ السائل وهو إبراهيم عليه السلام . . . ومن الإطناب زيادة بعض
 الأحرف في النظم لتحقيق غرض من الأغراض البلاغية ، كزيادة « أن » بعد
 « لئلا » في قوله تعالى : « فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلَنَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ
 بَصِيرًا » . (٣) ، فزيادة « أن » بعد لئلا في الآية السكرية ، دلّت على أن المجيء
 لم يكن على الفور بل كان هناك تراخ وتباطؤ ، لبعدهما كان بين يوسف وأبيه
 عليهما السلام ، وكذا قوله تعالى : « فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ
 عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ : يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ نَعْتَصِبَ كَمَا فَتَنَآ نَفْسًا بِالْأَمْسِ » . (٤)
 فقد زبدت « أن » بعد لما ، للدلالة على أن موسى عليه السلام لم يسارع إلى
 قتل الثاني كما سارع إلى قتل الأول . . .

وكزيادة « ما » بعد « إذا » في نحو قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَحْتَضِرُونَ

(٢) سورة الشعراء آية ٢٢ - ٢٦ .

(٤) سورة القصص آية ١٩ .

(١) سورة طه آية ١٨ .

(٣) سورة يوسف آية ٩٦ .

كَبَارِ الْإِنْمِ وَالنَّوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ..»^(١) ، فزيادة
د ما ، في الآية الكريمة دلت على ندرة حدوث الغضب من دولا . فهم
لا يغضبون إلا قليلا وإذا ما غضبوا هم يغفرون ويهدون عن أغضبهم . . .
وفي قول الشاعر :

إذا ما غضبنا غضبة مفرية

هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

دلت زيادة د ما ، على أنهم لا يغضبون إلا حين يوجب الحزم أن
يغضبوا ، فهم يغفرون كثيرا ولا يغضبون إلا نادرا ، وحين يضطرم الغير إلى
الغضب ينتقمون شر انتقام ، فغضبهم إنما هي غضبة الحليم . . . ومن
الإطناب زيادة بعض السطحات التي يفيد زيادتها تأكيد اقتضاء المقام ،
على نحو ما رأينا في مثل قولهم رأيت بهي وسمعت بهاذي وثلاثه بفمى . . .
وقوله تعالى : « إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنِّكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَكُمُ
لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّكًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ »^(٢) ، وقوله تعالى :
« مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ اللَّائِي
تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ
بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ »^(٣) ، وقوله تعالى :
« قَدْ مَسَّكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْوَعْدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ
السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَنَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْمُرُونَ »^(٤)

فالرؤية لا تكون إلا بالعين والسمع لا يكون إلا بالأذن والقول
لا يكون إلا بالفم والألسنة ، والقلب لا يوجد إلا في الجوف والسقف

(٢) سورة النور آية ١٥

(٤) سورة النحل آية ٢٦

(١) سورة الشورى آية ٣٧

(٣) سورة الأحزاب آية ٤

لا يكون إلا من فوق ، وقد زبدت تلك الكلمات لإفادة التوكيد الذي اقتضاه
المقام على نحو ما وضحت لك فيما سبق .

وهذا يتبين لك أن الإطناب ليس مقصودا على تلك الأنواع المذكورة ،
بل يتعداها إلى كل زيادة في النظم أفادت معنى يقتضيه المقام ويتطلبه .

• • •

المساواة

قالوا في تعريفها : إنها تأدية المعنى المراد بعبارة مساوية له ، بأن تكون
الألفاظ على قدر المعاني ، لا يزيد بعضها عن بعض ، ولا ينقص . . . وقد
أخذوا من متعارف الأوساط مقياسا يقيسون عليه الكلام ، فالكلام إذا
قل عن متعارف الأوساط كان إيجازا ، وإذا زاد عنه كان إطنابا ، وإذا جاء
على حد متعارف الأوساط فهو المساواة وهي في باب البلاغة لا تحمد ولا تنم .
واستشهدوا لما بنحو قوله تعالى : « وَلَا يَحْبِقُ الْكُفْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ »^(١)
وقوله عز وجل : « وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ
حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ خَيْرٍ »^(٢) ، وقول الرسول - عليه الصلاة
والسلام - : « الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات » وقول النابغة الذبياني :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وقول طرفة بن العبد :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا وبأتيك بالآخبار من لم تزود

وقول زهير :

وهما يكن عند امرئ من خليفة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

(١) سورة فاطر آية ٤٣ .

(٢) سورة الأنعام آية ٦٨ .

هذا ولم تسلم هذه الشواهد التي استشهد بها البلاغيون للمساواة ، لأنك عند التأمل تجدها راجعة إما إلى الإيجاز أو إلى الإطناب ، فمثلاً في الآية الأولى إذا رجعت إلى سياقها في النظم الكريم : « اسْتَعِزَّ كِبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَسْكُورَ السَّيِّئِ وَلَا يَحْقِيقُ الْمَسْكُورُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ » تراها قد وقعت تذييلاً ، والتذييل - كما عرفت - من أنواع الإطناب ، ثم إنها أسلوب قصر ، والقصر من الإيجاز ، وقوله تعالى : « وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا . . . » الآية ، وقول الرسول - صلى الله عليه وسلم . « الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات » ، لا يخفى عليك رجوعهما إلى إيجاز القصر ، لأن المعاني التي تكون في الآية الكريمة والحديث الشريف معان كثيرة غزيرة ، والفاظهما قليلة - كما ترى - وهذا هو إيجاز القصر الذي مر بك . . . وتجد الشطر الثاني من بيت النابغة : « وإن خلت أن المنتأى عنك واسع » تذييلاً غير جار مجرى المثل ؛ كما تجد في الشطر الأول من بيت طرفة إيجازاً يحنف الجار والمجرور والثقة - دير : « مستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً به . . . » وفي بيت زهير تجد قوله : « وإن خالها تخفى على الناس » اعتراضاً بين الشرط وجوابه .

وهكذا تستطيع أن ترجع ما استشهد به البلاغيون للمساواة ، إما إلى الإيجاز وإما إلى الإطناب ، فالأولى أن تجعل المساواة قاصرة على كلام الأوساط لأنها نادرة الوقوع في التعبيرات الجيدة والكلام البليغ ، ولأن البلاغيين قد جعلوها خالية من جميع الاعتبارات البلاغة وقالوا : إنها لا نحمد ولا نذم في باب البلاغة .

تم بحمد الله تعالى في ٢٨ من ربيع الآخر سنة ١٤٠٧ هـ .

الموافق ٢٩ من ديسمبر سنة ١٩٨٦ م .

والحمد لله أولاً وآخراً . . . وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

أهم مراجع الكتاب

- ١ - الإتيقان في علوم القرآن للسبوطى طبعة الحلبي ١٣٩٨ هـ .
- ٢ - أسرار البلاغة لعبد القاهر . ط : دار الطباعة المحمدية ١٣٩٢ هـ .
ث : محمد عبد المنعم خفاجي .
- ٣ - الأسلوب للدكتور أحمد الشايب . طبعة السعادة . الطبعة الخامسة .
- ٤ - أساليب الاستفهام في القرآن الكريم من الوجهة البلاغية للدكتور بسيوني عبد الفتاح مخطوط بالأزهر (رسائل) .
- ٥ - إعجاز القرآن للباقلاني . ط : دار المعارف ١٩٧٧ م : السيد صقر .
- ٦ - أمالي المرتضى ط : الحلبي ١٣٧٣ هـ : محمد أبو الفضل إبراهيم .
- ٧ - الإيضاح للقروي وبهامشه البغية للصعيدى ، ط : ٢ بيح ١٣٩٢ هـ .
- ٨ - البرهان في علوم القرآن للزركشى ، ط : دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٧ م : محمد أبو الفضل .
- ٩ - البلاغة القرآنية في تفسير الكشاف للدكتور محمد أبو موسى ، ط :
دار الفكر العربي .
- ١٠ - البيان والتبيين للجاحظ ، ط : الخانجي ، ت عبد السلام هارون .
- ١١ - تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ، ط الحلبي ١٣٧٣ هـ .
- ١٢ - تنزيه القرآن عن المطاعن لعبد الجبار ، ط : دار النهضة - بيروت .
- ١٣ - ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، ط : دار المعارف ١٩٧٦ م .
- ١٤ - جهرة أشعار العرب لأنى زيد القرشى ، ط : جامعة الإمام
محمد بن سعود ، ت : محمد الداشمي .
- ١٥ - حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوى ، ط : دار الطباعة الخديوية .
- ١٦ - الحيوان للجاحظ ، ط : السامى ١٩٥٠ م .

١٧ - الخصائص لابن جني ، ط : دار الهدى ببيروت ، ت : محمد
عل النجار .

١٨ - خصائص التراكيب للدكتور محمد أبو مرسى ، ط : دار التضامن
١٩٨٠ م

١٩ - دلائل الإعجاز لعبد القاهر ، ط : الفجالة : محمد عبد المنعم خلفا جى .

٢٠ - دلائل التراكيب للدكتور محمد أبو موسى ، دار المعلم ١٣٩٩ هـ .

٢١ - روح المعاني للألوسى ط : دار إحياء التراث العربى ببيروت .

٢٢ - سر الفضاحة لابن سنان الخفاجى ، ط : الخانجي ، ت : علي فردة .

٢٣ - شروح التلخيص .

٢٤ - شرح المعاني لارزنى ، ط : المطبعة التجارية ١٩٧١ م .

٢٥ - الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ط : دار المعارف ١٩٦٧ م ، ت :
أحمد شاكر .

٢٦ - الصاحبى لأحمد بن فارس ، ط : المؤيد ١٣١٨ هـ .

٢٧ - الصناعتين لأبي هلال العسكري ، ط : الحلبي ١٩٧١ م .

٢٨ - طبقات فحول الشعراء لابن سلام ، ط : المدني ، ت : الأستاذ
محمود شاكر .

٢٩ - الطراز ليحيى بن حمزة العلوى ، ط . المقتطف ١٣٢٢ هـ .

٣٠ - عقود الجمان للسيوطى ، المطبعة الشرقية ١٣٠٥ د .

٣١ - العمدة لابن شيق ، ط : دار الجليل ، ت : محمد محي الدين .

٣٢ - عبار الشعر لابن طباطبا ، ط : شركة فن الطباعة ١٩٥٦ م .

٣٣ - الكتاب لسيدويه ، ط : الهيئة المصرية ١٩٧٧ م ، ت : عبد السلام
هارون .

٣٤ - السكشاف للزمخشري ، ط : الحلبي ١٣٩٨ هـ .

٣٥ - الكامل للمبرد ، ط : نهضة مصر ١٩٥٦ م ، ت : محمد أبو الفضل .

٣٦ - لسان العرب لابن منظور ، ط : دار المعارف .

- ٣٧ - متشابه القرآن لعبد الجبار ، ط : دار النصر ١٩٦٩ م ، ت :
عدنان زرزور .
- ٣٨ - المثل السائر لابن الاثير ، ط : الحلبي ، ت : محمد محي الدين .
- ٣٩ - مجمع الأمثال للميداني مطبعة السعادة ١٣٧٩ هـ ت محمد محي الدين .
- ٤٠ - مجاز القرآن لأبي عبيدة ، ط : الخانجي ، ت : محمد فؤاد .
- ٤١ - معاني القرآن للفراء ، ط : الهيئة المصرية ١٩٨٠ م .
- ٤٢ - المطول لسعد الدين التفتازاني .
- ٤٣ - معاهد التنصيص على شراهد التلخيص للعباسي ، ط : السعادة ، ت :
محمد محي الدين .
- ٤٤ - المغني للقاضي عبد الجبار ج ١٦ في إعجاز القرآن ، ط : وزارة
الثقافة .
- ٤٥ - مغني اللبيب لابن هشام ، مطبعة المدني ، ت : محمد محي الدين .
- ٤٦ - مفتاح العلوم للسكاكي . ط : الحلبي ١٣٥٦ هـ .
- ٤٧ - المقضيات للضبي ط : دار المعارف ، الطبعة الخامسة ، ت :
محمود شاكر .
- ٤٨ - مقتضى الحال بين البلاغة القديمة والنقد الحديث للدكتور إبراهيم
الخولي ، منخطوط ، بالأزهر (رسائل) .
- ٤٩ - من أسرار التعبير القرآن للدكتور محمد أبو موسى ، ط : دار الفكر
العربي ١٣٩٦ هـ .
- ٥٠ - من بلاغة النظم العربي للدكتور عبد العزيز عرفة ، ط : دار الطباعة
المحمدية ١٤٠٢ هـ .
- ٥١ - مناهج تجديد لأمين الخولي ، ط : دار المعرفة ١٩٦١ م .
- ٥٢ - الموطأ للإمام مالك ، ط : الحلبي ١٣٧٠ هـ .
- ٥٣ - الموازنة للأمدى ، ط : المعارف ١٣٨٠ هـ ، ت : السيد صقر .
- ٥٤ - النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز مطبعة السعادة ١٣٨٩ هـ .

- ٥٥ - النقد الأدبي الحديث للدكتور محمد غنيمى دلال ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧١ م .
- ٥٦ - النقد الأدبي لسيد قطب . ط دار الفکر العربى ١٩٥٤ م .
- ٥٧ - النقد المنهجي عند العرب للدكتور محمد مندور ط : نهضة مصر ١٩٧٢ م .
- ٥٨ - نقد الشعر لقدامة ، ط : مطبعة أنصار السنة ١٩٤٩ م ت كمال مصطفى .
- ٥٩ - نقد النثر (البرهان فى وجوه البيان) لابن وهب ، مطبعة مصر ١٩٣٩ م ت : طه حسين وعبد الحميد العبادى .
- ٦٠ - نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز للرازى . مطبعة الآداب ١٣١٧ هـ .
- ٦١ - الوساطة بين المتنبي وخصومه لعلى بن عبد العزيز الجرجاني . ط : الحلبي ت : محمد أبو الفضل .
- ٦٢ - يتيمة الدهر للشمس البهى ، ط : الصاوى ١٩٣٤ م .

محتويات الجزء الثاني

الصفحة	الموضوع
١ - ٤	مقدمة :
٧٦ - ٥	الفصل الأول : أماليب القصر :
٨ - ٥	المزايا البلاغية لأساليب القصر - معناه - إجمال لما ذكره البلاغيون في القصر
١٩ - ٨	القصر الحقيقي والقصر الإضافي : الفرق بينهما - القصر الحقيقي التحقيقي والحقيقي الادعائي - إمكان قصر الموصوف على الصفة قصرًا حقيقيًا تحقيقيًا - أنواع القصر الإضافي - قصر القلب - قصر الأفراد - قصر التعمين - بيان المراد بحال المخاطب إلى تحدد نوع القصر الإضافي
٢٨ - ١٩	قصر الصفة على الموصوف والموصوف على الصفة : المراد بالصفة - المراد بالموصوف - ضوابط معرفة الصفة والموصوف - قصر الموصوف على الصفة أبلغ من قصر الصفة على الموصوف - الفرق بين القصر الحقيقي الادعائي والقصر الإضافي
٥٥ - ٢٨	طرق القصر : المطف بلا وبلا ولا - كن - آراء البلاغيين في دلالة هذه الأدوات على القصر - النفي والاستثناء - تقديم المستثنى على المستثنى منه - وجه دلالة النفي والاستثناء على القصر - الاستثناء التام - اجتماع المطف بلا والنفي والاستثناء - إنما - وجه دلالاتها على القصر - هل تفيد أنما ، القصر - التقديم - ضمير الفصل - تعريف أحد الطرفين ، بال ، الجنسية :
	أوجه الاختلاف بين طرق القصر : الطرق التي تدل على القصر دلالة وضعية - الطرق التي تدل على القصر دلالة غير وضعية -

الموضوع	الصفحة
ما ينص فيها على المثبت والمنفى معا وما ينص فيها على المنفى أو المثبت فقط - اجتماع طرفين من طرق القصر - الفرق بين دلالة المنفى والاستثناء - تحديد مرقع المقصور والمقصور عليه - جمال التعريض بإثما :	٥٦ - ٧٦
الفصل الثانى : أساليب الإنشاء :	٧٧ - ١٦٥
الفرق بين الأسلوب الإنشائى والأسلوب الخبرى - الإنشاء الطلبي وغير الطلبي - الفرق بينهما - إهمال البلاغيين دراسة أساليب الإنشاء غير الطلبي :	٧٧ - ٨٣
أسلوب الأمر : صيغة - مفهومه - ما يستعمل فيه - المعانى البلاغية التى يفيدها أسلوب الأمر ووجه الدلالة عليها :	٨٣ - ١٠١
أسلوب النهى : صيغته - مفهومه - المعانى البلاغية التى يفيدها أساليب الاستفهام : معنى الاستفهام - أدواته - معنى كل أداة - ما يطلب به التصور أو التصديق وما يطلب به أحدهما فقط - بناء الجملة بعد هل والهمزة - خصائص هل - مناقشة ما ذكره البلاغيون فى بيان هذه الخصائص - الفرق بين هل وهمزة التصديق - المعانى البلاغية للاستفهام ووجه الدلالة عليها :	١٠١ - ١١٠
النداء : معناه - أدواته - دلالاته على الطلب - نداء الجعيد نداء القريب - نداء القريب نداء الجعيد - أغراض البلاغية - تقوى أساليب الأمر والنهى والاستفهام بالنداء :	١١٠ - ١٤٤
التمنى : معناه - الفرق بينه وبين الترجى - أدواته الموضوعية له - التنى بخير تلك الأداة وأمراره - حروف التنديم والتعريض : ١٥٥ - ١٦١	١٤٤ - ١٥٥
التعبير بالخبر فى موضع الإنشاء - التعبير بالإنشاء فى موضع الخبر - تنوع الأسلوب بين الخبر والإنشاء :	١٦١ - ١٦٥

الموضوع	الصفحة
فصل الثالث : الفصل والوصل :	١٦٦ - ٢٣٢
قصة هذا الباب - العطف بغير الواو وما وراءه من دقائق - عطف المفردات - مناقشة ما يراه البعض في المفردات وأنها تعطف الواو إذا كانت متجانسة متجانسة - عطف الصفات - عطف	
الصفة على الموصوف والحال على صاحبها - مناقشات :	١٦٦ - ١٧٧
وصل وفصل الجمل التي لها محل من الإعراب :	١٧٧ - ١٨٥
مواضع الفصل بين الجمل : كال الاتصال - كال الانقطاع بالإيهام - شبهة كال الاتصال - شبهة كان الانقطاع - الفصل لعدم الاشتراك في القيد :	١٨٥ - ٢١٨
مواضع الوصل بين الجمل : التوسط بين السكاكين - كال الانقطاع مع الإيهام :	٢١٨ - ٢٢٠
الجامع بين الجملتين - محسنات الوصل - فررق في الجملة الحالية	٢٢٠ - ٢٣٢
فصل الرابع : الإيجاز والإطناب .	٢٢١ - ٢٧٧
لمحة تاريخية - مقامات الإيجاز - مقامات الإطناب :	٢٣٣ - ٢٣٤
إيجاز : معناه - أنواعه - إيجاز القصر - تحليلات :	٢٣٤ - ٢٢٩
إيجاز الحذف : معناه حذف جزء الكلمة - حذف الكلمة - حذف الجملة - حذف الجمل - قرأت الحذف :	٢٢٩ - ٢٥١
إطناب : معناه - الفرق بينه وبين التطويل والحشو - نوعا لحشو - مناقشة عما قاله البلاغيون في الحشو والتطويل :	٢٥١ - ٢٥٧
نواع الإطناب : الإيضاح بعد الإيهام - باب نعم وبئس - توشيح - ذكر الخاص بعد العام - ذكر العام بعد الخاص :	٢٥٧ - ٢٦٠
تكرار وأغراضه - الإيغال : معناه وروده في الشعر والنثر - تذييل : أنواعه - الفرق بينه وبين الإيغال :	٢٦٠ - ٢٦٦
تكميل - التتميم - الفرق بينهما - الفرق بين التتميم والإيغال -	

To: www.al-mostafa.com